مجلة إسلامية شهرية جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة السادسة والعشرون . العدد ٢٨٦ . جمادى الآخرة ١٤٣٢ هـ . مايو ٢٠١١ م

القدس عاصمةً
للنظام العالمي الجديد

جدلية العلاقة
بين المثقَّف والسِّياسي

ثورات بالوكالة

الحرب الأهلية
في اليمن...
المتوقع والمأمول

الدولة الإسلامية
بين الدينية والمدنية

مستشفى أبها الخاص

الراعي الطبي لمهرجان أبها للتسوق

إتفاقية التعاون الطبي مع جامعة ماكجيل بكندا ومركز ديترويت الطبي العالمي

استشاريون سعوديون في جميع التخصصات

مجمع خاص ومتكامل للنساء

كفاءات طبية متميزة

تجهيزات طبية حديثة

وحدات متخصصة في خدمتكم

وحدة طب وجراحة المخ والأعصاب
وحدة جراحة العظام والعمود الفقري
وحدة جراحة التجميل وشفط الدهون
وحدة جراحة الكلى والمسالك البولية
وحدة الجراحة العامة والمناظير
وحدة الأنف والأذن والحنجرة
وحدة الأمراض الباطنية والمناظير
وحدة أمراض الشرج والمستقيم

وحدة طب وجراحة العيون
وحدة النساء والولادة
وحدة الأطفال وحديثي الولادة
وحدة جراحة الأطفال
وحدة الجلدية والتناسلية
وحدة الأمراض الصدرية
وحدة العلاج الطبيعي والتأهيل

وحدة أمراض الكلى
وحدة السمنة والسكر
وحدة الطب النفسي
وحدة أمراض القلب والشرايين
وحدة علاج الروماتيزم والمفاصل
وحدة طب وجراحة الأسنان
وحدة العناية المركزة

وحدة الطوارئ واستقبال الحوادث على مدار ٢٤ ساعة

جهاز الليزر الأخضر KTP
لاستئصال تضخم البروستاتا

المنظار الجراحي

جهاز الأشعة تحت الحمراء للبواسير

جهاز الموجات الصوتية رباعي الأبعاد

جهاز الليزر الكربوني للعناية بالبشرة

جهاز قياس جهد القلب

جهاز ديكسا DEXA لقياس هشاشة العظام

أبها - شمال الخطوط السعودية -هاتف: ٢٢٩٢٢٢٢ فاكس : ٢٢٤٤٨٠١ ص ب : ١٧٩٤
البريد الإليكتروني : info@aph.med.sa www.aph.med.sa

ABHA PRIVATE HOSPITAL

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

الافتتاحية

٤ **جدلية العلاقة بين المثقف والسياسي**
التحرير

العقيدة والشريعة

٨ **هدايات سورة الإسراء**
أحمد ذو النورين

١٦ **هدم الأبنية على القبور سنةٌ مأثورة**
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

السياسة الشرعية

٢٠ **الدولة الإسلامية... بين الدينية والمدنية**
محمد بن شاكر الشريف

الغرب: قراءة عقدية

٢٤ **القدس عاصمةً للنظام العالمي الجديد**
فيصل بن علي الكاملي

قضايا تربوية

٢٨ **في مجالس سعد رضي الله عنه يتربى المصلحون**
أحمد بن عبد الرحمن الصويان

الإسلام لعصرنا

٣٢ **الانتفاضات التي حيرت الغرب**
أ. د. جعفر شيخ إدريس

معركة النَّص

٣٤ **بين الأصل والاستثناء**
فهد بن صالح العجلان

حوار

٣٦ **حوار مع الشيخ مولاي عمر بن حماد**
أجرى الحوار: جلال الشايب

نص شعري

٤٠ **بعد أعوام من الرحيل**
د. عبدُ الرحمن صالح العشماوي

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
هاتف خدمة العملاء مباشر: ٢٢٥١٩٦٧
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة : شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ – ٤٥٥٧٨١١ – ٤٥٥٧٨١٢ – فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
د. أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

الإخراج الفني
محمد سالم لرضي

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

ملف العدد

٤٤ ماذا جرى في سورية؟ وماذا يجري الآن؟
د. محمد العبدة

٤٨ قراءة في المشهد السوري
عبد الله عبد الرحمن

٥٦ سوريا... آفاق الحركة الشعبية ومطالبها
د. بشير زين العابدين

٦٢ دولة الأشباح
د. يوسف بن صالح الصغير

المسلمون والعالم

٦٦ الحرب الأهلية في اليمن... المتوقع والمأمول
أنور بن قاسم الخضري

٧٠ العلاقات السودانية المصرية بعد الثورة
فريق أول ركن (العباس عبد الرحمن خليفة)

٨٠ تفتيت العرب... هل من فرصة؟
عبد المنعم منيب

٨٢ مرصد الأحداث
جلال سعد الشايب

قصة قصيرة

٨٧ ضجيج الصمت
عبد المنعم فرج ناصر الدلعه

عين على العدو

٨٨ التصعيد العسكري الأخير ضد قطاع غزة
د. عدنان أبو عامر

قراءة

٩٠ موقع تركيا ودورها في السياسة الدولية
السنوسي محمد السنوسي

منتدى القراء

٩٢ أبناؤنا في خطر
سعيد بوكرامي

الورقة الأخيرة

٩٤ ثورات بالوكالة
د. عبد الله بن محمد المديفر

[كلمة صغيرة]

السلفيون والإخوان وواجبات المرحلة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، وبعد:

فإن ما يحصل في مصر وتونس وغيرهما من الدول العربية من التدافع بين الإسلاميين وعددٍ من الاتجاهات العَلمانية واليسارية، يتطلب رؤية علمية واعية، وأفقاً دعوياً جديداً، يتجاوز افتعال المشكلات الجانبية، وينأى عن الصراعات الحزبية؛ فمقتضيات المرحلة الحرجة التي تمر بها البلاد العربية فوق ذلك كله.

إنَّ ثمة حقيقةً واقعيةً لا شك فيها، وهي: أن العلاقة بين بعض السلفيين وبعض تيارات الإخوان المسلمين تشوبها في بعض الأحيان شوائب التوتر والتدابر، ولا شك أن هناك اختلافات حقيقيةً لا ينبغي إغفالُها، لكنَّ الواقع يحدِّثنا أيضاً عن كثير من الاختلافات التي لا مسوِّغ لها، يستدعيها أحياناً بعض من لا فقه له ولا حكمة عنده، ولا يزال الشيطان ينفخ فيها حتى تُفرِّق الصفوف وتوغر الصدور.

إن الاختلافات التي تقع بيننا يجب أن تُدرَس دراسةً علمية متجردة، ونتحاور حولها بفهم وأخوَّة، بعيداً عن التشنج والتهارش، ونُحيِي فقه التناصح والتواصي بالحق. ونقدِّم مبادرات عملية لجمع الكلمة وتوحيد الصف، ونعطي للشباب دروساً في الترفع عن القيل والقال، والخوض في ما لا فائدة منه للعمل الإسلامي من القول أو العمل.

لقد أثبت الخطاب العَلماني بتياراته المختلفة أنه يستهدف الإسلام عقيدة وشريعة، ولا فرق عنده بين الإخوان والسلفيين من حيث الجملةُ، كما أثبتت بعضُ الوثائق الأمنية التي تسربت في مصر أن الجهات الأمنية عبر عقود متتابعة كانت وراء إثارة الفرقة والبغضاء بينهم؛ من أجل إضعاف شوكة الخطاب الإسلامي عموماً.

وقد سرَّنا جداً أن عدداً من الرسائل الإيجابية من بعض رموز الإخوان والسلفيين في مصر دعت إلى التعاون والتكاتف في وجه الحملات العَلمانية التي تسعى لإشاعة الفرقة، وتشويه صورة الإسلاميين وتعبئة الشارع للتخويف من صعودهم.

إذاً القضية أكبر من المسميات أو الوسائل العابرة، ونحسب أن إخواننا الكرام من جميع التيارات الإسلامية لديهم من الحكمة وسعة الأفق وعمق البصيرة، ما يجعلهم يدركون ضرورة البدء بالأوليات، وتغليب مصالح الأمة، والدعوة الجادة إلى الاعتصام بحبل الله، امتثالاً لقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

جدلية العلاقة بين المثقَّف والسِّياسي

بيان المثقَّف وأنياب السِّياسي!

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبينا محمَّد وعلى آله وصحبه، وبعد:

حين سقطت بعض الأنظمة العربية الاستبدادية اتجهت أنظار الجموع الثَّائرة إلى قادة الثَّقافة الذين كانوا يمالئون الأنظمة المنهارة إلى ما قبل تهاويها بالهرب أو الخلع، وقد خسر بعض «رموز» الثَّقافة مواقعهم بسبب غضبة الجماهير من مواقفهم الجبانة الخائرة إبَّان عقود الظُّلم والجبروت. ومع زوال الطُّغاة بدأ ظِلُّ مثقفي الحكومات البائدة بالانحسار والتَّواري عن الأنظار، وسيبقى التَّاريخ خير شاهد على هؤلاء الذين لفظتهم شعوبهم معنوياً قبل انطلاق الثَّورات؛ ثم كنستهم من المشهد الثَّقافي بعد نجاح الاحتجاجات الشَّعبية.

وفي مقابل سقوط الأقنعة عن هؤلاء النَّفعيين من موظفي الحكومات وألسنة الأحزاب القمعية، ارتفعت لدى الشُّعوب العربية أسهم المثقفين الذين كانوا يسعون في سبيل نهضة الأمة ورقيِّها، ويجاهدون لنصرة الحقِّ ودحض الباطل وعمارة الأرض، سالكين دروباً وعرة لتعرية الفساد وأهله، ومقاومة الطُّغيان وجنوده، بالكلمة الحرَّة المسؤولة، والعمل الجاد المنَّظم، وبالتَّأثير الإيجابي في المجتمع من خلال القنوات المتاحة لهم تحت قهر المفسدين وتسلُّطهم، وقد تحمَّلوا في سبيل ذلك من الآلام والإهانات والإقصاء ما لا يخفى على المتابع.

ومن الضَّروري لأي مجتمع وجود أرباب السِّياسة من الحكَّام ومَنْ اتصل بهم، كما لا يخلو المجتمع من المثقفين على تنوعهم وربَّما اختلافهم، ويأتي على رأس الطَّبقة المثَّقفة: العلماء والدُّعاة، والمفكِّرون والكتَّاب، والأدباء والأكاديميون. ومن لوازم الاجتماع أن يحدث احتكاك بين هاتين الفئتين بسبب الاشتراك في منطقة التَّحرك ومربع الاهتمام؛ فعمل السِّياسي منصبٌّ بدرجة رئيسة على رعاية الشَّأن العام من جميع نواحيه، وهي ذات المسائل التي تشغل بال المثقف ويمنحها أكثر جهده. ولذا فالمثَّقف والسِّياسي شريكان في موضوع واحد وإن اختلفا في طريقة التَّعاطي معه؛ فالمثقف ممارس للسِّياسة بأقواله وآرائه، والسِّياسي يتبع مقتضيات ثقافته بأفعاله وإجراءته، وهنا تكمن جوهر العلاقة بين الطَّرفين ومواضع الانتقاد أو الاتفاق؛ إذ كلُّ أحد من الفريقين يدَّعي أحقيته بالمجتمع وأنَّه أصدق مَنْ يعبِّر عنه.

ويبالغ السَّاسة عادة في الحذر والخوف الزَّائد، ويستميتون في مقاومة التَّغيير والتَّشبث بالواقع، ويركز السِّياسي على الحاضر دون اعتبار كبير للمستقبل. وينظر السَّاسة للمثقفين على أنَّهم مجرَّد أبواق جاهزة لشرح مواقف النِّظام وتسويغ أخطائه وجرائمه، فضلاً عن تدبيج المدائح في الأحياء، وكتابة المراثي في مَنْ مات من رؤوس القوم وله بقيَّة لا تزال تسيطر وتحكم. ولا مكان في أعراف كثير من السَّاسة للمثقف ذي الرؤية التي لا تسبَح في فلك النِّظام، وقد يعاقب أحدهم الثَّقافةَ بأجمعها بسبب «جرم» مثقف واحد، وفي هذا السِّياق حُجبت أعمال ومنتجات دعوية وثقافية نكاية بشخص واحد فقط!

ويمتاز المثقفون عادة بالاستقلالية والاعتزاز بما لديهم، ويعتنون كثيراً باستشراف المستقبل وتقدير المآلات؛ ولذا ينشغلون بالمبادرات الإصلاحية، وتقديم المقترحات والانتقادات على الأداء الحكومي. ويرمق المثقفُ السياسيَ بعين ملؤها التَّوجس والخوف من بطشه وإرهابه، أو بعين أخرى مترعة بالطَّمع في خزائنه ومناصبه، وثمَّة مَنْ ينظر للسَّاسة وقد أغمض عينيه الاثنتين إلاَّ عمَّا يؤمن به ويقدِّر فيه المصلحة لأمته وبلاده؛ أو يغمضهما إغماض إعراض وصدود وابتعاد طلباً للسَّلامة.

ومن طبائع السِّياسي المراوغة بالأفعال، والتَّلاعب بالأقوال، والتَّنقل بين الاحتمالات وما يمكن فِعْله. أما المثقف فسمته الصَّراحة والوضوح، والحديث عمَّا ينبغي وقوعه، والتَّعبير عن وجدان الأمة ومشاعرها، وهو مسكون بهاجس إضافة الجديد والمفيد لأمته، ونقد أخطاء الوضع القائم الذي يحرسه السِّياسي؛ ويرى أنَّ مهمَّته الأولى تتلخص في الحفاظ عليه وتجنيبه الأخطار التي يخشاها. ويسير السِّياسي والمثقف في مسارات متوازية؛ تكتنفها التَّوترات أحياناً؛ ومع ذلك فلا يستغني أحدهما عن الآخر؛ فكما يحتاج المثقف إلى سياسي يتبنَّى أفكاره ويجعلها واقعاً، فإنَّ السِّياسي لا بدَّ له من مثقف واعٍ يبصِّره بالصَّواب، ويبيِّن له ما يعينه في عمله وإدارته للشَّأن العام.

ومن أشدِّ الحالات حرجاً أن يكون المثقف موظفاً لدى السِّياسي أو عضواً في حكومته لا يستطيع نقدها أو إبداء آراء مخالفة لرؤيتها. ومما يؤلم المثقف أن يحصره السياسي في زاوية واحدة إذا خالفه؛ فهو عميل للخارج، أو يتلقى الأموال من مؤسسات مشبوهة! وحين يشارك المثقف في السياسة يخسر مصداقيته ويفقد توهجه، ويتحول إلى سياسي ذي لغة دبلوماسية تستر كلماته الأفكار ولا توضحها. وأفضل حال للطرفين خاصَّة مع الانفتاح الإعلامي أن تتسع مساحة الرأي وفضاءات التَّعبير للمثقف، وفي ذلك تعزيز لموقع السياسي ومشروعية بقائه، ويصبح المجتمع آمناً مستقراً، يقول مثقفوه كلمة الحق بلا رهبة أو مؤاخذة، ويتقبَّل ساسته الآراء الصَّادقة دون عقاب أصحابها.

وتأخذ علاقة المثقف بالسِّياسي عدداً من الصُّور المختلفة، فهي: إما علاقة ذوبان وتداخل، يفقد فيها المثقف تقديس الحقِّ لصالح السُّلطة، ويصبح - ولو بالتَّدريج - بوقاً يجري خلف ركاب الظَّلمة والمجرمين، ولا يعدو قَدْرُه خرزة مهينة في سُبحَة السِّياسي الطَّويلة يقلِّبها كيفما شاء، أو تصوغ العزلة العلاقة بين المثقف والسِّياسي صورةً ثانيةً؛ فيصير المثقف في وادٍ في ما يكتبه ويقوله ويبحثه، والسِّياسي في وادٍ آخر بأعماله وقراراته، ولا يتقاطعان ألبتة إن خيراً أو شراً؛ وربَّما يموت كلُّ واحد منهما دون أن يعرف الآخر! والصُّورة الثَّالثة يكون فيها المثقف معارضاً للسِّياسي يحسب عليه أنفاسه، ويقوِّض إنجازاته ولايراها شيئاً مذكوراً، وتكون هذه الحال في أسوأ درجاتها إذا كان المثقف مأسوراً لتوجه سياسي مناهض للأمر القائم، فيرى المثقف أنَّ الحقَّ يدور مع حزبه حيثما دار، وقد لا يدرك أنَّ حزبه - غالباً - هو الوجه الآخر للنِّظام الذي ينتقده.

وخير من هذه الصُّور الشَّوهاء لعلاقة المثقف بالسِّياسي صورة رابعة لا هي مع السِّياسي دوماً، ولا هي ضدَّه أبد الدَّهر؛ فهي دائرة مستقلة عن كلِّ سلطان غير سلطان الشَّريعة والحق، تكون مع السِّياسي إن أصاب وأحسن، وتصير ضدَّه إذا أساء أو أخطأ. ومَنْ في داخل هذه الدَّائرة يتحركون وَفْقَ مرجعية شرعية عليا يؤمنون بها، وحسب قيم شرعية وحضارية تحقِّق العدل والأمن والحرِّية تحت سقف الشَّريعة وسلطانها الربَّاني، وهذه الفئة هي التي نرجو الخير من صرير أقلامها، وهدير خطابها، وعميق تفكيرها، وبركة مبادراتها.

وللسَّائرين وَفْق هذا التَّصور المنصف الرَّشيد أدوات شرعية معتبَرة، ولهذه الأدوات ما يعضِدها في ميراث المسلمين التَّشريعي، وفي تراثهم التَّطبيقي على مرِّ العصور. فواجب المثقف البيان الواضح في التَّوقيت المناسب: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وحين يهمُّ السِّياسي بإصلاحات حقيقية فمن الواجب على المثقف التَّعاون معه على ما فيه تحقيق مصلحة شرعية أو دفع مفسدة محتملة طاعة لأمر الله - عزَّ وجل -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن

رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

وقد ينكر العامي أخطاء السِّياسي بقلبه خلافاً للمثقف الذي وهبه الله القدرة على التَّفكير والتَّحليل مع جمالٍ في البيان واللسان، إضافة إلى حضوره الثَّقافي وحَرَاكه الدَّائم مع هموم مجتمعه، فيكون الاحتساب الواجب عليه أكبر من غيره حين يزلُّ السِّياسي ولا يرعوي لصوت الحقِّ ونداء المصلحين: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقد وردت في القرآن الكريم قصَّة عظيمة لمؤمن مع سياسي ظالم متكبر، هي قصَّة مؤمن آل فرعون، الذي كان يكتم إيمانه عن فرعون وحاشيته، حتى إذا حانت ساعة المفاصلة التي لا مكان فيها لغير الجهر بالحق، وحين علم أنَّه يكاد أن يكون الوحيد القادر على إبداء رأيه أمام فرعون بجبروته وظلمه، وأنَّ واجبه الدِّفاع عن نبي الله ورسوله موسى - عليه السَّلام - وحمايتُه من بطش فرعون وجَورِه، قال كلمة الحق، وأعلن عن نفسه أمام الملأ، فللحقِّ واجب لا مناص من أدائه، وللمواقف الحاسمة ساعة لا محيد عن بلوغها لكلِّ مثقف شريف يعمل في أجواء الباطل، وقد ذكر القرآن الكريم القصَّة كاملة في سورة غافر التي باتت تُعرَف باسم مؤمن آل فرعون، وقال الله - سبحانه - في أولها: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

وفي التَّاريخ أمثلة كثيرة على علاقة المثقف بالسِّياسي، فالإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - الذي كان يتربَّع على عرش العلم والذَّب عن السنَّة في عصره، كانت له مواقف حاسمة مع الخليفة العبَّاسي المأمون، الذي أراد قصر الأمَّة على القول بخلق القرآن استجابة لآراء العالم المعتزلي أحمد ابن أبي دؤاد، وقد ظهرت ثقافة المعتزلة وتمكَّنت لما توطدت العلاقة بينهم وبين السَّاسة، ثم كبتها الله بالحقِّ والسنَّة، وهذا مصير أيِّ ثقافة تنتصر بضلالة السِّياسي أو هواه، وتستقوي به لترويج المنكر وما لا يتوافق مع شرع الله. وتُعدُّ الدَّعوة الإصلاحية في الجزيرة العربية من الأمثلة القريبة الحاضرة على التَّعاون بين السَّيف والقلم؛ حين تعاهد الإمام المجدِّد محمَّد بن عبد الوهاب مع الأمير المجاهد محمَّد بن سعود، رحمهما الله. ومن عجيب ما يذكره المؤرخون أنَّ خلافة عمر ابن عبد العزيز - رضي الله عنه - لم تشهد اعتراضات من العلماء وغيرهم، لأنَّه سار على نهج الشَّريعة، وجدَّد دين الأمَّة بإقامة العدل بين النَّاس في الأحكام والأموال وغيرها، وكان يصغي للنَّاصحين من الأئمَّة في عصره الزَّاهر القصير، ومع هذه الصِّفات الكريمة يخفت صوت المعارضة.

إنَّ للمثقف سلطةً معرفيةً ذات أثر سلوكي في مجتمعه، والواجب المحتوم عليه أن تكون أهدافه سامية، ومصالحه عامة، وأن يجيد النِّيابة عن ثقافة الأمة التي ينتسب إليها ويتحدَّث باسمها، وأن يتحلى بالشَّجاعة والصِّدق في حمل هذه المسؤولية الجسيمة، وأن يستمر في تقديم المبادرات والرؤى حتى لو لم يشارك السِّياسي في التَّنفيذ، وبذلك يحوز المثقف الخيرية، لاتصاله بثقافة مجتمعه، موقِّراً دينه، ومعتزاً بلغته، ومدركاً تاريخه، ومشاركاً في صنع حاضره ومستقبله، لا يحرِّكه الطَّمع في السِّياسي، ولا يزجره الخوف عن دخول معترك السِّياسة بالرَّأي الصَّريح والعمل الرَّشيد.

مكتبة الرشد ناشرون

أحدث الإصدارات

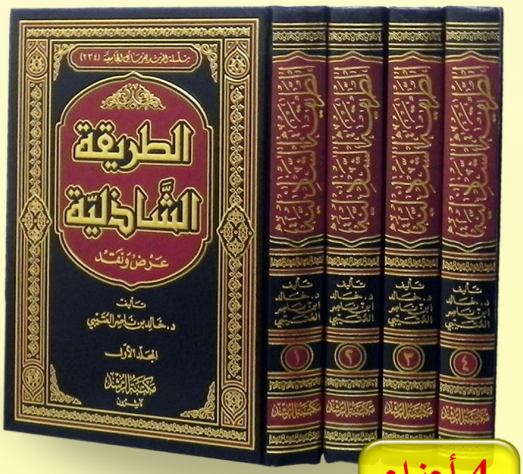

4 أجزاء

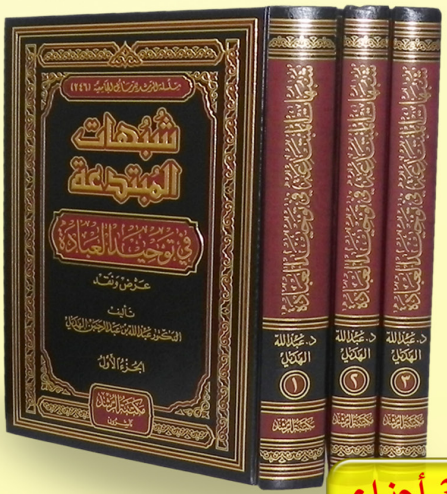

3 أجزاء

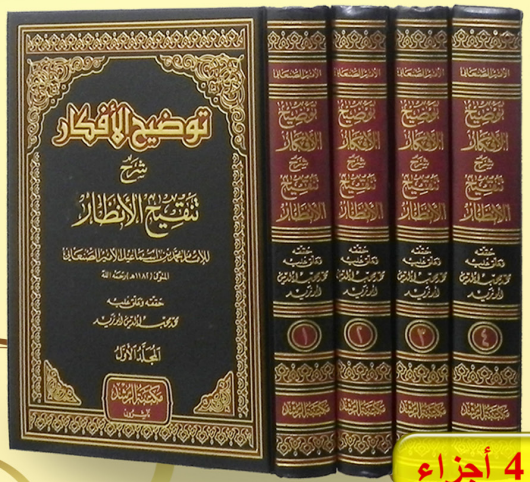

4 أجزاء

المركز الرئيسي - الرياض طريق الدائري الغربي (٤٣٢٩٩٣٣) فرع طريق عثمان بن عفان (٢٠٥١٥٠٠)

مكة المكرمة (٥٥٨٥٤٠١) جدة (٦٧٧٦٣٣١) المدينة المنورة (٨٣٤٠٦٠٠) القصيم (٣٢٤٢٢١٤)

أبها (٢٣١٧٣٠٧) الدمام (٨١٥٠٥٦٦) حائل (٥٦٦٢٢٤٦- ٥٣٢٢٢٤٦) الاحساء (٥٨١٣٠٢٨) فاكس (٥٨١٣٠١٥) تبوك (٤٢٣٨٩٢٧)

e-mail : info@ rushd.com.sa - www.rushd.com.sa

هدايات سورة الإسراء

أحمد ذو النورين(*)

سورة الإسراء:
بطاقة التعريف المختصرة:

اسمها: (الإسراء، بني إسرائيل، سبحان)، وهي من العتاق الأُوَل كما قال ابن مسعود، رضي الله عنه[1]، وذلك ما يبين أنها سورة مكية. عدد آياتها: ١١١ آية.

ما اختلف من الآيات عن السورة في نزولها:

قال الإمام السيوطي: «استثني منها: ﴿وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية لِمَا جاء في قول ابن مسعود - رضي الله عنه - أنها نزلت بالمدينة في جواب سؤال اليهود عن الروح. واستثني منها أيضاً: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾، وقوله: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا﴾ الآية، و ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾»[2].

ترتيبها نزولاً: نزلت بعد القصص وقبل يونس.

فضلها: قالت عائشة - رضي الله عنها -: «كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل»[3]؛ (أي سورة الإسراء)، وهي من المئين التي ورد في فضلها حديث واثلة بن الأسقع - رضي الله عنه - الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «وأُعطِيت مكان الزبور المئين»[4].

ظروف نزولها: نزلت هذه السورة في العهد المكي، حين بلغ عناد وجدال المشركين أَوْجَه لمواجهة حامل الرسالة ﷺ، ووصلت معارضة الرسالة نفسِها حدَّ المصادمة والاقتتال. ذلك أن هذه السورة نزلت بعد سورة القصص التي جاءت فيها أخبار موسى وفرعون؛ وكيف كانت نهاية الأخير نذير شؤم لكل طاغية أثيم. فحمي فيها الجدل مع المشركين حول هذا القرآن، وصدق الوحي الذي واجههم بتسفيه عقائدهم، والتنديد بجاهليتهم، فسارعوا إلى تكذيب الرسول ﷺ والتشكيك في أصل مصداقية النبوة وصحة الرسالة، وحاولوا النيل من جنابه والتنقيص من شأنه؛ فرموه بالسحر والكهانة والجنون، وطفقوا يطلبون منه الآيات والخوارق، زاعمين أن الهدف إنما هو التثبُّت من الدعوى.

(*) باحث من موريتانيا.

(١) جاء في صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة بني إسرائيل (الإسراء)، باب: عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأُوَل.

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٦٠)، غير أنه باستثناء الآية الأولى ذكرها تقع بقية الآيات موقع اختلاف كبير من حيث مكيَّتها ومدنيَّتها؛ بل منها ما تترجح مكيَّته؛ كما هو الشأن بالنسبة لقوله - تعالى -: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

(٣) أخرجه الإمام الترمذي (٣٤٠٥)، وصححه الألباني في تعليقه عليه، وفي سلسلته الصحيحة (٦٤١).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٠٢٣) وعلَّق عليه شعيب الأرنؤوط بقوله: «إسناده حسن».

المقدمة:

بدأت سورة الإسراء بتنزيه الله – تعالى – واختُتمَت بحمده وتعظيمه، وتضمنت الحديث عن حادثتي الإسراء والمعراج، وتناولت معجزة القرآن الخالدة بشكل مركَّز؛ حيث ورد ذكر كلمة القرآن في طيَّاتها (١١) مرة، كما عرضت موقف المشركين ومؤمني أهل الكتاب من هذا القرآن، وأصَّلت كونه مصدراً للخيرية بشتى أصنافها، وكغيرها من السور المكية كان التركيز فيها كبيراً على شؤون العقيدة؛ فتكلمت عن التوحيد ومخاطر الشرك ومآل المشركين، وأدرجت جانباً من ذلك في تفصيلها للوصايا العشر الكبرى التي ورد ذكرها بنوع من الإجمال في سورة الأنعام؛ بدءاً من الآية (١٥١) إلى الآية (١٥٣)؛ حيث وردت تلك الوصايا هنا بنوع من التفصيل؛ وقد بدأ ذلك من الآية (٢٢) إلى الآية (٣٩)، وأردفته بطَرَف من قصة آدم – عليه السلام – وإبليس، مشيرة إلى جانب من التكريم الإلهي للبشر، وأَتْبَعَته بأمثلة من صنوف الخروج عن ذلك التكريم، جلَّتها في المحاولات اليائسة والعروض الرخيصة التي سلكها الكفار طمعاً في إغراء محمد ﷺ لثنيه عن تبليغ رسالة ربه والحيلولة دون صدعه بالحق، وكذلك لجوؤهم بعد القنوط من تغيير مسار الدعوة إلى ضروب التعجيز المادي السافل، وقد بينت السورة ما مُنُوا به إثر ذلك من الفشل والتخبط، كما ذكرت طرفاً من تاريخ إفساد بني صهيون وجِبِلَّتهم العنادية الماكرة كما وردت في مقدمة السورة، لتعود قبل خاتمتها بآيات إلى سرد جانب من تاريخهم، معطية خلاصة قصة موسى وفرعون، ثم ختمت بتعظيم الله – تعالى – وتنزيهه عن الشريك والولد وسائر صفات النقص ومشابهة الخلق.

أهم محاور السورة:

• بعد الاستهزاء بشخص النبي ﷺ والمعارضة الواسعة لرسالته، وتعريضه لحملات مغرضة، وبعد ما لاقاه من الأذية المفرطة من قِبَل المشركين جاء الأمر الرباني بتكريمه، والقضاءُ الإلهي بتوشيحه؛ فكانت معجزتا الإسراء والمعراج في رحلة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، كان منطلقهما بيت الله الحرام في اتجاه المسجد الأقصى لتحيي الوشائج العميقة بين المسجدين المباركين. يقول ابن عاشور: «والمسجد الأقصى هو ثاني مسجد بناه إبراهيم – عليه السلام – كما ورد ذلك في حديث أبي ذر – رضي الله عنه – قال: (قلت: يا رسول الله! أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»)[1]، فهذا الخبر قد بيَّن أن المسجد الأقصى مَنْ بِنَاء إبراهيم؛ لأنه حدد بمدة هي من مدة حياة – إبراهيم عليه السلام – وقد قرن ذكره بذكر المسجد الحرام)[2].

• في رحاب المسجد الأقصى يؤم النبي ﷺ جموع أنبياء الله من آدم إلى عيسى – عليهم الصلاة والسلام جميعاً – إيذاناً بانتقال الرسالة الخاتمة إلى هذه الأمة الخاتمة على يد رسولها الخاتم ﷺ: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١]، ليتوج تكريمه ﷺ فيعرَج به بعد ذلك إلى سدرة المنتهى.

• في هذا الدين الجديد يكون التوحيد هو الأساس الذي تتبنى عليه الحياة وتقوم عليه أسس التشريع وقيم الأخلاق ومبادئ التعامل: ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ [الإسراء: ٢٢]، وفي هذه السورة يستبين هدي القرآن العقدي في أقوم الطرق وأعدلها؛ إذ هدى إلى توحيد الله – تعالى – في ربوبيته، وهدى إلى توحيده – تعالى – في عبادته وألوهيته، وهدى إلى توحيده – تعالى – في أسمائه وصفاته، حماية لهذا الإنسان المسكين الذي كثيراً ما اجتاله الشياطين وأغوته نفسه الأمارة بالسوء وأحاطت به غفلته؛ فأعرض عن ربه وكفر به وأَمِن أخذه وعقوبته، فلا يذكره إلا ساعة الشدة، فإذا خرج من الكرب عاد إلى غفلته وطغيانه[3]، ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء: ٦٧]؛ أَوَلا يذكر المسكين أن الذي أدخله الكرب وفرَّجه عنه حاضر لا يغيب؟

• تتهاوى ضلالات الجاهلية أمام سلطان الحق، وتسقط العقائد الفاسدة التي اعتنقها أهل الشرك أمام نور الهدى، وتختفي أوهام الوثنية أمام سطوع الحقيقة، وتُفتضَح أقوالٌ: مثل نسبة البنات إلى قيوم السماوات والأرض: ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: ٤٠]، وكالإعراض عن القرآن ومعارضته بالأكاذيب والأضاليل كذلك، وقد أقامت السورة الأدلة على تهافت تلك الدعاوى كلها، ونصبت البراهين على عقيدة التوحيد؛ بما

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب، ح (٣٣٦٦). ورواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ابتناء مسجد النبي ﷺ، ح (٥٢٠).

(٢) التحرير والتنوير: (١٤، ١٤).

(٣) انظر: المصباح المنير لصفي الرحمن، ص: ٦١٨.

تحويه من يقينية البعث والنشـــور والمعـــاد والجزاء، وذكرت ســـجود الملائكة لآدم وتعنُّت إبليس وعداوته لآدم ولذريته، ثم أعلنـــت دعوة الله – تعالى – للمؤمنـــين بالترفُّع عن غوغائية الدهماء وســـفه الجاهلية، وأن يُمَرِّنوا أنفسهم على الاعتصام بالقول بالتي هي أحسن تحصناً من الوقيعة وغوائل الشيطان: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

• مـــن لطف الله – تعالـــى – بهذه الأمة المباركـــة أن نبيها ﷺ: وإن أيدت رســـالته ببعض الخوارق إلا أن إعجازها لم يكن معتمداً على تلك الخـــوارق حتى لا تكذِّب بها أمته فتهلك، كما هلـــك الأولون حين اعترضـــوا على الآيـــات وواجهوها بالعتو والاستكبار والتكذيب، بل جاءت هذه الرسالة المباركة بالعواصم التي يحفظ الله – تعالى – بهـــا معتنقيها من عواقب التكذيب ومآلات الطغيان، فكان استحضار أنباء منازل الآخرة على نتائج امتحان الدنيا: ﴿يَـوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِـيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٧١ – ٧٢].

• لم يترك المشركون وسيلة إلا استخدموها لصرف رسول الله ﷺ عن مواصلة دعوته وصده عن سبيل الله تعالى، وفي إطار ذلك عملـــوا على إخراجه من مكة المكرمة من خلال ما عاملوه به من صنوف المضايقة بعد ما يئســـوا من رجوعه عن دينه، وقنطوا مـــن تخليه عن دعوته، وقد صرَّح القرآن بأنهم لو أخرجوه قســـراً لحاق بهم غضب الله – تعالى – ولعاجلتهم نقمته؛ كما هي ســـنة الله في ســـلفهم من الطغاة والمعاندين، وفي غمرة ذلك يضرب المصطفى ﷺ أروع الأمثلة في الثبات على المحجة وإقامة الحجة تالياً كتاب ربه، داعياً إلى ســـبيله، مقيماً لعبادته، متوكلاً عليه لاهجاً بذكره لاظاً بدعائه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِـــي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِـــي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإســـراء: ٨٠ – ٨١]، هكذا تكلؤه حمايـــة الله – تعالى – بهذا القرآن من أذاهم، وتحفظه به من طيشهم؛ فلا يقرؤه إلا ولَّوا عنه هاربين مدبرين: ﴿وَإِذَا قَـرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِـــمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْـــدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥ – ٤٦].

• في إطار تفنن المشـــركين في محاولاتهـــم تعجيزَ النبي ﷺ يستمر إصرارهم على مطالبته بالخوارق المادية؛ كتفجير الأنهار في أزقة مكة وتحويل جبالها إلى جنات وارفة الظلال ورمضائها إلى بســـاتين دانية القطـــوف... إلخ، تلك المطالب التي ظلوا يراوحون بينها عتواً منهم واســـتكباراً وإعراضاً عن الإعجاز القائم بهذا القرآن عقيدة ومنهجاً وأسلوباً ومحتوى؛ ذلـــك أنه لو كان طلـــب الحق حاديَهم، واســـتظهار الصحيح محركَهـــم لاكتفوا بمعجزة القرآن الـــذي تضمن كافة أنماط الإعجاز ووسائله[1]، ولاهتدوا بما علموه وعايشوه وعرفوه عن شـــخصه ﷺ؛ لكنهم ظلوا يصدفون عن الحقيقة: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِـــنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًـــا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْـــقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّـــمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّـــى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُـــبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٠ – ٩٣]، ومن المعلوم أن كثرة الخوارق لم تكن لتوَلِّد الهداية في النفوس المتمردة على ســـلطان الوحي، ولم تكن لتنشـــئ الإيمان في القلوب المنكرة، ولم تكن لتزرع التقوى في النواصي الجاحدة؛ إذ لو كانت تثمر شيئاً من ذلك في نفوس مريضة بالاستكبار، مائرة بالشـــهوات والشـــبهات كتلك، لكان بنو إسرائيل أهدى الخلق على الإطلاق؛ فقد ابتلاهم موســـى – عليه السلام – وحدَه بما لا مزيد عليه من الخوارق والآيات والنُّذُر؛ فهل آمنوا أو استجابوا أو صدقوا؟

وبالجملـــة فإن الســـورة قد تمحورت بشـــكل عام حول شـــخص الرسول ﷺ و ما حباه الله – تعالى – به من التكريم والتثبيت والعصمة، وما أيده بـــه من المعجزات، كما أفاضت في تعظيم شـــأن القرآن بوصفه مصدر الهداية والنجاة، وقد نوَّهت بقضايا العقيدة وبيَّنت أســـس التوحيد، وأعلت شـــأن فضل حُسْن التعامل وقيمة مكارم الأخلاق.

هدايات السورة:

تحدثت الآية الأولى من هذه السورة – بعد تنزيه الله تعالى – عن حادثة الإسراء بالمصطفى ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى؛ حيث كان الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل إلى عيســـى – عليهم الســـلام – مجتمعين في موكب ابتهاجي مَهيب في تلك البقعة المباركة لاستقبال المكرَّم الخاتم صاحب الرسالة الناسخة المهيمنـــة؛ محمد ﷺ، وقد أمَّهـــم ﷺ ليلتهم تلك إعلاناً من قيوم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص: ٤٦٦ – ٤٦٧.

السماوات والأرض عن توليته الإمامة المطلَقة لأهل الأرض.

في مستهل السورة كان التعريج على بني إسرائيل وما نشروه عبر تاريخهم من الفساد والظلم والطغيان، وهو ما أدَّى إلى زوال سلطانهم وإنزال العقوبة بهم، كما هي سُنة الله في كل طاغية ظالم، وعلى الرغم من أنهم كلما استعلَوا واستكبروا وتجبروا سلط الله عليهم من عباده من يقهرُهم ويذلُّهم ويدمرهم ويستبيح حرماتهم؛ فإن ذلك لم يثنهم عن جبلَّتهم العنجهية؛ ولهذا توعدهم بالعقوبة الدائمة. قال – تعالى –: ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ** ﴾ [**الأعراف**: ١٦٧].

لقد تكررت كلمة القرآن إحدى عشرة (١١) مرة في هذه السورة دون غيرها من سور القرآن الكريم؛ فجاء أول ذكر للقرآن في قوله – تعالى –: ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾ [**الإسراء**: ٩] تأكيداً على أنه يحمل مطلق الهداية لمطلق الخلق في مطلق الظروف الزمانية والمكانية؛ فهو يهدي إلى عقيدة لا لَبْس فيها ولا غموض، عقيدةٍ تخلِّص معتنقَها من كل أدران الشرك وأوهام الخرافة وأثقال الهوى والشعوذة؛ فهدايته تعني التطابق المطلق بين المظهر والمخبر، والاتساق الكامل بين الشعور والسلوك، والالتحام الكلي بين الاعتقاد والعمل، والتواؤم التامَّ بين الفطرة والنواميس الكونية، والتوازن البصير بين العبادة والاستطاعة؛ بل تعني الاستسلام في عبودية والتناسق في حياة واطمئنان في علاقة العبد بخالقه، وترابطاً رصيناً وانسجاماً واثقاً في علاقته بالمخلوقين، في إطار من الانقياد والثبات والسكينة تعظيماً للخالق جلَّ شأنه، والعدل والاستقامة والإنصاف للمخلوقين.

في هذه السورة جاء النكير صارخاً على المشركين، وقدَّم البيان جلياً عن سوء عاقبتهم، وكان الحض شديداً على بر الوالدين ولزوم أداء حقوق ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل، وجاء التنفير صريحاً من الشح والتبذير ومهاوي الرذيلة والعدوان والدنس الخُلُقي؛ ليتم قطع الطريق على عادات الجاهلية: كالوأد والزنا والثارات والقتل، وكان الإعلان عالياً بوجوب رعاية أموال اليتامى والوفاء بالعهود والعناية بالمواثيق والتزام توفية المكاييل والموازين، كما تم التأكيد على ضرورة التبيُّن والثبت، ووجوب مجافاة الخيلاء والكِبْر[1]: ﴿ **لا تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً** ﴾ [**الإسراء**: ٢٢]

إلى قوله – تعالى –: ﴿ **ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا** ﴾ [**الإسراء**: ٣٩]. وبذلك جمعت السورة باقة من معالم التوحيد وأسس التعامل ومحاسن الأخلاق، تجسيداً لتكريم الله – تعالى – لبني آدم وتطهيراً له من أدران البهيمية وتحريره من أغلال الحيوانية.

لقد جاءت السورة بكل المواعظ والحجج للزجر عن الشرك، وأسدت البراهين والبينات الكافية لسد طرائق الظلم ومنع الإفك، وقررت التوحيد بكافة السبل، ونصبت الأدلة على انسجامه مع منطق الفطرة، بل أكدت أنه هو الفطرة نفسُها، وبيَّنت أن المشركين لم يوفَّقوا للاهتداء إلى نور هذا التوحيد لتخفِّيهم وراء الإعراض عن الحق، وتشبُّثهم بباطل عقائدهم الشركية وترَّهاتهم الوهمية: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا** ﴾ [**الإسراء**: ٤١]، فكانوا يجاهدون فِطَرَهم حتى لا تركن إلى الانتفاع بالقرآن حين يلامسها، ويصرفون عنه قلوبَهم حتى لا يمازج بشاشتها، فتحولوا أكوازاً مجخية يعلوها الرين ويغشاها ظلام الشرك وترفض الانقياد للحق: ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا** ﴾ [**الإسراء**: ٤٥ – ٤٦].

لم تكن معجزة هذه الأمة إلا القرآن من غير اتكاء على الخوارق التي صاحبت الرسالات ذات التوجيه المحدود زماناً ومكاناً، في حين اتسمت هذه الرسالة بالخلود والأبدية لكمالها وشموليتها وتمامها؛ ذلك أنها موجَّهة إلى كل الأعراق والأجناس في كافة الأعصر والبيئات؛ وعليه فإن حادثتي الإسراء والمعراج وما تضمنتاه من خوارق لم تكونا إلا امتحاناً وابتلاءً ليزداد الذين آمنوا ثباتاً وإيماناً ويرتاب المهزوزون والمنافقون: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا** ﴾ [**الإسراء**: ٦٠].

إن استمداد العون من الله – تعالى – والتوكُّل عليه واللَّجأ إليه والمحافظةَ على عبادته وإقامة شعائر دينه في أوقاتها المحددة، كلها وسائل لاستحقاق نصر الله – تعالى – وإعلاء الحق وزهوق الباطل، فالمستعين بالله – تعالى – لا يخيب أَمَلُه، واللاجئ إليه لا تُرَد دعوته، والمتوكل عليه لا يخاف هواناً، والمحافظ على طاعته لا يناله خسران، والتالي لكتابه يتفيأ ظلال الرحمة: ﴿ **أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ**

(١) انظر: في ظلال القرآن: (٤/ ٢٢٢٢ – ٢٢٢٦).

الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٧٨ – ٨٢]؛ إنها الربانية في التوجيه والسداد في الأوامر والاتساق في التشريع.

إن هذا القرآن من الله – تعالى – فلا يملك الخلق أن يضاهوه، ولو تظاهر إنسهم وجنهم ما استطاعوا محاكاته؛ فالتحدي به قائم إلى قيام الساعة؛ فهو المنهج الحيوي الذي تتكامل فيه قوانين الفطرة لتتناغم معها نواميس الكون، فتقف البشرية مشدوهة أمام آفاق إعجازه، فتسد الطريق على المتعنتين فلا يجدون سوى الجنوح إلى طلب الخوارق المادية سبيلاً، ضاربين بأمثاله الرائعة وحقائقه القائمة وأساليبه المعجزة عرض الحائط في تبجح وغطرسة واستكبار[1]: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء: ٨٨ – ٩٣].

إن سُنة الله – تعالى – في المكذبين للرسل – عليهم الصلاة والسلام – أن تحل بهم نقمته، ويحيق بهم إهلاكه؛ حين يُعرِضون عن آيات الله – جل شأنه – ويستهزئون برسله، ويستهينون بنُذُره، ولقد كان من رحمة الله – تعالى – ولطفه بهذه الأمة أنه في الوقت الذي جعل فيه معجزات الرسل المستقدمين خوارق آنية جعلها مع النبي محمد ﷺ آية القرآن الدائمة، التي نزلت بالحق لتربية أمم وصناعة أجيال تعيش بها ضمائرهم، وتحيا بها مشاعرهم، ويستقيم بها سلوكهم، وتتزكى بها نفوسهم، وتُساس بها أنشطتهم؛ ذلك هو القرآن منهج حياة لا يعتوره نقص ولا تنتابه زلة ولا يتقادم بطول الزمن[2]: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾. [الإسراء: ١٠٥ – ١٠٦]

أبرز القواعد المستخلصة من السورة:

• ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء: ٧]: إنها قاعدة العمل والجزاء التي لا تتغير ولا تتبدل، وقد جاءت بصيغ أخرى؛ منها ما ورد في سورة فصلت: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت: ٤٦]، وما جاء في سورة الزلزلة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨]؛ فمن أحسن بالإيمان والطاعة فقد أحسن إلى نفسه ونفعها، ومن أساء إليها بالكفر والمعاصي فإنما أضر بها وأساء عليها؛ فالله وحدَه الغني – جل شأنه – لا ينفعه إيمان مؤمن ولا يضره كفر كافر.

• ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]: يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: (ذكر – جل وعلا – في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعُها لجميع العلوم، وآخرُها عهداً برب العالمين – جل وعلا –: ﴿ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾؛ أي الطريقة التي هي أسدُّ وأعدل وأصوب)[3]، وقد وردت هذه القاعدة بصيغ متعددة، من ذلك ما جاء في سورة الأعراف ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٢] وهي قاعدة مطلقة؛ إذ إن هداية القرآن شاملة لأقوَم الطرق، وأوضح السبل، وأعدل الأحكام، وأنصع العقائد، وأحسن التعامل، وأجلِّ الأخلاق؛ فمن اعتصم به كان أكمل الناس شأناً وأهداهم سبيلاً وأقومهم طريقة .

• ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ [الإسراء: ١١]: وهي قاعدة عامة تبيِّن استعجال الإنسان وعدم توخيه لعواقب الأمور وتجاوزه للنظر في مصائرها، وقد وردت في سورة الأنبياء بصيغة أخرى: ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء: ٣٧]؛ ذلك أن المؤمن يستعجل النصر والكافر يستبطئ العذاب ويستهزئ بالوعيد. ومن رحمة الله – تعالى – بالبشر أنه – جل شأنه – لم يعجِّل لهم كثيراً مما يطلبون؛ إذ يستعجلون الشر استعجالهم للخير: ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ [الإسراء: ١١].

• ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠]: وهي قاعدة جليلة؛ فلا رادَّ لحكم الله – تعالى – ولا مانع لما أعطى ولا مبدِّل لما أراد؛ فهو – سبحانه – الفعَّال لما يريد العدل الحكيم الخبير

(١) انظر: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ص: (٢٢٠ – ٢٢٢).
(٢) انظر: في ظلال القرآن: (٤/ ٢٢٥١ – ٢٢٥٣).
(٣) أضواء البيان: (٣/ ٢٧٢).

يعطـــي ويمنع لا معقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه، وقد وردت هذه القاعدة بصيغ كثيرة؛ منها ما جاء في سورة البقرة: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَـاءُ بِغَيْرِ حِسَـابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]، ومنها ما جاء في سورة آل عمران: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٧٤].

• ﴿وَمَـا أُوتِيتُم مِّـنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسـراء: ٨٥]: وهي قاعدة يثبتها الواقع؛ فَعِلم الإنســان محــدود وعقله قاصر عن الإحاطة بالأشياء، لا سلطان له على الغيب؛ بل عاجز عن إدراك ما يحتاجه مما ليس غيبـاً؛ فكيف يدرك ما لا يحتاجــه مما هو ممنوع من الاطلاع عليه، وعجزه هذا أبدي لا تعلُّق له بزمن، وقد وردت هذه القاعدة بصيغ متعددة؛ منها ما جاء في سورة البقرة: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَـيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَـاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقد ورد قوله - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ في ثنايا عدد من ســور القرآن الكريم؛ وهو ما يدل على جهل البشرية الخلقي.

• ﴿وَكَانَ الإِنسَـانُ قَتُورًا﴾ [الإسـراء: ١٠٠]: فالبشر مطبوعون بجبلَّتهم على شدة البخل والجشع والأنانية، فلو أنهم كانوا خَزَنة رحمــة الله - تعالــى - لمنعوها وبخلوا بها؛ خوفــاً من نفادها ونقصانها وحرصاً على الاختصاص؛ رغم أنه لا يعتورها نقص ولا ينالها نفاد؛ لكن الجبلَّة البشــرية كذلــك، وقد وردت هذه القاعدة في ثنايا القرآن بصيَغ وافرة؛ من ذلك ما ورد في سورة النساء: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]، وما ورد في سورة المعارج: ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾ إِنَّ الإِنسَـانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّـهُ الْخَيْـرُ مَنُوعًـا﴾ [المعارج: ١٧ - ٢١]، وما ورد في ســورة القتال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْـأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦ - ٣٧][1].

قصة وهدف:

من قوله - تعالى -: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسـراء: ٤] إلى قوله - تعالى -: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسـراء: ٨] يخبر - سـبحانه - أنه أعلمَ بني إســرائيل في الكتاب الذي أُنزل عليهم أنهم سيفسدون في الأرض ويفجرون فيها ويطغــون ويتجبرون، وأنهم كلما صدر منهم ذلك ســلط عليهم جنداً من عنده أُولِي بطش وبأس ينكِّلون بهم ويذيقونهم أصناف الإهانة والعذاب. وقد اختلف المفسرون (سلفاً وخلفاً) في تاريخ التسليط وهوية المسلَّطين؛ غير أن الذي لا يماري فيه أحــد أن بني صهيون قد بلغوا فــي عصرنا الحاضر من العتو والاستكبار والغطرسة والظلم والتجبر ما لم تكد تبلغه أمة في التاريخ البشري.

وقد جاءت قصة بني إسرائيل هذه لتكشف عن جانب من جبلَّتهم الخسيسة، وتوضح طرفاً من حياتهم الجاحدة، وتميط اللثام عن صنفهم المتغطرس.

لقد كان بنو إســرائيل أكثر الناس ذكراً في القرآن؛ لأنهم أكثر الخلائق مكراً بحَمَلَة الحق، وأشدهم إعراضاً عن الوحي: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُـهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠]، وهم أســوَد الأمم تاريخاً في سفك دماء الأنبياء: ﴿وَقَتْلَهُـمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمـران: ١٨١]، وهم أكثر الأقوام خيانة للعهود: ﴿أَوَ كُلَّمَـا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيـقٌ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٠]، وهم أشــد الشعوب جراءة على الله - تعالى -: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وهــم أكثر أهل كتاب تعرضوا للعن أنبيائهم: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْـرَائِيلَ عَلَى لِسَـانِ دَاوُودَ وَعِيسَـى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨]، وهم أرغب بني الإنسان في إشعال الفتن والحروب ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْـعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَـادًا﴾ [المائدة: ٦٤]؛ لقد مارســوا ذلك رغم المذلة التي ضرب الله - تعالى - عليهم ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ [آل عمران: ١١٢]، وحاكوه رغم أنهم أجبن الناس وأحرصهم على الحياة وأكثرهم إخلاداً إلــى الأرض ﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًـا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَـةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ [الحشـر: ١٤]، ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]. تلك ملتهم وذلك ديدنهم لا يحيدون عنه؛ بل يتوارثون عبر أجيالهم هذه الأحقاد الغائرة والعداوات الراســخة: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢].

وتحقيقاً من الله - تعالى - لوعده لبني صهيون بالتمكين من الإفساد في الأرض والتمكين من الاستعلاء والاستكبار سخَّر لهم عوناً ومدداً من الناس فاقتادوا العالم ومســكوا قوَّته بأيديهم[2]، وســخَّروا إمكاناته لمآربهم: ﴿لَتُفْسِـدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيـرًا﴾ [الإسـراء: ٤]، لكن وعيد الله - تعالى - لهم لا يتخلف: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُـومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]؛ فكلما صدر منهم إفســاد جسَّــدوا به جبلَّتهم الفاســدة جاءت العقوبة من الله جزاءً وفاقاً: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]. إن غطرسة اليهود وعيثهم في الأرض قدر مقدور؛

(١) انظر: أضواء البيان: (٣/ ٥٧٤).

(٢) انظر: مجلة البيان، العدد ١٨٠، ص ٦٨.

سواء كانت مرَّتا الإفساد المذكورتان في هذه الآية قد تحققتا، أو تحققت إحداهما والثانية هي المعيشة اليوم أو لا تزال في رحم الغيب، فإن هذه الآية قد تضمنت إشارة واضحة لقابلية اليهود لمعاودة الإفساد مرة بعد مرة كلما وجدوا فرصة سانحة لذلك؛ لِمَا اتصفوا به من سجايا الإفساد الجبلية؛ ذلك أنهم جمعوا من ذميم الصفات وقبيح الأفعال ورذيل الخلال ما لم يضاهِهم فيه أحد، فضربوا أبشع الأمثلة في اعوجاج الطبائع وخبث الطوايا، ورغم بشاعة وشناعة ما نُعتُوا به فإنهم لن يأتوا بأفظع من إيذائهم لله – تعالى – وكفرهم به، وقتلهم لأنبيائه، وتحريفهم لكتبه، ونقضهم لعهوده.

ولقد كان من أهداف إيراد قصصهم وأخبارهم – في هذه السورة وغيرها من سور القرآن الكريم – بيان الفوارق بين عاقبة أهل الخير والصلاح وعاقبة أهل الإفساد والشر، وعلى ذلك تتدافع السنن الكونية لتكون العاقبة للمتقين؛ فحين كان الوحي قائد هذه الأمة وحياتها قائمة به ومنهجها مؤسساً عليه، تغلبت على جميع أعدائها بمن فيهم اليهود الذين أُجلُوا من الجزيرة وفُرِضَت عليهم الجزية، وحين قلَّد المسلمون اليهود والنصارى وأعرضوا عن الوحي واتبعوا أهواءهم وأخلدوا إلى شهواتهم عادت الكرة للكفار يقدمهم وِرْد اليهود فأساموا المسلمين سوء العذاب وأذاقوهم الويلات، وما أحداث غزة عنا ببعيد، ولا يشك مؤمن أن الله – تعالى – سيسلط على بني إسرائيل من ينكِّل بهم تصديقاً لوعيده لهم، طبقاً لسنَّة لا تتخلف ولا تتبدل؛ ولكن هل سنعود إلى القرآن ومنهاج النبوة المحمدية اللذَين هما سبيل عزنا وعُدَّة نصرنا ووسيلة تمكيننا؟ متى سنرفع علم الجهاد ونظهر راية الإسلام لنتأهل ونحوز صفات العباد أُولِي البأس الشديد الذين توعد الله – تعالى – بهم اليهود؟ متى سننسلخ من عار غثائيتنا ونخرج من هاوية تولينا قَبْل أن يستبدلنا الله غيرنا عياذاً به – جل شأنه –: ﴿ إِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨].

من الآيات الكونية في السورة:

• يقول الله – تعالى –: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١]، من الأسرار التي تتراءى للمؤمن من خلال حادثتَي الإسراء والمعراج: الدفع إلى فتح القلوب المغلقَة والعقول المتحجرة لاستيعاب قدرة الله – تعالى – وخلقه للسموات والأرض وما فيهما من نُظُم ونواميس، فيستيقن قدرة الله – تعالى – ويعلم أنه هو الخالق لذلك كله المتصرف فيه بما شاء؛ فقد قدَّر حادثتي الإسراء والمعراج لتكونا بما تضمنتاه خرقاً لقانون الزمن ومألوف السرعة.

• يقول – جل عظمته –: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ [الإسراء: ١٢]، لقد أثبت العلم الحديث أن القمر الذي هو آية الليل كان كوكباً مشتعلاً؛ لكن الله – تعالى – أزال ضوءه إلا ما استمده من انعكاس أشعة الشمس التي تُعَدُّ مصدر الضوء والحرارة[1].

• يقول – جل وعلا –: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤]، تبيِّن هذه الآية أن لكل شيء حياةً خاصةً لا يعلمها إلا المبدع الخالق – سبحانه – فكل المخلوقات تسبِّح الله – تعالى – وتمجِّده وتؤلِّهه وتشهد له بالوحدانية ولو كانت مخلوقات جامدة.

الخاتمة:

لقد أكدت هذه السورة الكريمة أن في هذا القرآن كافة عوامل القيادة والسيادة، وأن المستمسكين به ينزع الله عن نفوسهم الوهن ويبدلهم به إيماناً راسخاً لا يعرف تلكؤاً ولا ينتابه تردُّد؛ بل يندفع صاحبه في سرعة ومبادرة مستجيباً لأمر الله – تعالى – ونهيه؛ إنه الإيمان الذي يقوم على العبودية لله وحدَه: توحيداً وإخلاصاً واحتساباً وتوكلاً، إيمان يستسلم صاحبه لشريعة الخالق خُلُقاً ومعاملة في ارتواء دائم من ينابيع القرآن، وزاخرِ بحور السُّنة المطهرة؛ بهذا المنهج تدب الحياة في هذه الأمة المباركة من جديد، فيقود الوحي زمامها من غير استعجال للنتائج أو تجاوز لسنن الله – تعالى – بإيمانها لتسير تحت رايته بخطى ثابتة تراعي الظروف وتأخذ بالأسباب: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ [الإسراء: ١٢]، يحدوها ذلك الإيمان الذي لا يتسلل إلى نفس صاحبه الانزلاق في أتون الترف والفسوق اللذين هما الخطوة الأولى في درك الفساد والتردي إلى الزوال والاندثار: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا

(١) انظر الموسوعة الكونية الكبرى، ص: ٤٩٠.

فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦][1].

لقد صاغت هذه السورة وصايا عظيمة جمعت كل وسائل العصمة من الزلل، وشملت كافة مقومات الاهتداء إلى الرشاد؛ استهلتها بالتوحيد الخالص وختمتها به، لارتباط كمال الاستقامة به، ونسج حزام النجاة من أهدابه. وصايا حازت أعدل الأحكام وأوضح الحِكَم؛ فالتوحيد هو الذي يجعل رابطة الناس بربهم شديدة، وصِلَتهم به وثيقة، وتعلُّقهم به كاملاً، فيعلمون أنه - تعالى - خلق الخلق وحدَه ليعبدوه ويألهوه بلا إشراك، ويوحدوه ويمتثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه، وهو وحده العالم بما يصلحهم، وهو وحده مسبغ النعم الظاهرة والباطنة، وهو وحده من يستمد منه سلطان الحق صدقاً وثباتاً، وهو وحده الذي يدحر الباطل ويزهقه، وهو وحده الموفِّق لعباده المؤمنين إلى الإحسان في المعاملة والتلطف في القول والسداد في الدعوة حتى تصير الكلمة الطيبة شعارهم: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣]. ويعتقدون أنه لا كاشف للضر إلا الله وحده ولا نافع سواه ولا راد لقضائه؛ فكل ما سواه مربوب مقهور خاضع لجبروته وسلطانه: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً ﴿٥٦﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٦ - ٥٧]، فيعبدونه وهم موقنون أنه وحده من حبا البشر بالتكريم وأفاض عليهم من سوابغ نعمه من بين سائر مخلوقاته؛ فكرَّمهم في هيئتهم ونطقهم، وكرَّمهم بفطرتهم، وكرَّمهم باستعداداتهم وميولهم، وكرَّمهم بمسؤوليتهم عن أنفسهم؛ فجعلهم مكرمين مشرَّفين إن أعزوا أنفسهم بالانقياد لأمره، مهانين حقيرين إن أذلوها بالإعراض عن الهدى وارتموا في أحضان بهيميتهم: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠ - ٧٢].

على الرغم من أن المشركين وقفوا مشدوهين أمام هذا القرآن عاجزين عن الإتيان بما يشبه الآية الواحدة منه فإنَّ تبلُّد الإحساس عندهم جعلهم يتجاوزون إعجازه المتجسد في شمولية منهجه وبلاغة نُظُمه وجمال أسلوبه - وهم أهل الفصاحة والبيان - إلى تلمُّس خوارق مادية تافهة، متشبثين بعقيدة فاسدة، وتصور منحرف بنوه على فكرة خاطئة مقتضاها أن الرسول لا ينبغي أن يكون من جنس البشر، متجاهلين أن الخيرة بيد من له الخلق والأمر وحده يسبغها على من يشاء من خلقه: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٨ - ٩٢]، ومتناسين أنه ما بعد الآيات المادية إلا الإيمان أو الهلاك: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩].

لقد نوهت هذه السورة في ختامها بذلك الجمهور العريض من أهل الكتاب الذين بادروا إلى الدخول في الإسلام فور سماعهم لهذا القرآن فاستقبلوه بقلوب مفتوحة لهدايته، ونفوس قد حازت من العلم ما عرفت به قيمته وطبيعته[2]، فأذعنت في خشوع وآمنت في استسلام: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

ومجمل القول في هذه السورة: إنها اشتملت على كثير من التوجيه والتسديد والأخبار المسلية للرسول ﷺ وأتباعه من بعده، وأنه لم يكن بدعاً من الرسل في تعرُّضه للإعراض والأذية كما لم تكن أمته في ذلك بدعاً من الأمم؛ فما أُرسل رسول ولا اهتدت أمة إلا وتعرضت للاستهزاء والابتلاء والتكذيب؛ لكن نصر الله - تعالى - ما يلبث أن يأتيهم فتكونَ لهم العاقبة، ولمخالفيهم الخسران والبوار، إن ثبتوا على الحق، ولم تُغوِهم عنه المغريات، ولم تُزحهُم عنه الزوابع؛ فَحَمَلة الحق عرضة لظلم الجبابرة واضطهاد الطغاة وهدفاً لأطماع المناوئين والمنافقين والمخلدين إلى الأرض، ولكن وعد الله لهم بالنصر والتمكين والاستخلاف قائم ما استمسكوا بالحق وثبتوا عليه وانتهجوه في نفوسهم وسَعَوا إلى إقامته في الخلق ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ص: (٢٢٣ - ٢٢٧).

(٢) انظر: في ظلال القرآن: (٤/ ٢٢٥٤).

هدم الأبنية على القبور سنةٌ مأثورة

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف(*)
www.alabdulltif.net

عن أبي الهيَّاج الأسدي - رحمه الله - قال: قال لي علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: ألاَّ تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سوَّيته»(١).

ولمَّا ذكر ابن القيم هدم مسجد الضرار وتحريقه قال: «ففي هذا دليل على هدم ما هو أعظم فساداً منه، كالمساجد المبنية على القبور، فإن حكم الإسلام فيها أن تُهدَّم كلَّها حتى تسوَّى بالأرض، وهي أَوْلى بالهدم من مسجد الضرار، وكذلك القباب التي على القبور، يجب أن تُهدَّم كلها؛ لأنها أسست على معصية الرسول؛ لأنه قد نهى عن البناء على القبور. فبناءٌ أُسِّس على معصيته ومخالفته بناءٌ غير محترم»(٢).

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

(١) أخرجه مسلم.

(٢) إغاثة اللهفان: ١/٣٢٧، وانظر: زاد المعاد: ٣/٥٠٦.

وإذا كان تعظيم الله – تعالى – وشعائره وحرماته آكد الواجبات والفرائض، فكذا إهانة مظاهر الشرك والوثنية. فهذه الأبنية على القبور يتعيَّن إهانتها كما حرره ابن تيمية بقوله: «كما ما عُظِّم بالباطل: من مكان، أو زمان، أو حجر، أو شجر، أو بِنيَّة، يجب قصد إهانته، كما تهان الأوثان المعبودة»[1].

وذكر – رحمه الله – طرفاً من مفاسد هذه المشاهد فقال: «وهذه المشاهد الباطلة، إنما وُضعَت مضاهاة لبيوت الله، وتعظيماً لما لم يعظمه الله، وعكوفاً على أشياء لا تنفع ولا تضر، وصدّاً للخلق عن سبيل الله، و هي عبادته وحدَه لا شريك له بما شرعه على لسان رسوله ﷺ»[2].

وتعظيم المشاهد سبيل النصارى الضالين: «والنصارى يفرحون بما يفعله أهل البدع والجهلة من المسلمين مما يوافق دينهم، ويشابهونهم فيه»[3].

«والذين يعظمون المشاهد لهم شَبَه شديد بالنصارى، ويفرحون بما يفعله أهل البدع مما يوافق دينهم»[4].

وظهور المشاهد متلازم مع ضعف الدول وانحطاطها، فالمشاهد ظهرت بعد القرون المفضلة.. لا سيما بعد ضعف الدولة العباسية وظهور دولة بني بويه الشيعية والقرامطة الباطنية[5].

والمقصود أن هدم المشاهد هو سبيل المؤمنين، وطريق الراسخين في العلم، وجادَّة سلكها ولاة الأمور من العلماء والحكام كما في الأمثلة التالية:

• فالحارث بن مسكين – رحمه الله – (ت ٢٥٠هـ) هدم مسجداً بُني بين القبور[6].

• وأمر الخليفةُ العباسي المتوكل سنة ٢٣٦هـ بهدم قبر الحسين بن علي، ونودي في الناس: من وُجِد هنا بعد ثلاثة أيام ذهبنا به إلى المطبق (السجن)[7].

• وقال أبو شامة (ت ٦٦٥هـ): «ولقد أعجبني ما صنعه الشيخ أبو إسحاق الجينأني أحد الصالحين ببلاد إفريقية في المائة الرابعة، حكى عنه صاحبه الصالح أبو عبد الله محمد ابن أبي العباس المؤدِّب أنه كان إلى جانبه عين العافية كانت العامة قد افتتنوا بها، يأتونها من الآفاق، من تعذَّر من نكاح أو ولد قالت: امضو بي إلى العافية، فتُعرف بها الفتنة. قال أبو عبد الله: فإنا في السحَر ذات ليلة إذ سمعت أذان أبي إسحاق نحوها، ثم قال: اللهم إني هدمتها لك فلا ترفع لها رأساً. قال: فما رُفِع لها رأس إلى الآن»[8].

• وأما ابن تيمية فله جهود مشهورة في إزالة هذه الأوثان، أوردها الغياني في رسالة مستقلة بعنوان: «فصل في ما قام به ابن تيمية وتفرَّد به؛ وذلك في تكسير الأحجار»[9] ومن ذلك أنه أزال العمود المخلَّق، وكسر بلاطةً سوداء زعموا أن عليها كفَّ النبي ﷺ، كما حطم صخرةً كبيرةً كان الناس ينذرون لها، ويتبركون بها.

• وهدم الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – قبة زيد بن الخطاب بيده[10].

• وقال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب لما دخلوا مكة – حرسها الله – سنة ١٢١٨هـ: «فبعد ذلك أزلنا جميع ما يُعبد بالتعظيم والاعتقاد فيه. حتى لم يبقَ في البقعة المطهرة طاغوت يُعبَد، فالحمد لله على ذلك»[11].

• وتوجَّه الأمير سعود بن عبد العزيز إلى كربلاء سنة ١٢١٦هـ

(١) الاقتضاء: ١/ ٤٧٧، وانظر: مجموع الفتاوى: ٢٥/ ٣٢١.
(٢) الاقتضاء: ٢/ ٦٥١.
(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٧/ ٤٦٢.
(٤) مجموع الفتاوى: ١٧/ ٤٦١.
(٥) انظر: قاعدة عظيمة لابن تيمية، ص١٥١، ومجموع الفتاوى: ٢٧/ ١٦٧.
(٦) ترتيب المدارك لعياض: ١/ ٣٣٢، والديباج المذهب لابن فرحون: ١/ ٣٣٩.
(٧) انظر: تاريخ ابن كثير: ١/ ٣١٥.
(٨) الباعث على إنكار البدع والحوادث، ص١٠٣، ١٠٤.
(٩) انظر: الجامع لسيرة ابن تيمية ص٧٨ – ٩٦، والبداية لابن كثير: ١٤/ ٣٤.
(١٠) انظر: تاريخ ابن غنام: ١/ ٧٨.
(١١) الهدية السنية، ص٣٧.

وهـدم القبة الموضوعة على قبر الحسين،[1] وكان - رحمه الله - يقول: «أرهوا بالعوامل الفواريع (الفؤوس) نهدم بها الأوثان»[2].

• وقام الشـــيخ حافظ الحكمي في جنـــوب جزيرة العرب بهدم قبة في الساحل بمشاركة بعض زملائه، وبقايا قبة على قبر حمود المكرمي في سامطة[3].

• وساق الشيخ أحمد المعلم في كتابه الماتع النافع «القبورية» نماذج كثيرة لجهود الأئمة والعلماء وغيرهم في إزالة المشاهد في اليمن وتســـوية القبور المعظَّمة عند العوام. ومن ذلك أن بعض القضاة والدعاة أزالوا مشهد «علوية» بمدينة المكلا، كما هدم بعضُ طلاب العلم مشهد «الصوفرة» سنة ١٣٩٤هـ، وقام نخبة من الشباب سنة ١٤١٥هـ بهدم كمٍّ هائل من القباب[4].

والمقصود أن هـــدم الأبنية على القبور من الأمور الدينية الظاهرة، وعلى هذا كان عمل السلف الصالح قديماً وحديثاً، فلا نزاع في مشـــروعية هذا الهدم والإزالة والتســـوية لهذه القبور والمشـــاهد، لكن يبقى إنفاذ هذا الحكم في الواقع وَفْقَ قواعد المصالح والمفاســـد، وحسب درجات تغيير المنكر، وإذا تعسَّـــر إزالتها في موطن مَّا لأجل ملابسات غالبة أو مفاسد راجحة، فإن ذلك لا يســـوِّغ السكوت عن تبليغ شرع الله وبيان حكم الله - تعالى - ورسوله في البناء على القبور. وأسوأ من ذلك أن يتفوَّه بعض المتســـننة بما يوهم تجويز أو تهوين اتخاذ القبور مساجد وبناء المشاهد!

ومثل هذه النوازل لا ينبغي أن يسارع لها الشباب، بل يجب الرجوع إلى أهل العلـــم الربانيين، فهم أقدر من غيرهم على تحديد المصالح والمفاسد.

ويبـــدو أن بعض إخواننا - عفـــا الله عنهم - تغيب عنهم هذه الحقائق الشرعية إثر تراكم الحوادث، ويعتريهم الذهول عقب تكالب الوقائع والنوازل، وأشنع من هذا أن تكون سطوة أهل النفوذ قد أَنْسَت هؤلاء المتسننة مبادئهم!

لقد كان موقف بعض المتســـننة تجاه الوثنية السياسية في غاية الهشاشة والمداهنة والاضطراب. فوقع بعضهم في تقديس الحكام بلســـان الحال؛ فالحاكم عندهم يختص بالاحتســـاب والتكفيـــر ورفع الخلاف وخفضه و... (لايشـــرك فيه غيره!)، فكان لهؤلاء المتســـننة نصيب من التشبه بالرافضة في أصلهم «الإمامة»، ولو أنهم جعلوا ذلك محل اجتهاد لهان الأمر إلى حدٍّ مَّا، لكنهم يقطعون بأن ما يرونـــه هو الحق القاطع، و البرهان الساطع، وسبيل أهل السنَّة والجماعة!

ثم إن فريقاً منهم قد هوَّن وثنية المشاهد والقبور، وجامل أفـــراخ عمرو بن لُحَي، فكان لهم نصيب من محاكاة الصوفية الغلاة!

وقد حكى الشـــيخ محمد الغزالي صـــوراً مهينة لبعض المحســـوبين على أهل العلم ممن يقارنون وثنيةً سياســـيةً أو وثنيـــة الأضرحة والقبور، فقـــال - رحمه الله -: «وقد تذاكر الناسُ أن شيخاً كبيراً من جلَّة العلماء - كما يقولون - كان في المرض الذي يُسقِط عنه الصلاة لا ينسى أداء مراسم الوثنية السياســـية، على حين كان الدكتور طه حســـين - وموقفه من الدين معروف - يتكلم بحذر ويرسل مدائحه بقَدَر!»[5].

وقال في كتاب آخر: «والمعروف أن الأســـتاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أصدر فتوى بأن بناء الأضرحة حرام، ومع ذلك ما إن تولى المشـــيخة حتى سارع إلى زيارة ضريح الملك فؤاد؛ لأنه طبعاً أبو الصنم الحاكم (يعني فاروق)!»[6].

والحاصل أن هذه مواقف رخـــوة ومتهافتة من طرائق الصدِّ عن سبيل الله - تعالى - وازدراء سبيل أهل السُّنة وامتهانهم؛ فكم نحتاج إلى رجالات يبلغون رســـالات الله ولا يخشون في الله لومة لائم؟ فليس التديُّن مجـــرد محفوظات تقال وقت الدعة والرخاء؛ وإنما هو مواقف شـــجاعة تصدع بالحق حســـب ما يوجبه الشرع المنزَّل.

ورحم اللـه ابن القيم القائل: «إن نبينـا محمداً ﷺ قـاوم العالم كلـــه، وتجرَّد للدعوة إلى اللـــه، واحتمل عداوة البعيد والقريـــب في الله - تعالى - وآثـــر رضى الله الخالق من كل وجـــه... فإن المحنة تعظم أولاً، ليتأخـــر من ليس أهلاً، فإذا احتملهـــا وتقدَّم انقلبت تلك المحـــن منحاً، وصارت تلك المؤن عوناً، وهذا معروف بالتجربـــة الخاصة والعامة؛ فإنه ما آثر عبد مرضـــاة الله على الخلق، إلا أنشـــأ الله من تلك المحنة نعمة ومســـرة ومعونة بقدر ما تحمَّل من مرضاته. فيا خيبة المتخلفين ويا ذِلَّة المتهيبين»[7].

(١) عنوان المجد لابن بشر: ١/ ٢٥٧.
(٢) الدرر السنية: ١٤/ ٣٤.
(٣) انظر: الشيخ حافظ الحكمي ومنهجه في العقيدة لأحمد علوشي، ص٣٥٧.
(٤) انظر: القبورية لأحمد المعلم، ص٦٣٩ - ٦٤٧.
(٥) تأمُّلات في الدين والحياة، ص٣١.
(٦) في موكب الدعوة، ص١٢١.
(٧) مدارج السالكين: ٢/ ٣٠٠ = باختصار.

بسم الله الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وإِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً (المؤمنون:92)

حملة أمة واحدة

أمتي

حتى لا نقول أُكلت يوم أُكل الثور الأبيض

by www.exotox.com

المنظمون

رابطة الصحافة الإسلامية

"واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا"

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً وإذا افترقن تكسرت آحاداً

وحدتنا.. قوتنا ونهضتنا.. وعنوان وجودنا

تابعونا ايضاً:

www.ummawaheda.com

الدولة الإسلامية... بين الدينية والمدنية

محمد بن شاكر الشريف
alsharif@albayan.co.uk

هناك بعض التعبيرات والألفاظ تحمل شحنة من المعاني مرتبطة بالبيئة التي نشأت فيها والظروف التي أنتجتها وهي مغايرة للمعنى اللغوي الذي يمكن أن تدل عليه، فهي بذلك لا تحمل معاني مطلقة من التاريخ والجغرافيا (الزمان والمكان) اللذين نشأت فيهما، وقد أورث هذا نوعاً من الاختلاط في المدلول عند التعامل معه في البيئة المغايرة؛ حيث ترتب على ذلك أخطاء كبيرة؛ إذ بينما يستخدمها فريق حسب الاصطلاح المتعارف عليه في البيئة التي أنتجتها، فإن آخرين يستخدمها انطلاقاً مما يستفاد من المعنى اللغوي، وهذا الكلام ينطبق على كثير من المصطلحات التي يعج بها المجتمع وهي واردة من خارج البيئة الإسلامية، ومن تلك المصطلحات مصطلح الدولة الدينية والدولة المدنية.

معنى الدولة:

الدولة في اللغة: قال ابن فارس: الدال والواو واللام أصلان: أحدُهما يدلُّ على تحوُّل شيءٍ من مكان إلى مكان، والآخر يدلُّ على ضَعْفٍ واسترخاء. والدَّولة والدُّولة لغتان، ويقال: بل الدُّولة في المال والدَّولة في الحرب. وقال الزجاج: الدُّولة اسم الشيء الذي يُتداول، والدَّوْلةُ الفعل والانتقال من حال إلى حال. وفي «الصحاح في اللغة»: الدُّولَةُ والدَّوْلَةُ لغتان بمعنىً. وأَدالَنا الله من عدوِّنا من الدَوْلَةِ. والإدالَةُ الغلبةُ. يقال: اللهم! أَدِلْني على فلان وانصرني عليه. ودالَتِ الأيامُ؛ أي دارت. والله يُداوِلُها بين الناس. وتَداوَلَتْهُ الأيدي، أي أخذَتْهُ هذه مرةً وهذه مرةً.

الدولة في الاصطلاح: هي الهيئة المكونة من عناصر ثلاثة مجتمعة:

١ – مكان من الأرض يطلَق عليه إقليم.

٢ – طائفة من الناس تسكن الإقليم يطلق عليهم شعب.

٣ – سلطة يخضع لها الشعب في الإقليم يطلق عليها الحكومة؛ تدبر علاقات الشعب الداخلية في ما بينهم، وتدبر علاقاتهم الخارجية مع الأقاليم الأخرى، وتحمي حدوده ضد الأعداء المحتمَلين.

ويتفق المعنى اللغوي مع المعنى الاصطلاحي في العنصر الثالث عنصر السلطة؛ إذ من المعنى اللغوي للدولة – كما تقدم – الغلبة، والغلبة (القهر والإكراه واحتكار القوة) هي العنصر الفعال في السلطة.

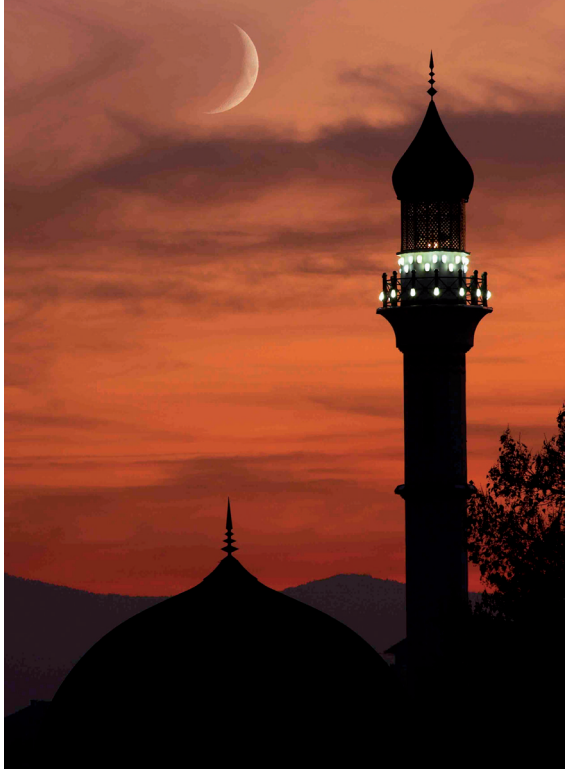

إن تعبير الدولة الدينية[1] والدولة المدنية ليس من مفردات السياسة الشرعية رغم أن الألفاظ المفردة المكوِّنة للتعبير هي ألفاظ عربية؛ يدل على ذلك أنك لو فتشت في ما كتبه العلماء المسلمون في ما مضى لم تجد لهذه التعبيرات أثراً، وهو مما يدل على أن هذه التعبيرات إنما وفدت من خارج البيئة الإسلامية.

لو نظرنا في المعنى اللغوي فقد كان مصطلح الدولة الدينية يعني الدولة التي يكون دين الشعب هو المحرك والمهيمن على كل أنشطتها، والدولة المدنية هي الدولة الحضارية التي فارقت البداوة والتخلف وأخذت بأسباب الرقي، أو الدولة التي تباين الدولة العسكرية. ومن البيِّن أنه في هذه الحالة ليس يمتنع أن تكون الدولة دينية ومدنية في آنٍ واحد إذ لا تعارض بينهما؛ وهو ما يعني أن المعنى اللغوي لكلا المصطلحين لا إشكال فيه وليس في استخدامه لغوياً ما يُحذَر، لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد؛ فقد شُحِن كلا المصطلحين بمعانٍ وأضيفت له هوامش وشروحات مما جعل استخدام المصطلح في البيئة الإسلامية محفوفاً بكثير من المخاطر والإشكاليات

وعندما نرجع إلى مصطلح الدولة الدينية (الثيوقراطية) والدولة المدنية في البيئة التي نشأت فيها (البيئة الوثنية والبيئة النصرانية) نجد أن الأمر جِدُّ مختلف؛ فالدولة الدينية في تصورهم هي الدولة التي يكون الحاكم فيها ذا طبيعة إلهية (إله أو ابن إله)، أو أنه مختار بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من الله – تعالى – حسب ما عُرِف بنظرية الحق الإلهي. ويترتب على ذلك أن يكون الحاكم في منزلة عالية لا يرقى إليها أحد من أفراد الشعب، وأنه لا يُعتَرض على أقواله أو أفعاله، وليس لأحد قبله حقوق أو التزامات؛ بل عليهم الخضوع التام لإرادة الحاكم؛ حيث لا حق لهم في مقاومته أو الاعتراض عليه، ومن البيِّن أن هذا التصور للحاكم لا وجود له في الفقه السياسي الإسلامي، ولا في التاريخ الإسلامي؛ فالحاكم بشر خالص ليس له علاقة بالله إلا علاقة العبودية والخضوع لبارئه، وللمسلمين الحق في متابعته ومراقبته ومحاسبته، وكذا مقاومته لو خرج عن حدود الشرع الذي يجب عليه التقيد به.

وقد أوجد هذا التصور للدولة الدينية ردَّة فعل عنيفة عند مفكري تلك الأمم وفلاسفتهم؛ جرَّهم إلى اتخاذ موقف مناقض أشد المناقضة؛ فلم يكفهم أن ينفوا المعاني الباطلة المتعلقة بذلك المصطلح؛ بل بالغوا وغالَوا ونفَوا أن يكون للدين أيُّ تدخُّل أو تعلُّق بالدولة، ومن ثَمَّ استعاضوا عن ذلك بوضع الإنسان في موضع الدين، فأصبح الإنسان هو من يضع القوانين وهو الذي ينظم الأمور من غير أن يتقيد في ذلك بشيء من خارجه، والدولة التي يحل فيها الإنسان محل الله – تعالى الله عما يقولون ويتصورون ويصفون – هي الدولة المدنية في تصورهم.

فالدولة المدنية إذن ليست لها مرجعية سوى الإنسان، ومن ثَمَّ فهي مناقضة لتدخُّل الدين في أيٍّ من شؤونها وقضاياها، أي تقوم بفصل الدولة عن الدين، فهي بذلك مرادفة للدولة العَلمانية. وهذا يتضح بجلاء عندما نجد كل الأطياف المعادية للإسلام في بلاد المسلمين على اختلافها وتنوعها تنادي بالدولة المدنية في مقابل دعوات الإسلاميين لتحكيم الشريعة؛ لأن الدولة المدنية في مفهومهم مناقضة للدولة الإسلامية التي لا يمثل الإنسان فيها – على الرغم من تكريم الإسلام له – أية مرجعية تشريعية، بل المرجعية فيها لكتاب الله – تعالى – وسُنة نبيه ﷺ.

ومن هنا يتعجب الباحث ويستغرب مما يدعيه بعض الإسلاميين بقولهم: «الدولة الإسلامية هي دولة مدنية بالأساس»، وهو مجرد كلام مرسَل لم يقم عليه دليل، وهم في سبيل تمرير دعواهم الباطلة – التي لا رصيد لها من النصوص أو الواقع – قاموا بعملية تزوير فاضحة؛ حيث عمدوا إلى بعض التصورات الإسلامية الصحيحة وقاموا بنقلها وإلصاقها بالدولة

(١) وهو الترجمة العربية للكلمة الأجنبية: الثيوقراطية المكونة من مقطعين: ثيو وتعني الدين، قراطية وتعني حكم أو حكومة.

المدنية دون أدنى برهان أو دليل؛ فيذكر بعضهم أن الدولة المدنية «تقوم السلطة بها على البَيْعة والاختيار والشورى، والحاكم فيها وكيل عن الأمة أو أجير لها، ومن حق الأمة (مُمثَّلة في أهل الحلِّ والعَقْد فيها) أن تحاسبه وتراقبه، وتأمره وتنهاه، وتُقَوِّمه إن اعوجَّ وإلا عزلته، ومن حق كل مسلم (بل كل مواطن) أن ينكر على رئيس الدولة نفسه إذا رآه اقترف منكراً، أو ضيَّع معروفاً، بل على الشعب أن يُعلن الثورة عليه إذا رأى كفراً بَوَاحاً عنده من الله فيه برهان» ويقول آخر: «الدولة الإسلامية هي أول دولة مدنية في التاريخ يخضع فيها الناس لسلطة النظام العام أو القانون، ولا تفتِّش في الضمائر، ولا تملك سلطة حرمان أو غفران»، وهذا الكلام وسابقه لا علاقة له بالدولة المدنية فالتعبيرات أو المفاهيم أو التصورات السابقة كلها إسلامية تجد في النصوص الشرعية دليلها وبرهانها، والدولة المدنية في عرف أصحاب المصطلح ليست الدولة المتحضرة أو الدولة الراقية التي فارقت البداوة وأخذت بكل أسباب الرقي والتمدن، أو التي فارقت الدولة العسكرية؛ بل الدولة المدنية عندهم هي الدولة التي لا يكون للدين فيها أية مرجعية، ومما يمكن أن يُستَدل به على ذلك كلام الإسلاميين أنفسهم؛ حيث يقولون: نحن نريد دولة مدنية بمرجعية إسلامية فهذا الطلب يدل على أنه ليس من معنى الدولة المدنية تقيدها بدين الشعب؛ ولو كان ذلك داخل في معناها أو جزء من معناها لم تكن هناك حاجة لذلك القيد، ونحن عندما نراجع تعاريف العلماء في كتب الأحكام السلطانية والسياسة الشرعية لتعريف الخلافة التي تقابل السلطة أو الحكومة في الدولة نجد أن من أركانها متابعة الرسول ﷺ والتمسك بالشريعة وسياسة الدنيا بها، وهذا ينفي ما يدَّعيه بعضهم بقولهم: «الدولة الإسلامية هي دولة مدنية بالأساس»، ولو كانوا يريدون من ذلك الكلام التأكيد على أن الدولة في الإسلام ليست دولة متخلفة أو يغلب عليها البداوة؛ بل تأخذ بكل أسباب التمدن والتحضر والرقي لكان الصواب أن يستخدموا بدلاً منها عبارة (دولة متحضرة) مثلاً؛ وذلك لصدق هذا اللفظ عليها، ولكونه غير محمَّل بمعاني فاسدة كلفظ المدنية الذي يستخدَم في كلا المعنيين (الصحيح والفاسد)، ولعل الحرص الشديد على تسويق مصطلح الدولة المدنية، والضغط على الحركة الإسلامية كي تستخدمه؛ إنما ذلك بغرض إدخال الأفكار والتصورات العَلمانية والتمكين لها بين المصطلحات الإسلامية بعيداً عن مصطلح العَلمانية الذي افتُضِح أمره وملَّتْه النفوس السليمة.

والمصطلح الذي ينبغي التمسك به والدعوة إليه في وصف دولتنا هو أن نَصِفَها بالإسلامية، والإسلام أحكامه معروفة معلومة دلَّ عليها الكتاب والسُّنة، فيكفي أن نقول: الدولة الإسلامية، حتى يُفهَم المراد منها.

وهذا المسلك الذي يحاول أصحابه أن ينتزعوا المعاني الإسلامية ويكسو بها مصطلحات غير إسلامية، مسلك غير راشد لعدة أمور:

١ - وَضْع المصطلح الدخيل في منزلة أعلى من المعاني التي دلت عليها الشريعة بدليل الركون إليه وتقديمه عما عداه.

٢ - التأسيس للمصطلح الدخيل والتمكين له بزي شرعي، وهو ما يمثل احتلالاً فكرياً.

٣ - نسبة أحكام شريعتنا لغيرها من المصطلحات الدخيلة

وكل هذا يعني انهزام القائلين به أمام المصطلحات الدخيلة، وهو ما يجعلها تنزل منزلة الأصل؛ بينما تكون المصطلحات الشرعية في منزلة التابع.

وقد يستغرب الباحث حرص كثير من الدعاة على تغييب المصطلح الإسلامي والخجل من الجهر به والدعوة إليه في الوقت الذي يتبجح فيه بعض دعاة مصطلح الدولة المدنية ولا يخجلون من بيان عَلمانية المدلول. يقول أحدهم في صراحة: «الخيار بين الدولة المدنية والدولة الدينية هو خيار بين الحداثة وبين العودة للماضي: الدولة المدنية هي الدولة العَلمانية الديمقراطية الليبرالية، وهي تُعتَبَر بحق نقيضاً للتيار الرجعي السلفي، وتفضي للخلاص النهائي من النعرات الدينية والطائفية والمذهبية بحكم موقفها المحايد من كل المعتقدات.

الدولة المدنية هي التي تحد من تسخير الدين لمصلحة الحاكمين، وهي الدولة التي تسير مع ركب العالم المتمدن متخطية القيود تاركة وراءها ثقافة التمسك بالماضي والتقليد السلفي. إن الدولة المدنية العَلمانية باختصار تهدف إلى إبعاد الدين عن السياسة»[1]؛ وهو ما يعني تعارض مدلول الدول المدنية مع ما هو مقرر ثابت في شرعنا، ومن ثَمَّ فلا تصلح تلك المحاولات التي يحاولها بعض الناس من إضفاء مسحة إسلامية على هذا المصطلح وعليهم أن يقلعوا عن تلك المحاولة التي لا يستفيد الدين منها شيئاً.

(١) طلال أحمد سعيد الحوار المتمدن - العدد: ٢٢٣١، ٢٠٠٨/٣/٢٥.

مجلة البيان

الآن في الأسواق..

www.albayan.co.uk

الريـــاض: ـ هـــاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحـــويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فـــاكس: ٤٥٣٢١٢١

التـوزيع والمبيعـــات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـــ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـــ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جـــدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكـة والمدينـة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقـة الجنوبيـة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقـــــة الشرقيـــة: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقـــــة القصيـــم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

القدس
عاصمةً للنظام العالمي الجديد

فيصل بن علي الكاملي(*)
popedia@windowslive.com

يعد مصطلح «النظام العالمي الجديد» من أهم المصطلحات السياسية المعاصرة؛ لكنه من أكثرها غموضاً لما يرتبط به من عقائد وأجندات خفية. لكنه عند الباحثين المحققين يعبِّر عن تنظيم صليبي على غرار منظمة الأمم المتحدة – بل هو امتداد لها – يهدف إلى أن يَستَبدل بالحكومات ذات السيادة المستقلة حكومةً عالميةً باطنيةً تتخذ من القدس عاصمة لها.

لقد حاول الغرب الصليبي تجسيد فكرة النظام العالمي الجديد من خلال إنشاء اتحاداتٍ عولمية من أشهرها «عصبة الأمم» التي تُعَد سلفاً لمنظمة الأمم المتحدة. وقد أشار الرئيس الأمريكي الأسبق «جورج بوش الأب» إلى ارتباط مَهامِّ الأمم المتحدة بالنظام العالمي الجديد عندما عرَّف «النظام العالمي الجديد» بأنه «نظام تلعب فيه «أممٌ متحدة» موثوقة دورَ حفظ السلام وفاءً بوعد ورؤية مؤسسي الأمم المتحدة»(1).

فالنظام العالمي الجديد إذن هو «أممٌ متحدةٌ» لها حق التدخل عسكرياً وسياسياً واقتصادياً في سيادة أي دولة لا تنصاع لهذا النظام الصليبي. وقد أشار إلى هذا الدور الاستبدادي «ستانفيلد تيرنر» عضو «مجلس العلاقات الخارجية» ومدير الـ CIA الأسبق عندما علَّق على أزمة الخليج قائلاً: «هنا أحد الأمثلة؛ ألا وهو الوضع القائم بين الأمم المتحدة والعراق؛ حيث تتدخل الأمم المتحدة عامدة في سيادة دولة مستقلة... هذه سابقة رائعة ينبغي أن توظَّف في كل الدول»(2). وها هو النظام العالمي الجديد يوظفها فعلاً في أفغانستان وليبيا وساحل العاج، وسيظل يوظفها مع الأمم حتى يتم القضاء على كل قوة يمكن أن تقف في وجهه.

من دعائم هذا الاستبداد العولمي تدمير القدرات العسكرية للأمم ونزع السلاح بحجة منع الفوضى ونشر السلام؛ بينما لا يزداد الغرب الصليبي إلا تسلُّحاً. وقد أصدرت وزارة الداخلية الأمريكية عام ١٩٦١م خطة بعنوان «التحرر من الحرب: برنامج الولايات المتحدة لنزعٍ شاملٍ وكاملٍ للسلاح في عالم مُسالم» تطرَّقَت فيها إلى ثلاث مراحل لنزع السلاح من الأمم، وتسليح

(*) باحث سعودي متخصص في دراسة الأديان – يعمل في مركز الدراسات والبحوث التابع لمجلة البيان.

(1) http://www.youtube.com/watch?v=Rc7i0wCFf8g

(2) Lett, Jr., Donald, G. Phoenix Rising: The Rise and Fall of the American Republic, p. 285.

الأمم المتحدة في المرحلة الأخيرة؛ عندها «لن تمتلك أيُّ دولةٍ القوة العسكرية لمواجهة قوة السلام التابعة للأمم المتحدة التي ستتزايد قوَّتها تدريجياً»[1].

لكن أمراً بالغ الأهمية ينبغي أن يشار إليه هنا وهو أن «النظام العالمي الجديد» أو «الأمم المتحدة» أو «الحكومة العالمية» تخطط لجعل القدس عاصمة لها تحت ستار حل القضية الفلسطينية. وهذا ليس سراً، بل هو حلم مؤسسي «عصبة الأمم» التي تُعَد سلفاً للأمم المتحدة. تقول الكاتبة «إيديث ميلر» في كتابها «الثيوقراطية الباطنية» الذي نُشر بعد وفاتها عام ١٩٣٣م: «إننا على علم بأن اللورد «روبرت سيسيل» (رئيس اتحاد عصبة الأمم) قد تنبأ في خطاباته التي ألقاها في الولايات المتحدة داعماً عصبة الأمم بأنها في نهاية أمرها ستجعل من القدس مقراً رئيساً لها»[2].

إن ارتباط الأمم النصرانية بالقدس يعود إلى عصر الحروب الصليبية حين اتخذ فرسان الهيكل الصليبيون من القدس قاعدة لهم. وأملُ العودة إلى «الهيكل» لا يزال يدغدغ مشاعر الماسون الذي يخدمون المشروع الصليبي الساعي إلى استعادة بيت المقدس. وقد صرَّح بهذه الحقيقة مؤرخ الماسونية «جون روبنسون» عندما قال قبل أكثر من عشرين عاماً:

«إن ما أقترحه هو أن يقوم خمسة ملايين ماسوني في العالم تقريباً، ممن يَقبلون الإخاء مع أتباع كل الأديان، بأخذ زمام المبادرة في حل مشكلة جبل الهيكل [القدس الشريف] عن طريق توحيد مواقفهم الدينية من خلال إجلالهم لـ «هيكل سليمان»؛ وذلك لمصلحة العالم أجمع[3]. ستكون رحلةً طويلةً ومكلفة من الغرب إلى الشرق؛ لكنها ستُضفي معنى جديداً لكل أحد يجعل من نفسه لَبِنة تامة تأخذ مكانها في «هيكل الرب». ستكون طريقة عجيبة لإتمام «هيكل سليمان» الذي لم يتم بعد، وإتمامِ شوطٍ كاملٍ من الطواف يعود إلى الغرض الأول للأسلاف (فرسان الهيكل) الذين كانوا أمانَ العابرين من الحجيج إلى تلك البقعة المقدسة[4].

كما أن مشروع البهائية الذي يتفق شكلاً ومضموناً مع «النظام العالمي الجديد» يدعو إلى عاصمة عالمية. فهذا زعيم البهائية «شوقي أفندي» يتكهن – بعد أن لَقَّنه أسيادُه من الروم – بقيام «هيئة تنفيذية عالمية تسندها قوة دولية سوف تنفِّذ القرارات التي تصدرها هيئة التشريع العالمية وتطبِّق القوانين التي تشرِّعها وتحرس الوحدة الأساسية لرابطة الشعوب العالمية بمجموعها... وستكون عاصمةُ عالميّةُ المركزَ العصبيَّ لحضارة عالمية والنقطةَ التي فيها تتجمع جميع القوى الموحدة للحياة ومنها يشعُّ نشاط نفوذها الفعَّال»[5]. وهذه العاصمة هي القدس بلا ريب.

ولكن يبدو أن الغرب الصليبي لم يعد يحتمل المفاوضات المتطاولة مع الطرفين المسلم واليهودي فبادر مستشارُ أوباما اليسوعيُّ «زبيجنيف بريجينسكي» بطرح خطة سلام في مقال خطير كتبه بالتعاون مع «ستيفن سولارز» لصحيفة «واشنطن بوست» بعنوان «على أوباما أن يقوم بزيارة جريئة إلى الشرق الأوسط إن أراد تحقيق السلام»[6]؛ يقترح فيه حلاً للقضية الفلسطينية يتلخص في دولتين تَقتسِمان القدس بينما توضع «البلدة القديمة» التي تضم المسجد الأقصى وكنيسة القيامة تحت وصاية الأمم المتحدة.

ليس غريباً أن نسمع مثل هذه الأطروحات من رجل صرَّح بأنه بمثابة عضوِ شرفٍ في التنظيم اليسوعي الصليبي[7]؛ لكن الغريب هو أن تكون هذه المبادرة المقترحة هي عين ما دعا إليه «أحمد قريع» أمام البرلمان الأوروبي في «ستراسبورغ» بقوله: «ما لم نتوصل إلى اتفاق حول القدس، فإني أعلن أن القدس بشِقَّيها الشرقي والغربي ينبغي أن تكون قدساً دولية موحدة... فلا تكون عاصمةً لإسرائيل أو فلسطين فحسب، بل عاصمةً للعالم أجمع»[8].

إن هذه الخطة التي طرحها «بريجينسكي» ليست وليدة الساعة، بل هي مبنية على «قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٨١» عام ١٩٧٤م[9]. لكن الجديد هذه المرة هو لغة الاستعلاء في التعامل مع من يرفضها من الطرفين. يقول «بريجينسكي» في مقاله: «ينبغي على إدارة أوباما – إذا ما

(1) Schlesinger, Arthur Meier. A Thousand Days: John F. Kennedy in the White House (Houghton Mifflin Harcourt, 2002), p. 476.

(2) Lady Queenborough. Occult Theocracy (South Pasadena, California: Emissary Publications, 1980), p. 639.

(٣) لا ريب أن مساعي التقريب بين الأديان التي يروِّج لها الفاتيكان تصب في هذا الإطار.

(4) Robinson, John J. Born in Blood: The Lost Secrets of Freemasonry (M. Evans & Co., 1989), p. 344.

(٥) منتخبات من كتاب بهاء الله والعصر الجديد (ولمت، إلينوي، الولايات المتحدة: مؤسسة النشر البهائية، ١٩٧٠م)، فصل: «نظام بهاء الله العالمي».

(6) http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2010/04/09/AR2010040903263.html

(7) Robert Dreyfuss. Hostage to Khomeini (New York: New Benjamin Franklin House Publishing Company, 1980), p. 5.

(8) http://www.guardian.co.uk/world/2000/sep/06/israel

(9) http://www.cfr.org/un/un-general-assembly-resolution-181-ii-palestine/p11191

رفض الإسرائيليون أو الفلسطينيون الموافقة على الصيغة الأساسية [للخطة] كنقطة انطلاق للمفاوضات – أن تكون مستعدة للاستمرار في مبادرتها بوسائل مختلفة... وبناءً عليه فإن على الإدارة [الأمريكية] أن تُبلغ الطرفين أنه إن رُفِض العرض من أحدهما أو كليهما فإن الولايات المتحدة ستطلب تأييد مجلس الأمن لخطة السلام هذه، وهي خطوة كفيلة بأن تولدّ ضغطاً عالمياً على الطرف المتمرد»[1].

وهذا يعني بأسلوب أكثر تبسيطاً أن على الطرفين (الفلسطيني والإسرائيلي) أن يقبلا سيادة الأمم المتحدة أو «النظام العالمي الجديد» على البقاع المقدسة في القدس طوعاً أو كرهاً فليس ثمة خيار آخر إلا الخيار العسكري بإشراف «مجلس الأمن». ولا أدري ما الفرق بين اقتراح الصليبي «بريجينسكي» وبين تصريح «محمود عباس» الذي هدد فيه إسرائيل «بالتوجه إلى مجلس الأمن» ومطالبته بفرض الوصاية على الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٦٧م[2]. فهل نحن أمام مسرحية كُتبت فصولها سلفاً؟

وبعد فرض الوصاية وتدويل القدس «يقوم مجلس الوصاية [التابع للأمم المتحدة] بتعيين حاكم للقدس يكون مسؤولاً أمامه، ويكون هذا الاختيار على أساس كفايته الخاصة دون مراعاة لجنسيته» كما ينص «قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٨١». وسيكون من صلاحيات «حاكم القدس» – وَفْقاً للقرار – ما يلي: «يمثل الحاكمُ الأممَ المتحدةَ في مدينة القدس، ويمارس نيابة عنها جميع السلطات الإدارية بما في ذلك إدارة الشؤون الخارجية».

«للمساعدة على استتباب القانون والنظام الداخلي، وبصورة خاصة لحماية الأماكن المقدسة والمواقع والأبنية الدينية في المدينة، يقوم الحاكم بتنظيم شرطة خاصة ذات قوة كافية يُجنَّد أفرادها من خارج فلسطين».

«تكون الهجرة إلى داخل حدود المدينة [القدس] والإقامة فيها بالنسبة إلى رعايا الدول الأخرى خاضعة لسلطة الحاكم وَفْقاً لتعليمات مجلس الوصاية».

«إنّ رأى الحاكم في أي وقت ضرورة ترميم مكانٍ مقدس أو بناء موقع ديني ما، فيجوز له أن يدعو الطائفة أو الطوائف المعنية إلى القيام بالترميمات اللازمة. ويجوز له القيام بهذه الترميمات على حساب الطائفة أو الطوائف المعنية إن لم يتلق جواباً عن طلبه خلال مدة معقولة».

«يكون لحاكم مدينة القدس الحق في تقرير ما إذا كانت أحكام دستور الدولة المتعلقة بالأماكن المقدسة والأبنية والمواقع الدينية ضمن حدود الدولة والحقوق الدينية المختصة بها، تطبَّق وتُحتَرم بصورة صحيحة؛ وله أن يَبُتَّ على أساس الحقوق القائمة في الخلافات التي قد تنشب بين الطوائف الدينية المختلفة أو من طقوس طائفة دينية واحدة بالنسبة إلى هذه الأماكن والأبنية والمواقع، ويجب أن يلقى الحاكم تعاوناً تاماً ويتمتع بالامتيازات والحصانات الضرورية للاضطلاع بمهماته في الدولة»[3].

فحاكم القدس إذن هو ممثل «الأمم المتحدة» أو «النظام العالمي الجديد» في القدس، ويملك من الصلاحيات والحصانة ما يخوله للتخاطب الدولي مباشرة وتعاطي الشؤون الخارجية، بل يُدخل القدس من شاء من رعايا الدول ويمنع من شاء، ويبني من دور العبادة ما شاء، ويبُتُّ في الخلافات بين أتباع الأديان والطوائف. وأغرب من هذا كله أن شروط اختيار «حاكم القدس» تنص على «ألا يكون مواطناً لأي من الدولتين في فلسطين» فهو إذن لن يكون إسرائيلياً ولا فلسطينياً؛ فماذا سيكون؟

لقد نشرت صحيفة «حَدَشوت» خبراً فحواه اعتراف الروائي والمفكر الفرنسي اليهودي «ماريك هولتر» بأنه تسلَّم في عام ١٩٩٣م رسالة من «بيريز» إلى البابا يعده فيها بتدويل القدس، ومَنْح الأمم المتحدة السيطرة السياسية على القدس القديمة، ومنح الفاتيكان البقاع المقدسة. كما أن الأمم المتحدة ستقوم بدورها بمَنْح «منظمة التحرير الفلسطينية» عاصمة لها في القدس القديمة، وستصبح القدس الشرقية أشبه ما تكون

(1) http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2010/04/09/AR2010040903263.html

(٢) صحيفة الشرق الأوسط، مقال بعنوان: «أبو مازن يُلوّح بطلب الوصاية الدولية على الأراضي الفلسطينية للتخلص من الاحتلال» على الرابط التالي:
http://www.aawsat.com/details.asp?section=4&issueno=11722&article=601924

(٣) انظر نص «قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٨١» باللغة الإنجليزية على موقع «مجلس العلاقات الخارجية» الأمريكي:
http://www.cfr.org/un/un-general-assembly-resolution-181-ii-palestine/p11191

وله ترجمة إلى العربية على الرابط التالي:
http://mohammedelkhaldi.maktoobblog.com/396179/%D9%86%D8%B5-%D9%82%D8%B1%D8%A7%D8%B1-%D8%AA%D9%82%D8%B3%D9%8A%D9%85-%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86-%D8%B1%D9%82%D9%85-181/

بمنطقة تجارة حرة للدبلوماسية العالمية؛ وهو ما أكدته صحيفة «لا ستامبا» La Stampa الإيطالية[1].

وفي عام ١٩٩٥م سَـرَّبت إذاعة «عَروتْس شـيبَع» Arutz Sheva (القناة السـابعة) برقية بعثتها السفارة الإسرائيلية في روما إلى وزارة خارجية «بيريز» في القدس تؤكد تسليم القدس للفاتيكان، ونُشـر نص البرقية علـى صحيفة «هآرتس» بعدها بيومين فأحـدث الخبر ضجة كبرى. اعتـرف «بيريز» بصحة البرقيـة؛ لكنه اعتذر بأن أحدهم طمس أداة النفي وأن الأصل هو أن إسرائيل «لن» تسلم القدس لبابا الفاتيكان[2]!

وفي مقال نشرته صحيفة «جيروسـاليم بوست» اليهودية بعنوان «بيريـز يريد التنازل عن البقاع [المقدسـة] للفاتيكان» بتاريـخ ٤ مايو ٢٠٠٩م، نجـد الحديث عن المؤامرة نفسـها. ويضيف الخبر الذي ينقل عن تقرير إذاعة الجيش الإسرائيلي أن «بيت هاناسـي» («المقر الرئاسـي» في القدس) صرح بأن «المحادثات تطاولت بما فيه الكفاية، وأن الوقت قد حان لتقديم تنازلات للفاتيكان والتوصل إلى اتفاق»[3].

وقد نشرت إذاعة «عروتس شـيبع» اليهودية على موقعها خبراً بعنوان «هيمنة إسـرائيل على جبـل صهيون في خطر» بتاريـخ ٢٦ أبريل ٢٠٠٩م يؤكد أن «المؤشـرات داخل الفاتيكان وفـي الصحف الكاثوليكية تتجه منذ زمـنٍ إلى توقُّع أن تنتهي المفاوضـات بنجاح لصالـح لجانب الكاثوليكـي»[4]، بل صرح «بيريز» للبابا «بندكت السـادس عشـر» أثناء زيـارة الأخير لفلسـطين قائلاً: «كما تعلم، حاولنا أن ننهي ما نستطيعه قبل زيارتك» «حينها أُوقف التصوير وقُطعت الميكروفونات واستمرت المحادثات بعيداً عن الأنظار»، كما تقول «عروتس شيبع»[5]. لكن «بيريز» لـم ينسَ أن ينعت البابا بقولـه: «إننا نرى فيك راعياً للسلام، وزعيماً روحياً عظيماً، وحمَّالاً لرسالة السلام إلى هذه البلاد والعالم أجمع»[6].

ووَفْقاً لصحيفة «جيروسـاليم بوسـت» أعلن «بيريز» في خطاب ألقاه أمام «المؤتمر اليهودي العالمي» بالقدس في شـهر أغسطس ٢٠١٠م استعداد «بنيامين نتنياهو» لتنفيذ خطة «حل الدولتين»! بعدها توجه «بيريز» إلى بابا الفاتيكان «ليوافيه بآخر الجهود المبذولة لإنهاء الصراع (الإسـرائيلي – الفلسـطيني) وتأمين السـلام في المنطقة»[7]. أليس مريباً ذلك الحرص على موافاة البابا بكل ما يسـتجد في نزاعٍ لا يمثل البابا طرفاً فيه؟ أضـف إلى ذلك أن دولة الفاتيكان هيَ الدولة الوحيدة المعترَف بها دولياً المسـتثناة من عضويـة الأمم المتحدة. لكنها مع ذلك مُنحَـت دور المراقب الدائم «permanent observer» الذي يمتلك كل حقوق العضوية باسـتثناء التصويت[8]. فما السر في استثناء الفاتيكان من دائرة العضوية وجعلها مراقباً دائماً؟

لقد كشـفت مجلة الـ «تايم» Time الأمريكية عام ١٩٤٠م نقـلاً عن الـ «جارديـان» The Guardian: «أن قوى المحور تخطط لتسـليم فلسطين لتكون تحت سيادة الفاتيكان... وبناء على الخطة – قالـت الـ «جارديان» – سـيرعى البابا البقاع المقدسة في فلسطين ويدع لإيطاليا إدارة الدولة [الفاتيكان]»[9]. وهذا هو السـر وراء تأييد رأس الصليبية «بندكت السـادس عشر» قيامَ دولة فلسطينية إلى جانب الدولة الإسرائيلية، وليس من الإشفاق في شيء كما قد يتوهمه البسطاء[10].

إن مـا أردتُ تأكيدَه في هـذا المقال: هو أن تدويل القدس وجَعْلِهـا تحت وصايـة الأمم المتحدة ما هـو إلا صورة مُزوَّقة لعـودة الصليبيين إلى بيت المقدس بخيلهم ورَجِلهم؛ ولهذا نص اقتراح «بريجينسـكي» على «دولة فلسـطينية منزوعة السلاح تضم عسكراً من الولايات المتحدة أو حلف الناتو على طول نهر الأردن يقدم مزيدَ أمنٍ لإسرائيل» [11]. وكأني ببسطاء المسلمين يهتفـون حينها «حُرِّر الأقصى!» بينما يقف «راسموسـن» على أعتاب المسجد الأقصى قائلاً «الآن انتهت الحروب الصليبية».

إننا أمام محك تاريخي قد يكشف حقيقةً طالما كثر السؤال عنها: أي الفريقين سُـخِّر لخدمة الآخـر، الصهاينة اليهود أم الروم النصارى؟

(1) http://www.thebarrychamishwebsite.com/newsletters/Pope.html
(2) http://www.thebarrychamishwebsite.com/newsletters/Pope.html
(3) http://www.jpost.com/servlet/Satellite?cid=1239710858577&pagename=JPArticle%2FShowFull
(4) http://www.israelnationalnews.com/news/news.aspx/131032
(5) http://www.israelnationalnews.com/News/News.aspx/131302
(6) http://www.israelnationalnews.com/News/News.aspx/131302
(7) http://www.jpost.com/MiddleEast/Article.aspx?id=186562
(8) http://www.un.org/en/members/nonmembers.shtml
(9) http://www.time.com/time/magazine/article/0,9171,795047,00.html
(10) http://www.timesonline.co.uk/tol/comment/faith/article6269490.ece
(11) http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2010/04/09/AR2010040903263.html

في مجالس سعد رضي الله عنه يتربى المصلحون

أحمد بن عبد الرحمن الصويان(*)

سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – من العشرة المبشرين بالجنة[1] من السابقين الأولين، كان ثالث ثلاثة في الإسلام[2]. صبر مع رسول الله ﷺ في حصار الشعب، وتحمل الشدة والجوع[3]. حمل لواء الجهاد مع رسول الله ﷺ، ورمى بأول سهم في الإسلام[4]. وشهد بدراً ولم يكن في وجهه شعرة واحدة يمسحها بيده[5]. وشهد أُحُداً وأبلى فيها بلاءً حسناً وثبت مع رسول الله ﷺ حين ولَّى الناس[6]، حتى فدَّاه رسول الله ﷺ بوالديه وقال له: «ارم فداك أبي وأمي»[7]. ثم شهد غزوات النبي ﷺ كلها مقبلاً غير مدبر، لم يتخلف عن شيء منها، وكان النبي ﷺ يفتخر به قائلاً: «هذا خالي؛ فَلْيُرني امرؤ خاله»[8]. وما كان النبي ﷺ يفتخر به لولا أنه كان من الأفذاذ النوادر المستحقين لذلك.

ولمَّا أراد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فتح العراق، ومواجهة مملكة فارس، فتش في أصحابه، واستشارهم، ولم يرَ أقدر من سعد (الأسد في براثنه)[9] لتولي هذه المهمة العظيمة؛ فالراسخون من العمالقة هم وحدَهم القادرون على تحمُّل الشدائد والواجبات الكبيرة، وكان – رضي الله عنه – عند حسن الظن به؛ فأبلى بلاء حسناً، وسطر أروع الأمثلة في التضحية والقوة والبسالة.

ومجالسه التي يمكن أن تُستلهَم منها القدوة والمثل الحي، كثيرة جداً، أكتفي منها بثلاثة مجالس:

(*) رئيس تحرير مجلة البيان.

(١) أخرجه: أحمد (٣/٢٠٩)، رقم (١٦٧٥)، والترمذي في كتاب المناقب، رقم (٣٧٤٧)، وقال الأرنؤوط في تحقيقه للمسند: (إسناده قوي على شرط مسلم).

(٢) روى البخاري في صحيحه أن سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – قال: (لقد رأيتني وأنا ثلث الإسلام). وروى أيضاً قوله: (قد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام)، كتاب فضائل الصحابة (٨/٤٣٩)، رقم (٣٧٢٦ و ٣٧٢٧).

(٣) قال سعد – رضي الله عنه –: (كنا نغزو مع النبي ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الشجر؛ حتى إنَّ أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاه ماله خلط). أخرجه: البخاري في فضائل الصحابة (٨/٤٣٩)، رقم (٣٧٢٨). وانظر: المغازي والسير (ص ١٩٤)، والروض الأنف (٢/١٢٧ – ١٢٨).

(٤) قال سعد – رضي الله عنه –: (إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله). أخرجه: البخاري في كتاب فضائل الصحابة (٨/٤٣٩)، رقم (٣٧٢٨).

(٥) سير أعلام النبلاء: (١/٩٧). وانظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/١٤٢).

(٦) الطبقات الكبرى (٣/١٤٢).

(٧) أخرجه: البخاري في كتاب الجهاد والسير (٨/١٨١)، رقم (٢٩٠٥).

(٨) أخرجه: الترمذي في كتاب المناقب، رقم (٣٧٥٢)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم (٣٧٥٢).

(٩) هكذا وصفه عبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنه – لما استشاره عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في قائد المسلمين إلى العراق. انظر: البداية والنهاية: (٩/٦١٤). تحقيق د. عبد الله التركي.

المجلس الأول: العقيدة القتالية:

تتحدث الدول دائماً عن العقيدة العسكرية لجيوشها باعتبارها المحرك الأساسي للتضحية والدفاع عن الوطن، وكل دولة تحاول أن تستدعي من تاريخها وحاضرها ما يمكن توظيفه لاستثارة الحمية القتالية للجنود.

حسناً، لكن أتدرون ما العقيدة القتالية لسعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – لما أراد إسقاط دولة فارس، أقوى إمبراطورية في عصره؟

لقد انتدب سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – أصحابه لخوض نهر دجلة من أجل مواجهة الفرس واقتحام المدائن مقر قصر كسرى، فتقدم جمع منهم، وأحجم آخرون، فقال سعد: «أتخافون هذه النطفة؟» (يعني: ماء البحر)، ثم تلا قول الله – تعالى –: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾ [آل عمران: ١٤٥]، ولكي يتحقق المقصود بدأ بنفسه؛ فاقتحم فرسه في النهر، واقتحم الناس من ورائه.

فجعل سعد يقول: «حسبنا الله ونعم الوكيل، والله! لينصرن الله وليه، وليُظهرن الله دينه، وليهزمن الله عدوه». وهذا اليقين الراسخ بنصر الله وتأييده لأوليائه، ليس مطلقاً عند سعد؛ بل هو مشروط بقوله: «إن لم يكن في الجيش بغي، أو ذنوب تغلب الحسنات»[10].

(١٠) البداية والنهاية: (١٠/١٠ – ١٢).

وقد تضمنت هـذه العقيدة القتالية عدداً من المعالم، من أهمها:

أولاً: القوة والشجاعة، وعدم التردد في اقتحام الأهوال: ولهذا سمى سعد أول كتيبة اقتحمت النهر بكتيبة الأهوال.

نعم، كانت مخاطـرة عظيمة؛ فاقتحام نهر كبير مثل نهر دجلة، يتطلب إقداماً وعزيمة، وصدق الشاعر في قوله:

إذا كنتَ ذا رأي فكن ذا عزيمةٍ؛
فـإنَّ فسـادَ الـرأي أن تـترددا

لقد سـطر ذلك الرعيل الأول – رضي الله عنهم – أبلغ أنواع القوة والبسـالة، ولم يكن المقوقـس ملك مصر مبالغاً عندمـا وصف فاتحي مصـر بقوله: (لو اسـتقبلوا الجبال لأزالوها)[1]. ونظير هذا وَصْف أحد قادة النصارى شـجاعة الجيش الإسلامي الذي فتح الأندلس بقوله: (إنه نزل بأرضنا قوم لا ندري أمن السماء نزلوا أم من الأرض خرجوا؟)[2].

ثانياً: أن القدوة هي أساس التحفيز؛ فعندما يكون القائد في مقدمة الصفوف؛ فـإن أصحابه لن يترددوا بالاقتداء به والسـير على منهاجه، وشـخصية القائد لهـا أثر كبير في استشارة الهمة، واسـتنهاض البطولة. والقادة إنما يتميزون وتظهر معادنهم في وقت الشدائد والكرب.

ثالثـاً: الثقة بنصر الله وتأييده، واليقين بموعود الله – عز وجل – لأوليائه، كما قال الله – تعالى –: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّـهَ لَقَـوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله – سـبحانه –: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

رابعاً: أن البغي والوقوع في المعاصي من أشدِّ الأدواء التي تؤخر النصر، وتجلـب الهـزيمة والخسـار. وأهـل الإيمـان لا يقاتلون بسلاحهم فحسـب؛ وإنما يقاتلون بطاعاتهم، كما قال أبو الدرداء – رضي اللـه عنه – لبعض أصحابه: (عملٌ صالح قبل الغزو؛ فإنكم إنما تقاتلون بأعمالكم)[3].

إن استشـعار خطـورة المعاصي على الدعـوة، من أهم الأسباب التي تعين على تجاوزها والتوبة منها، كما أن الغفلة عنهـا أو التهـوين مـن شـأنها، يبنـي صفوفاً هزيلـة ضعيفـة لا تقوى على حمل الراية بحقها.

والعجيـب أننا فـي كثير من الأحيان نتسـاءل: لماذا يتأخر النصر؟ ولماذا يستمر بغي الأعداء وتطاولهم علينا؟ ولماذا لا تحقق بعضُ مشاريعنا الدعوية مبتغاها؟

والأعجب من ذلك أننا نجيب على ذلك بسُنة الابتلاء، وهذا جزء من الجواب بلا شـك؛ لكن هناك سـنن أخـرى لا بد من اسـتحضارها، منها: أننا بذنوبنا ومعاصينا نسـتجلب الهزيمة ونرسم طريق الإخفاق، وصدق المولى – جل وعلا –: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

المجلس الثاني: السلامة مع الناس:

بعد أن اسـتقر لسـعد – رضي الله عنه – إسقاط دولة فارس، وفتـح العراق، ابتنـى مدينة الكوفة، ونـزل بها مع أصحابه، لكن الغريب أن بعض أهل الكوفة شَـكَوه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في أمر عجيب جداً، فزعموا: (أنه لا يحسن يصلي)[4].

يا لله! أحد العشرة المبشرين بالجنة، لا يحسن يصلي، ما أعظمها من فرية!

لقـد أدرك عمر – رضي الله عنـه – بفطنته وعبقريته، ومعرفته بسـعد أن هذا افتراء، لكن بصفته أميراً للمؤمنين كان واجبه أن يتثبت، فأرسـل إلى سعد يسأله عن ذلك بكل لطف ومحبة: (يا أبا إسحاق! إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي؟ قال أبو إسـحاق: أمَّا أنا – والله – فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ ما أخرم عنها، أصلي صلاة العشاء فأركـد في الأوليين، وأُخفف فـي الأخريين. قال عمر: ذلك الظن بك يا أبا إسحاق)[5].

لكـن عمر لمزيد من التحري والتثبت، أرسـل معه رجلاً، فسأل عنه في الكوفة، ولم يدع مسجداً إلا سأله عنه، ويثنون معروفاً، حتى دخل مسجداً لبني عبس، فقام رجل منهم يقال له أسـامة بن قتادة قال: (أمَّا إذ نشدتنا عنه، فإن سعداً كان لا يسير بالسرية، ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية).

سبحان الله! أكُل هذا في من فداه رسول الله ﷺ بأبويه، وبشره بالجنة؟

ألا ما أقبح الظلم والبغي!

---

(١) المواعظ والاعتبار للمقريزي: (١/ ٣٦٥).

(٢) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: (٢/ ٨). ومن الأشياء المحزنة أن قائداً نصرانياً آخر وصف أهل الأندلس إبان سقوطها بقوله: (إن القوم لا دين لهم، ولا شجاعة، ولا عقول)، المرجع السابق: (٣/ ٩٠)، وبالمقارنة بين الحالين يتبين لنا كيف تسود الأمم، وكيف تسقط.

(٣) أخرجه: عبد الله بن المبارك في كتاب الجهاد (ص٦١). وبوب له البخاري في كتاب الجهاد من صحيحه، فقال: (باب: عملٌ صالح قبل القتال، وقال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم): (٦/ ٢٤).

(٤) أخرجه: البخاري في كتاب الأذان، (٢/ ٦٥١)، رقم (٧٥٥).

(٥) المرجع السابق.

لما سمع سعد هذا الظلم قال: (أما والله لأدعونَّ بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً، قام رياءً وسمعةً؛ فأطل عمره، وأطل فقره، وعرضه للفتن. وكان بعدُ إذا سئل يقول: شيخ كبير مفتون، أصابتني دعوة سعد)[1].

ومن حكمة عمر - رضي الله عنه - أنَّه عزل سعداً درءً للفتنة في المجتمع، وقطعاً لمادة الجدل والقيل والقال، لكنه حفظ لسعد مكانته وقدره، فلمَّا طعن، جعله في أهل الشورى الستة، وقال: (... فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذلك، وإلا فليستعن به أيكم ما أُمِّر، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة)[2].

عجيب أمر أولئك القوم الذي يتطاولون على الصحابة - رضي الله عنهم - ويجرحونهم بالباطل، ويفترون عليهم إثماً وعدواناً. وانظر كيف يتناسون تلك المناقب العظيمة، وذلك التاريخ الحافل بالبطولة والجهاد ونصرة الدين!

إنَّ ثمة درساً مهماً ها هنا، وهو: أن هذا البغي والاعتداء إذا حدث في حق سعد - رضي الله عنه - وأمثاله من الصحابة - رضي الله عنهم - فمن باب أَوْلى حدوثه في حق من جاء بعدهم من أهل العلم والدعوة والفضل، وبعض الناس ممَّن رقَّت ديانتهم، وقلَّ خوفهم من الله - تعالى - قد يطلق لسانه، ويجرح العلماء والدعاة، ويتتبع سقطاتهم، وربما افترى عليهم كذباً وزوراً، وفي أمثال هؤلاء يقول الله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

واشتد نكير النبي ﷺ عليهم في قوله: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه! لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيِّروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته؛ يفضحه ولو في جوف رحله»[3].

وممَّا يعزي الصالحين من علمائنا ودعاتنا ممَّن انتهكت أعراضهم بالقيل والقال، أن من زكاهم رسول الله ﷺ، واجمعت الأمة على إمامتهم وجلالتهم، قُدح فيهم، ولم يَسلَموا من الناس؛ فكيف بمن هو دونهم في الديانة والعلم؟

لكن ألا يخشى أولئك المتطاولون أن تنالهم دعوة كدعوة سعد، رضي الله عنه؟

ومن جميل ما يؤثر أنَّ الحسن بن سفيان - وهو من أئمة المحدثين - قال لأحد تلاميذه بعد أن أثقل عليه: (اتق الله في المشايخ، فربما استجيبت فيك دعوة)[4].

(١) المرجع السابق.
(٢) أخرجه: البخاري في كتاب فضائل الصحابة (٨/٤٠٤)، رقم (٣٧٠٠).
(٣) أخرجه: الترمذي في كتاب البر والصلة، رقم (٢٠٣٢). وحسنه الألباني في غاية المرام (ص ٢٤٠).
(٤) سير أعلام النبلاء (١٤/١٥٩)، وتذكرة الحفاظ (٢/٧٠٥).

المجلس الثالث: اعتزال الفتن:

لمَّا ثارت الفتنة بين الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - اعتزل كثير من أئمة الصحابة - رضي الله عنهم - كلا الفريقين وفي مقدمة هؤلاء: سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأبو هريرة، رضي الله عنهم.

وتأمل تلك الحياة الحافلة بالجهاد والتضحية؛ فسعد منذ نعومة أظفاره وهو في أول صفوف المجاهدين، وقائد عظيم من قاداتهم، أفنى شبابه وشيخوخته في الرباط والإقدام والبذل في سبيل الله، لكنه لمَّا رأى الفتنة أغمد سيفه واعتزل الناس، فلم يحضر معركتي الجمل وصفين ولا التحكيم[5]، وكان من المتوقع أن يأتي إليه الناس يسألونه؛ فساحة الحرب هي ساحته التي كان يصول فيها ويجول، لكنه قال بكل وضوح: (جاهدت وأنا أعرف الجهاد، ولا أبخع نفسي إن كان رجلاً خيراً مني، لا أقاتل حتى يأتوني بسيف له عينان ولسان، فيقول: هذا مؤمن، وهذا كافر)[6].

ومن ورعه - رضي الله عنه - أنه اشتغل بدوابه بعيداً عن الفتنة، وحدَّث ولده عامر بن سعد فقال: كان سعد بن أبي وقاص في إبله، فجاءه ابنه عمر، فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فنزل، فقال له: أنزلتَ في إبلك وغنمكَ وتركتَ الناس يتنازعون الملك بينهم؟ فضرب سعد في صدره، فقال: اُسكت! سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقي، الغني، الخفي»[7]. وفي رواية قال لابنه: (أي بني! أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأساً؟ لا والله حتى أعطى سيفاً إن ضربت به مؤمناً نبا عنه، وإن ضربت به كافراً قتله، سمعت

(٥) سير أعلام النبلاء (١/١٢٢).
(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد: (٣/١٤٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/٩٤)، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٢٩٩) إلى الطبراني في الكبير، وقال: (رجاله رجال الصحيح)، وهو كما قال، لكن في سنده انقطاع، وله شواهد يرتقي بها.
(٧) أخرجه: مسلم في كتاب الزهد والرقائق (٤/٢٢٧٧)، رقم (٢٩٦٥)، وقال الترمذي: (المراد بالغني: غني النفس، هذا هو الغني المحبوب لقوله ﷺ، ولكن الغنى غنى النفس، وأشار القاضي إلى أن المراد: الغنى بالمال)، شرح صحيح مسلم: (١٨/١٠٠).

رسول الله ﷺ يقول: «إن الله – عز وجل – يحب الغني، الخفي، التقي»[1].

ومع أنه اعتزل كلا الفريقين في الفتنة إلا أنه كان ينهى عن الوقوع في الصحابة – رضي الله عنهم – فعن ابن المسيب: أن رجلاً كان يقع في علي وطلحة والزبير، فجعل سعد ينهاه ويقول: لا تقع في إخواني! فأبى، فقام سعد وصلى ركعتين ودعا، فجاء بُختي (نوع من الجمال) يشق الناس، فأخذه بالبلاط، فوضعه بين كركرته والبلاط حتى سحقه، فأنا رأيت الناس يتبعون سعداً يقولون: (هنيئاً لك يا أبا إسحاق: استجيبت دعوتك)[2].

هذا الموقف العظيم في زمن الفتنة يرسم منهاجاً عملياً للمسلم في كل زمان، من معالمه:

أولاً: حينما يطلب سعد – رضي الله عنه – سيفاً له لسان يخبره عن المسلم ليُعرِض عنه وعن الكافر ليقتله، فإن هذا يدل على الخوف الشديد من الوقوع في ورطة الدماء[3]؛ ففي زمن الفتن وكثرة الهرج واختلاط الرايات، فإن الحكمة تقتضي أن ينأى المرء بنفسه عنها، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[4].

والانزواء في وقت الفتن ليس جبناً أو ضعفاً، بل هو عين الحكمة التي يسلم بها المرء من الوقوع في المشتبهات. وليس هذا خاصاً بالفتن السياسية أو في وقت الاحتراب بين الناس، بل هذا هو منهج الصالحين في جميع الاختلافات المتشابهات التي تحدث بين العلماء أو الدعاة أو التجمعات الإسلامية.

ومن الملحوظات المهمة أن بعض الجهلة ومرضى القلوب يغيب في وقت العمل الواضح البيِّن المتفق عليه، ولا يظهر إلا في وقت الفتن – والعياذ بالله تعالى – وهذا من أعظم الخذلان وقلة التوفيق، وقد قال علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – لأحد دعاة الفتنة: (لقد كانت الجماعة فكنت فيها خاملاً، فلما ظهرت الفتنة، نجمتَ فيها نجوم قرن الماعز)[5].

ثانياً: فرَّق سعد – رضي الله عنه – بين رايتين عظيمتين: راية الجهاد التي عرفها وضحى في سبيل الله من أجلها، ورايــة الفتنة. فراية الجهاد هي الراية الصافية التي تتمايز بها الصفوف، ويشرق فيها وجه الحق، وهي التي يتقرب بها الصالحون لنيل مرضاة الله، تعالى. ورايــة الفتنة هي التي يغيب فيها الهدف، وتختلط بها الأهواء، وتشوبها شوائب الضلالة.

ثالثاً: لم يكن سعد – رضي الله عنه – من طلاب المُلْك، المتطلعين إلى السؤدد والشرف الدنيوي، بل كان من الأخفياء طلاب الآخرة. ومعادن الرجال لا تظهر في وقت الرخاء؛ بل تتميز في وقت الشدائد اضطراب الأمور.

وسعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – يضرب ها هنا أنموذجاً يحتذى به في السمو التربوي والنزاهة الأخلاقية التي ينبغي أن تتربى عليها الأجيال؛ فالربانيون من المصلحين لا يرجون إلا الله والدار الآخرة، مهتدين في ذلك بهدي الأنبياء، صلى الله عليهم وسلم. قال الله – تعالى –: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، وقال – تعالى –: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ذئبان جائعان أُرسِلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[6].

رابعاً: من فقه سعد – رضي الله عنه – أنه اعتصم بالنص الشرعي، فموقفه ليس رأياً محضاً رآه، بل هو اجتهاد بناه على هدي النبي ﷺ، وهنيئاً لمن لزم السُّنة، وانتهى لما سمع[7].

وأخيراً:

فإن استعراض سيرة الصحابة – رضي الله عنهم – ليست درساً من دروس التاريخ، أو تمجُّداً بأخبار الماضيين فحسب، بل هو استلهام لجوانب القدوة في سِيَرهم، واهتداء بأخلاقهم وآدابهم السامقة، وتجديد لمعاني التربية في واقعنا المعاصر، وردٌّ على أهل الأهواء الذين يتنقصوهم أو يجرحونهم. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٢)، رقم (١٥٢٩)، وصححه الأرنؤوط.
(٢) نسبه الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٥٤) إلى الطبراني، وقال: (رجاله رجال الصحيح)، ورواه الذهبي بإسناده في سير أعلام النبلاء (١/ ١٦٦) وقال: (ولهذه الواقعة طرق جمة رواها ابن أبي الدنيا في مجابي الدعوة).
(٣) قال عبد الله بن عمر – رضي الله عنه –: (إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها: سفك الدم الحرام بغير حله). أخرجه: البخاري في كتاب الديات، رقم (٦٨٦٣).
(٤) أخرجه: البخاري في كتاب الإيمان، رقم (١٠)، ومسلم في المقدمة، رقم (٤١).
(٥) سير أعلام النبلاء: (١/ ١٢٠).
(٦) أخرجه: الترمذي في كتاب الزهد، رقم (٢٣٧٦)، وقال: (حسن صحيح). وصححه الألباني في صحيح الترمذي رقم (٢٣٧٦).
(٧) اقتباس من قول سعيد بن جبير – رحمه الله –: (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع). أخرجه: مسلم في كتاب الإيمان، رقم (٢٢٠).

الانتفاضات التي حيَّرت الغرب

أ. د. جعفر شيخ إدريس
jsidris@gmail.com

تُرى كيف ستكون سياسة الغرب مع العالم العربي بعد هذه الانتفاضات التي عمَّت كثيراً من بلاده، والتي أيَّد أهدافَها آخرون لم تحدث انتفاضات مثلها في بلادهم؟

إن الهدف الأعلى للغرب واضح، وهو: تحقيق كل ما يدخل تحت مسمى المصالح القومية: من اقتصاد، وسياسة، وإستراتيجيات، وأمن، وقوى مادية وناعمة للغرب ولا سيما الولايات المتحدة وإسرائيل. هذا الهدف لن يتغير وستسعى الدول الغربية بقيادة الولايات المتحدة كما سعت من قبل لتحقيق ما تستطيع منه بحسب الوسائل المتاحة في كل مرحلة تاريخية. كانت الوسيلة المفضَّلة هي التعامل مع حكام أفراد مستبدين يمكن إغراؤهم وكسبهم بكل أنواع الإغراءات. هذا النوع من الحكام كان مفضَّلاً لأن التعامل معه سهل لا تعقيد فيه، ولأنه يمكن أن تُبرَم معه كل أنواع الاتفاقات السرية التي يعلم الغرب ويعلم الحكام أن الشعوب سترفضها لو أنها اطلعت عليها. إنَّ كل هذا يتنافى مع الديمقراطية التي يفضلها الغرب لحكم نفسه. ولكن من قال: إن في الديمقراطية مبدأً خُلُقياً يُلزِم البلد الديمقراطي بأن يحب لغيره ما أحب لنفسه؟ إن الديمقراطية هي حكم الشعب، أو هي في الواقع حكم أكثرية نوابه في المجالس التشريعية، أو هي حكم المسؤولين الذين أعطاهم الدستور سلطات يقضون فيها بما يرونه في مصلحة شعوبهم. لكن النواب والمسؤولين - وربما كثير من أفراد الشعب - قد يقولون: نعم، إن الديمقراطية هي النظام المفضَّل لنا في بلادنا، ولكنها ليست هي التي تحقق مصالحنا إذا ما تبنَّاها غيرنا ولا سيما في العالم العربي. هكذا كان يقول بعض قادة الفكر السياسي الغربي في تسويغ ما يعدُّه العرب كيلاً بمكيالين.

لكن مشكلة الغرب أن هذه الحجة لم تعد - حتى بين الغربيين - حجة مقبولة يمكن التصريح بها والدفاع عنها. بل إن مساندة الحكام الدكتاتوريين صارت أمراً محرجاً للساسة الغربيين حتى في داخل بلادهم؛ ولذلك أرادوا أن يخرجوا من هذا الحرج باللجوء إلى وسائل، منها: كثرة الحديث عن الديمقراطية، والقول بأنها ليست مسألة خاصة بالثقافة الغربية؛ وإنما هي حاجة إنسانية صالحة لكل أمة في كل مكان. ومنها إقناع أبواقهم بأن يقوموا بإصلاحات تأخذ شكل الديمقراطية الغربية: انتخابات، مجالس تشريعية، أحزاب، صحف، وغير ذلك. لكن سرعان ما تبيَّن للناس في داخل البلاد التي يحكمها المتعاونون مع الغرب، وفي الغرب نفسه أن كل هذه أشكال زائفة للديمقراطية المعروفة في الغرب.

ثم تبيَّن للغرب كما تبيَّن للمواطنين في البلاد العربية أن النُّظم التي كانت تحكمهم ليست ديمقارطيات زائفة فحسب؛ وإنما هي نظم فاسدة أيضاً. والناس قد يصبرون على الحاكم المستبد أكثر من صبرهم على الحاكم الذي يرونه ينهب أموالهم ويظلمهم، وأكثرَ من صبرهم على الحاكم الكذاب الذي يخون الأمانة ويعقد اتفاقات سرية مع الأعداء.

إن معرفة الغرب بهذه الحقائق هي التي جعلته يسارع إلى تأييد ثورات الشباب واعتبار أهدافها من الأمور التي كان يدعو إليها، بل التي يعدُّها جزءاً من حضارته وثقافته ونُظُمه السياسية. كيف يعترض الغرب على ثورات تطالب بالحرية والديمقراطية والشفافية والمساءلة وتكوين الأحزاب وغير ذلك؟

لكن الغرب رغم هذا التأييد الظاهر الذي كان لا بد منه يظل حائراً إزاء هذه الأوضاع الجديدة في العالم العربي: ما السياسات الجديدة التي ستؤدي إليها الحريات التي طالب بها المتظاهرون إذا صارت أمراً واقعاً؟ كيف يمكننا أن نتعاون مع برلمانات مكونة من أحزاب شتى لكل منها تأثير مهما كان ضئيلاً على سياسة البلاد؟ كيف سنتعامل مع حكومات قد لا تستطيع أن تجعل اتفاقاتنا

معها باقية في حيز الكتمان في ظل المطالبة بالشفافية؟

ثم السؤال الأكبر: كيف سنتصرف وكيف ستتصرف إسرائيل مع أوضاع سيكون للتيارات الإسلامية فيها قوة وتأثير لا ريب فيه؟ لقد أظهرت هذه التظاهرات أن التيارات الإسلامية تزحف على كثير من الأراضي التي كانت تحتلها التيارات العَلمانية. إننا في الغرب لا نتصور أن تنطلق تظاهرات سياسية في القرن العشرين من أماكن للعبادة. لا نتصور - مثلاً - أن تنطلق تظاهرات سياسية من الكنائس بعد أداء القداس يوم الأحد. لكن هذا هو الذي حدث في العالم العربي في كل التظاهرات. لقد انطلقت كلها من المساجد وعقب صلاة الجمعة، بل إن أعداداً هائلة من المتظاهرين كانت تؤدي صلاة الجماعة في الميادين التي يطالبون فيها بالتغيير السياسي. والسلفيون الذين كانوا بعيدين عن السياسية قرروا الآن الدخول في حلبتها بشكل أو آخر. وهو أمر مقلق؛ لأنه سيزيد من قوة ما نسميه بالإسلام السياسي.

ماذا يفعل الغرب؟

هل يؤيد ما تطالب به ثورات الشباب من انتقال إلى نُظُم سياسية ديمقراطية؟ لكن هذا يثير مشكلات:

أولاها: أن الديمقراطية - كما يفهمها الغرب - مرتبطة ارتباطاً لا فكاك له بالعلمانية. إن الديمقراطية نظام يعطي السلطة التشريعية العليا للبشر؛ سواء كانوا أكثرية المواطنين أو أكثرية ممثليهم. لكن هذا في ما يبدو ليس هو الذي سيحدث في العالم العربي. كيف تكون السلطة العليا للبشر في بلد كمصر ينص دستورها على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام؟ إنه نص أقل ما يعنيه أن كل قانون مخالف لدين الإسلام سيكون قانوناً غير دستوري.

ثانيتها: أنه حتى لو افترضنا أن الديمقراطية صارت كما هو الحال في الغرب ديمقراطية عَلمانية، فإن أغلبية الشعب العربي الذى سيكون القرار في يده ليس شعباً متعاطفاً مع إسرائيل، كما أن أغلبية الشعب الإسرائيلي ليست متعاطفة مع العرب. وهذا يعني أن الدولة العربية الديمقراطية لن يكون من السهل عليها أن تنتهج السياسات التي يفضلها الغرب في العلاقة بين العرب وإسرائيل.

ثالثتها: أن الغرب حضارة وثقافة، وإن مما يخدم مصالحه أن تنتشر هذه الحضارة وأن تتبناها أكثر شعوب العالم؛ ولذلك تراهم يكثرون في هذه الأيام من الحديث عن كسب العقول والقلوب، ويحاولون جاهدين أن يُبرزوا كل مكوِّن من مكونات ثقافتهم على أنه ليس أمراً ثقافياً خاصاً بالغرب؛ وإنما هو قيمة إنسانية صالحة، بل لازمة للبشر كلهم. وهم يرون أنه بالرغم من أن الشعوب الإسلامية قد تأثرت تأثراً كبيراً كما تأثر غيرها بالثقافة والقيم الغربية؛ إلا أنها ظلت أكثر أمة مستعصية على الانفتاح الكامل لكل قيم لا تتناسب مع دينهم، ويستشهدون على ذلك بصمود المسلمين في وجه الزحف الأيديولوجي الشيوعي.

لكن إذا كانت الانتفاضات الشبابية قد أخذت بعض السمات الدينية، فهذا يعني أنه سيكون للصوت الديني أثر قوي في الدولة الديمقراطية.

نكرر السؤال إذن:

ماذا يفعل الغرب؟

أولاً: سيستمر في دعوته إلى الديمقراطية وتأييدها لكنه سيحاول سَوق حكوماتها ما أمكن إلى الطرق التي تؤيد مصالحه. فهم الآن يؤيدون رحيل القذافي؛ لأن هذا أصبح مطلباً شعبياً عامّاً لا قِبَل لأحد بمعارضته، لكن هذا لا يعني الوقوف مع الثوار بمعنى تمكينهم من أن يكونوا هم الحكام الذين يخلُفُون القذافي. وقد حذر بعضهم فعلاً من عدم التعجل في تأييد الثوار قبل معرفة حقيقتهم. هذا بالرغم من أن قادة الثورة المعترف بهم حتى الآن يصرحون بأن الدولة التي يريدونها هي دولة مدنية (أي غير دينية)، وأنها ستكون دولة تعددية، إلى آخر الأوصاف التي يرضى عنها الغرب.

وسيفعلون الشيء نفسه بالنسبة لتونس. ومما يساعدهم على ذلك: أنه رغم قوة التيار الإسلامي هنالك؛ إلا أنه ليس في قوة التيارات الإسلامية المصرية، وأن التيارات العَلمانية لها تاريخ طويل في البلاد.

ثانياً: سيستمرون في سياستهم المؤيدة للجماعات والأحزاب والاتجاهات العَلمانية أو الأبعد فالأبعد منها عن التوجه الإسلامي، ودعمها بالمال والدعاية والتدخل لتمكينها من التأثير السياسي والثقافي.

ثالثاً: سيلجؤون إلى الضغوط الاقتصادية والسياسية لفرض السياسات التي يريدونها كما يفعلون ذلك الآن مع بعض البلاد التي لم تخضع لهم الخضوع الذي يريدونه.

رابعاً: ماذا سيحدث إذا لم ينجح هذا كله؟ إن الغرب لن يتنازل بالطبع عن أهدافه الكبرى. وإذا رأى أنه لاخيار له إلا بين ديمقراطية لا تحقق أهدافه، ونظم استبدادية يأمل أن تحققها فلن يتردد في اللجوء إلى الخيار الثاني. وسيجد أن لديه وسائل كثيرة لإفشال الديمقراطيات التي لا يريدها وتيئيس المواطنين منها وجعلهم يقبلون غيرها؟

ولكن: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

بين الأصل والاستثناء

فهد بن صالح العجلان
Fsalehajlan@hotmail.com

تأمَّلوا معي - إخوتي وأخواتي - في النماذج التالية؛ وهي نماذج شائعة في أوساطنا الثقافية:

١ - إذا دخلت الزوجة في الإسلام، وما يزال زوجها باقٍ على كفره، فلا يجب عليها مفارقته؛ لأن المحرَّم هو ابتداء النكاح مع الكافر وليس استمراره؛ لأنَّه سيؤدي إلى ترك المرأة للإسلام.

٢ - حرية الرأي مكفولة في النظام السياسي؛ فمن حق أي أحد أن يعبِّر عن أي رأي مهما كان؛ ما دام أنه لم يعتدِ فيه على أحد؛ لأننا لا نستطيع أن نمنع الآراء، ولو أردنا المنع فالخاسر هم الإسلاميون.

٣ - الحجاب ليس واجباً على المرأة؛ لأنَّه يسبب لها عدداً من المضايقات والاعتداءات المختلفة.

ستلاحظون معي وجود فجوة منهجية ظاهرة في سياقات هذه النماذج، وهي: أن الشخص يخلط بين الحكم الشرعي في حال (الاختيار والسعة والقدرة)، والحكم الشرعي في حال (الضرورة والحرج أو عدم الاستطاعة)؛ فيتحدث عن الحكم الشرعي في حال الاختيار، ويستدل لذلك بأحوال الضرورة، فيتعامل معها على أنَّها درجة واحدة بينما هما في الحقيقة درجتان متباينتان: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٩٩].

إنها ظاهرة الخلط بين «الأصل» و «الاستثناء»، تتشابك معها القضايا في ذهن المتحدث فيُدخِل في أحكام الشريعة أموراً ويبرهن عليها ويكون دليله على ذلك النظرَ في حالات الضرورة. والمنهجية الصحيحة أن يقرر أولاً الحكم الشرعي الأصلي الذي يريده الله ويريده النبي ﷺ، ثم يتحدث بعدها عما يطرأ في الواقع من حالات ضرورة أو حاجة معيَّنة تعطي نوعاً من الاستثناء للحكم لا أن تتداخل؛ فلا يعلم القارئ هل هو أمام حكم (استثنائي خاص) أم حكم (شرعي دائم)؟

فحين يتكلم الشخص أو يؤلِّف عن «الحريات في الدولة الإسلامية» فيجب عليه أولاً أن يوضِّح حدود الحريات في الشريعة بحسب دلائل الشريعة وأحكامها، ثم يقرر كيفية تطبيق ذلك في الواقع لا أن يكون الواقع هو الذي يفرض عليه الحكم، ويكون دوره بعدها في تتبُّع الشواهد والنصوص المسانِدة.

هل معنى هذا أن لا يكون للواقع أي تأثير على الحكم؟

لا قطعاً؛ فحين يجد الباحث أن هذا القول لا يمكن تطبيقه في الواقع فيجب الاجتهاد وبذل الوسع في اختيار الموقف المناسب، فيكون ثَمَّ درجتان في النظر: نظر في الحكم الشرعي ابتداءً، ونظر في حالات استثنائية طارئة للحكم.

إن حال من يخلط بينهما كحال من يُسأل عن حكم السجود للأصنام؟ فيقول: جائز؛ لأن عدم سجودك سيؤدي بك إلى الهلاك! أو يقول عن شرب الخمر: إنه مباح؛ لأن من لم يتداوَ به سيموت؟ أو يكتب: إن سرقة الماء جائزة لئلا تموت عطشاً؟ فعلى منوال هذه الأمثلة الظريفة تتضح إشكالية دمج الأصل والاستثناء في حالة واحدة.

وأكثر ما تكون هذه الظاهرة حضوراً في موضوعات (النظام السياسي)؛ حيث يقف بصرك متحيِّراً أمام بعض التقريرات الفقهية؛ فلا تدري هل الحكم فيها متعلق ببيان الحكم الشرعي ابتداءً، أم هو حالة ضرورة؟ لأن الباحث يبدأ فيها بذكر الحكم،

ثم يسوق الدلائل والبراهين المتعلقة بالضرورات.

ومن الأمثلة الواضحة هنا: أن من ينظر في فلسفة الحريات في الإسلام فسيجد أن حرية نشر الكفر والضلال لا يمكن أن تكون مكفولة في النظام السياسي، وهو قول خارج عن التفكير الفقهي بتاتاً، بل قال شيخ الإسلام ابن تيمية فيه: «وإظهار الطعن في الدين لا يجوز للإمام أن يعاهدهم مع وجوده منهم؛ أعني مع كونهم ممكَّنين من فِعله إذا أرادوا. وهذا مما أجمع المسلمون عليه؛ ولهذا بعضهم يعاقِبون على فعله بالتعزير. وأكثرهم يعاقِبون عليه بالقتل. وهو مما لا يشك فيه مسلم؛ ومن شك فيه فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»[1]. فالقول بترك أهل الذمة يطعنون في الدين يعتبر ردَّة عن الإسلام في نظر شيخ الإسلام ابن تيمية، وما علم - رحمه الله - أن هذا القول سيصبح في زماننا من الأقوال المعروضة رأياً فقهياً يُستَدَل له بنصوص الكتاب والسُّنة. والحجَّة الثابتة هي عدم الاستطاعة[2]!

ما المشكلة في هذا؟

هب أنهم خلطوا بين «الأصل» و «الضرورة» في بيان الأحكام الشرعية فكان ماذا؟

في هذا إشكالات عدة:

الأول: تحريف المفاهيم الشرعية: فالضرورة حالة استثنائية في واقعة معيَّنة وليست هي الحكم الشرعي ابتداءً، وحين يخلط الشخص بينهما فإنه يمارس تحريفاً للشريعة؛ فيقرر من الشريعة ما ليس منها، ويتقوَّل على الله بلا علم.

الثاني: تغيير مسار الإصلاح: فبدلاً من قيام المصلح الإسلامي بمهمة تحريك الناس ودفعهم نحو سيادة الشريعة التي يَصلُح بها شأن دينهم ودنياهم، ينقلب الحال ليكون الدور قائماً على محاولة تخريج الشريعة وإدراجها ضمن الواقع المتاح، فيكون الحاكم في قضايانا هو (الممكن والمتاح) وليس (مرجعية الشريعة).

حين تسود مفاهيم «الضرورة» و «الاستثناء»؛ حتى تكون لدى الناس هي المفاهيم الشرعية الثابتة، ويُبحَث لها عمَّا يجعلها هي الأصل فإن هذه عملية انقلاب كاملة للمنهج الإسلامي.

الثالث: مخالفة فقه الضرورات: وهو القائم على التأكد أولاً من وجود الضرورة والاستثناء، وبعدها يكون حالها على منهجية (الضرورات تقدَّر بقدرها)؛ فتكون خاصة في المكان أو الزمان المعيَّنين، ومن ثَمَّ فلن تعمَّم على جميع المجتمعات، ولن تبقى دائماً؛ بل لا بدَّ من إصلاح الوضع لإزالة هذا الحكم الاستثنائي.

الرابع: إضافة مفاهيم ومعانٍ جديدة إلى الشريعة: لأن الشخص يعامل الضرورات كالأحكام الثابتة فيُدرج مفاهيم الضرورة لتكون جزءاً من أحكام الشريعة ومقاصدها، فيُدخِل في نسيج الفقه الإسلامي أحكاماً لم تكن معروفة من قَبْل؛ لأنها روعيت في حالة الضرورة حتى أصبحت أصلاً، ومن آثار هذا أن أصبح بعض المفكرين الإسلاميين حين يفسِّر بعض الآيات القرآنية يعرض معناها على قولين: قولِ المتقدمين وقولِ بعض المعاصرين. فأصبح ثَمَّ تغيُّر وتحوُّل في المفاهيم الشرعية؛ حتى أصبحت الشريعة مفرَّغة من أي إلزام أو منع أو إكراه لا ترضى عنه الحريات المعاصرة، ولو رجعت بالقراءة قليلاً قرناً أو قرنين فإنك ستلحظ مثل هذه التفسيرات معدومة تماماً في أي مواقع فقهية سابقة؛ لأنها - باختصار - مفاهيم دخلت من بوابة الضرورة فصارت جزءاً من نسيج الفقه الإسلامي.

هل هذا يعني أن يتمسَّك الشخص بالأصل دائماً ولا يلتفت للمتغيرات المعاصرة؟

كلا، فالمتغيرات الهائلة والنوازل المتلاحقة تتطلَّب اجتهاداً وبحثاً ودراسة متتابعة؛ تراعي الأحوال وتضع لكلِّ حالة حكمَها المناسب. وإذا كان من يخلط بين الأصل والاستثناء مخطئاً لكونه سحب أحكام الضرورة حتى صارت هي الأصل، فإن من يترك واجب الاجتهاد في الوقائع المتجددة مخطئ أيضاً؛ لأنه لم يحكم في القضية بحكمها الشرعي الصحيح.

إن الأحكام الشرعية أمانة في عنق كل من ينطق بها. والهمُّ الأول الذي يجب أن يكون نَصْب عينيه هو في الوصول إلى الأحكام الشرعية التي يريدها الله - تعالى - وأن يجتهد غاية الاجتهاد في تحديد حكم الشريعة؛ ليعرف كيف يجيب اللهَ عنها يوم يلقاه، وكلُّ صعوبات الواقع وإحباطاته وإحراجات المخالفين وضغوط القوى المختلفة وكافة هذه الإشكالات لا يجوز أن تكون سبباً للتهاون أو التخفُّف من المعايير العلمية والمنهجية لتحرير الأحكام الشرعية؛ فالواجب بيان الحكم الشرعي تحديداً، وأما مجريات الواقع وتوقُّعاته فهي بيد الله؛ يقلِّبها كيف يشاء.

(١) الصارم المسلول ٢٢٠

(٢) ذهب جمع من المعاصرين إلى أن الحرية في النظام السياسي الإسلامي تتّسع لكافة الآراء مهما كانت مصادمة للشريعة أو قادحة فيها، انظر على سبيل المثال: الحريات العامة في الدولة الإسلامية للدكتور راشد الغنوشي ٧٨/١

الشيخ مولاي عمر بن حماد

(نائب حركة التوحيد والإصلاح) في حوار خاص مع البيان:

ليس من سبيل غير المبادرة إلى الإصلاح

أجرى الحوار: جلال الشايب

لا يخفى على العاقل ما يشهده الواقع العربي من تغيرات جذرية في شتى مناحي الحياة؛ فلقد جاءت الثورات العربية المتعاقبة لتعمل بكامل طاقتها، على اختلاف ظروف البلاد والعباد، فسارت في مصر وتونس في اتجاه صحيح، في ظل مناخ مفعم بالأمل، وانتخابات حرة تلوح في الأفق؛ كاد العباد أن ينسوا مثلها، لكن في المقابل هناك من الحكام من استعدوا شعوبهم كما هو حاصل في ليبيا واليمن وسوريا، وأسقطوا دولهم في أتون الأحزاب والصراع الداخلي.

فالمعضلة الآن ليست في حدوث ثورة أو تغيير، ولا هي حتى في حرب المصطلحات المستجدة؛ وإنما في كيفية الخروج من أزمة تلك الثورات. فلا شك أن البلاد العربية الآن تمر بأزمة واقعية حقيقية؛ ولذا كان حوار مجلة البيان مع الشيخ الدكتور مولاي عمر بن حماد (أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة المحمدية - المغرب) للوقوف على رأيه حول ما يجري في الأراضي العربية الآن، ولمعرفة سبل الخروج من هذه الأزمات الطاحنة.

تعريف موجز بالضيف الكريم:

هو الدكتور مولاي عمر بن حماد، أستاذ علوم القرآن والتفسير بكلية الآداب جامعة الحسن الثاني بالمحمدية المغرب، حاصل على دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية عبر أطروحة حول «علم أصول التفسير: محاولة في البناء» سنة ٢٠٠١م بجامعة الحسن الثاني بالمحمدية، ودبلوم الدراسات العليا حول تحقيق جزء من كتاب «الهداية إلى بلوغ النهاية» في التفسير لمكي بن أبي طالب، سنة ١٩٩٢م جامعة الحسن الثاني بالمحمدية. والإجازة كانت في الدراسات الإسلامية سنة ١٩٨٦م بجامعة مولاي إسماعيل بمكناس.

وهو النائب الأول لرئيس حركة التوحيد والإصلاح بالمغرب، ومسؤول قسم الدعوة بها، كما أنه المسؤول عن المركز الجامعي للأبحاث والدراسات القرآنية بجامعة المحمدية، وعضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، ورابطة علماء المغرب، وجمعية خريجي الدراسات الإسلامية، وفضيلته عضو الكتابة التنفيذية لمؤسسة المهدي بن عبود للبحوث والدراسات والإعلام.

فنبدأ الحوار مع **فضيلته بالترحيب به على صفحات البيان:**

البيان: ما هي قراءتكم للأحداث الجارية في دول العالم العربي، في ظل ثورات عربية متواكبة؟

الشيخ مولاي عمر بن حماد: بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد: فأشكر لمجلة البيان هذه المبادرة سائلاً للقائمين على هذا المشروع الإعلامي الإسلامي المتميز كل التوفيق، وهذا وقت «البيان»، ولا يجوز تأخير «البيان» عن وقت الحاجة. وبخصوص الأحداث الجارية في دول العالم العربي فلقد تعددت القراءات، ومع ذلك فمما يكاد يكون من المجمع عليه الاستبشار بهذه الأحداث على أنها عودة الروح لهذه الأمة، روح المقاومة والعزة والكرامة ورفض للفساد والاستبداد الذي عمَّر طويلاً في بلادنا العربية. ومما ميَّز هذه الأحداث كذلك عنصر المفاجأة؛ فلو سألت عن حجم التطورات وسرعتها قبل مدة فلا أحد كان يستطيع أن يدَّعي علمه بأن الأمور ستسير بالإيقاع الذي سارت به نفسه، ولا ستحقق النتائج التي حققتها.

البيان: هل ترى أن دوافع الثورات العربية الحالية تعود إلى أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية وأمنية؟

الشيخ مولاي عمر بن حماد: بكل تأكيد الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية كلها تضافرت وأعطت هذه الحالة التي تعيشها الأمة العربية. فحالة الانسداد السياسي التي تعرفها بلادنا العربية خاصة في الحالات التي يقود البلاد فيها الحزب الواحد؛ سواء سُمي حزباً واحداً، أو لم يسمَّ كذلك، وسواء أقرَّ بباقي الأحزاب أم نفاها وما يترتب على ذلك من تزوير للانتخابات وإقصاء وإضعاف لباقي الشركاء السياسيين. وفي غالب الأحوال يحيط الحاكم نفسه بجماعة من المتملقين الذين يزينون له كل سعي ويحجبون عنه كل نصح. ويترتب على الفساد السياسي فساد اقتصادي يتجلى عادة في الغنى غير المشروع، وتكديس للثروات عبر نهب المال العام، والتلاعب بكل الصفقات العمومية، والتطاول على خيرات البلاد فتتحول الفئة الحاكمة إلى شيء أشبه ما يكون بعصابة فوق القانون.

ويترتب على هذا الفساد السياسي والاقتصادي فساد اجتماعي بانتشار أحزمة البؤس في طول البلاد وعرضها، وتتضاعف أعداد المعطَّلين، وتتسع الفوارق الاجتماعية، ويحمي هذا الفساد متعددَ المظاهرِ أجهزةٌ أمنية تسعى في توفير الأمن للمفسدين عوض توفير الأمن والحماية للمواطنين، وتحمي هذا الفساد أيضاً وسائل إعلام دَورُها تزييف الحقائق وتسويق الأباطيل واستفراغ الوسع في التضليل عوض استفراغه في التنوير. ويضاف إلى ذلك كله أزمة العدل والقضاء المستقل.

البيان: نحن الآن في وجه غضب شعبي عارم على بعض السياسيات الحكومية؛ فما الطريق الأمثل للتعامل مع هذا الغضب؟

الشيخ مولاي عمر بن حماد: ليس هنالك من سبيل غير المبادرة والمسارعة إلى الإصلاح العميق والشامل والحقيقي. وكل محاولة للتجاهل قد فات أوانها، ومثلها كل محاولات التسكين عبر توزيع «رُشاً» تحت مسميات متعددة، ومثلها محاولات التخوين بنسبة الأمر إلى مؤامرات خارجية. وأبشع من كل ما سبق محاولات الإسكات عبر القمع والترهيب وبث الرعب. ولا يبقى في مقابل ذلك إلا الإنصات لصوت الشعب بكل فئاته – وخاصة الشباب – والاستجابة الفعلية للمطالب المشروعة، وإطلاق مبادرات عملية لإعادة الثقة ولإضفاء المصداقية على كل الخطوات الأخرى.

البيان: ماذا تنصحون التيارات الإسلامية المختلفة في تلك الدول للتعامل مع إشكاليات العصر والوضع الراهن؟

الشيخ مولاي عمر بن حماد: التيارات الإسلامية المختلفة معنية – بلا شك – بكل ما يجري في بلداننا، ووضعها الطبيعي أن تكون في قلب هذه الأحداث موجِّهة ومتفاعلة. إننا نمر بأحد المفاصل التاريخية وكلُّ تردُّد في الحضور سيجعل عملية اللحاق صعبة أو مستحيلة. إن القرارات يتخذها الحاضرون، هذا مع استحضار مستويات الحضور المتعددة وأشكاله المختلفة بحسب ما تقتضيه كل حالة .

إن التيارات الإسلامية المختلفة هي الأقرب بشكل عام لصوت الشعوب، وميزتُها في رصيدها من المصداقية؛ وهو ما يجعلها مؤهلة لقيادة المرحلة. ولعل ارتباط أغلب الثورات بيوم الجمعة أحد تجليات هذا الارتباط. وبالمقابل فهذه الأحداث فرصة للتيارات الإسلامية للقيام بالمراجعات المطلوبة، ومن ذلك إعادة ترتيب بعض المسلَّمات التي بنت عليها مشاريعها، وكذا مراجعة موقع الشباب، والعلاقة مع باقي المكونات المجتمعية، والعمل على تنمية دائرة المشترك.

البيان: ما الذي يمكن للعلماء والمصلحين تقديمه للشعوب العربية في وقت الثورات؟

الشيخ مولاي عمر بن حماد:

العلماء والمصلحون عندهم أشياء كثيرة يقدمونها للشعوب وللحكام أيضاً؛ إنها فرصة لإعادة الالتحام بالشعوب بآلامها وآمالها، إنها لحظة للتوجه للشعوب بالترشيد والتوجيه وللحكام بالنصح المبين، والأمة بحاجة لجملة من الأحكام في حفظ الحقوق والأموال والأعراض وتخليص الناس من نفسية الانتقام أو التوسع في الاتهام كما قال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة : ٨].

لقد كانت هذه الثورات محطة تميَّز فيها علماء بحضورهم وانكشف آخرون بمزيد من ميلهم إلى جهة الباطل وأهله والأمثلة كثيرة في الطرفين.

البيان: لماذا يظهر العرب دائماً غير قادرين على بناء مشروعهم الوحدوي والتضامني؟

الشيخ مولاي عمر بن حماد:

المشروع الوحدوي والتضامني هو تتويج للمشروع الوطني التنموي، وفي ظل غياب أو تعثُّر هذا الأخير لا يمكن إلا أن نرى تعثراً وفشلاً في الأول. وهنا أيضاً يمكن القول بأن نجاح الثورات العربية في تحقيق تنمية داخلية حقيقية سيكون لَبِنة في وحدة الأمة التي طال انتظارها. ولكن نريدها وحدة مبنية على أسس علمية وليس على مقتضيات عاطفية فقط، كما نريدها وحدة لا تلغي التنوع ولا تتصادم مع الخصوصية. وهنا تتأكد الحاجة إلى جهود فكرية وعلمية وتربوية تحرر الإنسان من كثير من عوائق الوحدة المنشودة.

البيان: ما هي رؤيتكم للموقف الغربي من تلك الثورات، وخاصة في ظل التحول في سياسة التعامل مع أولئك الثوار، بعد أن توصلت حكومات تلك الدولة إلى القناعة بأن استخدام العنف والحصار الاقتصادي سياسة عامة في المواجهة مع حركات الإسلام السياسي قد فشلت في تحقيق أهدافها أو على الأقل وصلت إلى مفترق طرق يتعين عنده البحث عن أساليب تعامل جديد معها؟

الشيخ مولاي عمر بن حماد:

الموقف الغربي كان دائماً يتحرك بما يحقق مصالحه ويحميها كما يقدِّرها هو، ولقد كان ما جرى وما يزال يجري فرصة للموقف الغربي أن يغير من قناعاته ومن حلفائه. ولكن الذي طبع الموقف الغربي بشكل عام هو الاضطراب والتردد، وإذا أخذنا دولة واحدة للقياس فإننا يمكن أن نميز في الموقف الفرنسي - مثلاً - بين الحالة التونسية، وقد رأينا بوضوح كيف أن وزيرة الخارجية الفرنسية اضطرت لتقديم استقالتها بسبب تطورات الأوضاع في تونس، وبين موقف الدولة نفسها من تطورات الوضع في مصر أو ليبيا؛ حيث تزعمت الدعوة إلى التدخل المسلح. ويظهر أن الدول الغربية ليس لها من خيار إلا تغيير قناعتها بأن دعم نظام مستبد لا يمكن أن يضمن لها تحقيق مصالحها، وأنها مطالَبة بالانفتاح على مختلف القوى الفاعلة في هذه المجتمعات.

أما الموقف مما يسمى حركات الإسلام السياسي فالأمر مختلف مع العلم بأن الذي جرى لا يمكن نسبته لتنظيم مهما كانت قوَّته في المجتمع؛ بل إن الذي جرى كان ثورات شعوب تواقة للحرية والعزة والكرامة، ولذلك فالموقف مختلف. وميزته الأساسية تجاوز عقدة التخويف من الإسلاميين، وهي التي نرجو أن تؤسس لعلاقة مستقبلية منفتحة.

البيان: هل الثورات العربية المتتالية ستقود إلى وحدة عربية في رأيكم، أم أنها مجرد حالة تقليد كما وصفها بعض الناس؟

الشيخ مولاي عمر بن حماد: هذا السؤال يتقاطع مع سؤال آخر سبق، وأحب التأكيد هنا على أنه مع كل الآمال المعقودة على هذه الثورات العربية المباركة، إلا أن الحكمة تقتضي قَدْراً عالياً من الحيطة والحذر، خاصة مع ما يتسرب من عمليات الالتفاف والإجهاض من طرف ما يُعرف بالحرس القديم، أو القوى المقاومة للتغيير التي لن تدخر جهداً في إفراغ هذه الثورات من مضمونها؛ بما يجعلها تطمئن لكل الامتيازات التي كانت تستحوذ عليها. وعليه فكما كان لهذه الثورات داعمون عند قيامها يجب أن يبقى لها رعاة وحماة يحفظونها من أي تحريف أو انزلاق، ويجب أن تبقى الجذوة متقدة.

البيان: لا شك أن الشعوب العربية غيَّرت من جلد السلبية والخوف والخضوع، بجلد آخر يتحدى رشاشات المياه، ويتصدى لطلقات الرصاص والقنابل؛ فهل ستصمد تلك الشعوب أمام شلالات الدماء التي أعلن عنها القذافي وعبد الله صالح وغيرهما؟

الشيخ مولاي عمر بن حماد: إن

الذي نراه ونشاهده هو مزيد من مظاهر الصمود والتحدي، وهو مما يدل أن الإنسان حين يستطيع تجاوز خط المواجهة الأول ويستعيد المبادرة لا تستطيع كل أصناف الإبادة أن تؤثر فيه، وهذا المعنى نجده في مثل موقف سحرة فرعون الذين أبدعوا في الجواب على مختلف التهديدات التي توعَّدهم بها فرعون، كما في سورة الشعراء: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٩ – ٥٠].

إن قولهم: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ غاية في الإبداع والإيجاز والتحدي.

البيان: ما هو المخرج الشرعي من الأزمات المتتالية التي تمرُّ بها دولنا العربية؟

الشيخ مولاي عمر بن حماد:

جميل أن نسأل عن مخرج شرعي، وهذا أحد أدوار العلماء كما دل عليها كتاب الله في مثل قوله – تعالى –: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء: ٨٣]

إن الآية تحدد وظيفتين:

الأولى: الرد إلى العلماء، وهي مسؤولية الشعوب.

والثانية: هي إحاطة المستنبطين بالنازلة وهم العلماء.

وبتقديري فإن المخرج الشرعي لا يمكن أن يكون إلا منسجماً مع مطالب الشعوب في الحرية والكرامة والعزة المنضبطة بضوابط الشرع؛ لأنها المقاصد نفسها التي جعلت المستضعفين في التاريخ يلوذون بالمصلحين.

البيان: لا يخفى عنكم أن الإسلاميين في عدد من دول العالم يُستهلَكون أحياناً في إثارة نزاعات وخلافات جانبية؛ فما المخرج من ذلك؟ وما الخطوات العملية التي ترونها لتأليف القلوب ورأب الصدع؟

الشيخ مولاي عمر بن حماد:

هذه إحدى الأشياء العجيبة بحيث يفوِّت بعض الإسلاميين على أنفسهم فرصة الانخراط الفعلي في واجب الوقت وفي المقصد الأساسي الذي من أجله وُجدوا، ويتيهون في تدبير خلافات جانبية لا قيمة لها وليست ذات بال. والآيات في الموضوع كثيرة جدّاً، ومنها قوله – تعالى –: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، فالآية تجمع بين التنازع والفشل وذهاب الريح، وقد جعلت الأمرين الأخيرين نتيجة مؤكدة للأمر الأول (التنازع).

والتوجيه الأخير في الآية – أعني الأمر بالصبر – وثيق الصلة بما تقدم وفيه إرشاد لأهم مخرج لدفع أسباب التنازع وتأليف القلوب ورأب الصدع.

البيان: طالبتم بترشيد الفتوى؛ فما السبيل إلى ذلك؟

الشيخ مولاي عمر بن حماد: ترشيد الفتوى لا يمكن إلا أن يكون قوة للفتوى، وإذا قبلنا الحديث عن ترشيد العمل الإسلامي فترشيد الفتوى فرع من أصل. والمتتبع لشؤون الفتوى يدرك – بلا شك – الحاجة الماسة للترشيد. ومن المطالب الملحَّة معالجة مظاهر التسيب في الفتوى؛ وخاصة في القضايا العامة التي قد لا تحسمها الفتوى الفردية مهما كانت قوة صاحبها، إن تفعيل آلية الاجتهاد الجماعي يُعَد أحد المطالب الملحة والعاجلة.

البيان: يرى بعض الدعاة أن للتربية أثراً كبيراً في بناء الدعوة، ويزهد آخرون في ذلك؛ فما رؤية فضيلتكم؟

الشيخ مولاي عمر بن حماد: لا أتصور وجود داعية يقلل من شأن التربية، وكيف يكون ذلك والمدار عليها؟ إن التلازم بين الدعوة والتربية يعتبَر أحد المسلَّمات التي لا ينبغي أن تكون محل نقاش. والتربية في البناء الدعوي تأتي وسطاً بين الدعوة والتكوين والتأهيل، كما ترشد إلى ذلك الآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]. والتربية هي التي عبَّرت عنها الآية بالتزكية.

ووصلاً لآخر الكلام بأوله فإن الحديث عن التربية وثيق الصلة بالحَراك الشعبي الذي تشهده البلدان العربية. والحركات الإسلامية بأمسِّ الحاجة لاستخراج الدروس التربوية من كل الأحداث الجارية، وكذا تطوير برامجها التربوية بإدخال أهم الخلاصات التي قد يكون من بينها موقع الشباب في التغيير، وكذا استثمار وسائل الاتصال المعاصرة في التأطير.

البيان: في نهاية هذا الحوار الممتع المفيد نتقدم بخالص الشكر والتقدير لسماحة الأستاذ الدكتور الشيخ مولاي عمر بن حماد، سائلين الله – تعالى – لنا وله وللأمة الإسلامية التوفيق والسداد والرشاد.

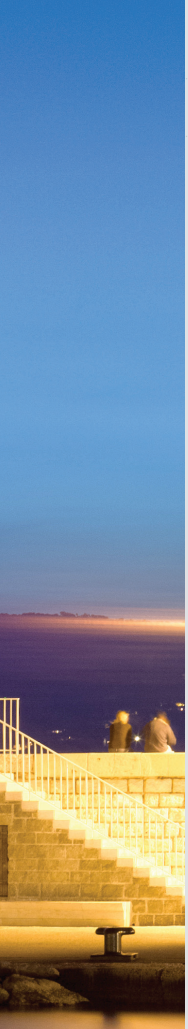

بعد أعوامٍ من الرحيل(*)

د. عبدالرحمن صالح العشماوي

«إلى شاعر الإنسانية المؤمنة عمر بهاء الدين الأميري»

مـــرَّت بـنـا الأعـــوام يـا عُـمَـرُ ... لا أنـت غِـبْـتَ ولا جَـفَـا الـمَـطَـرُ

لـكـنَّ طـــولَ الـبُـعـد أرهـقـنـي ... وأنـــا بـبـابِ الـشَّـــوقُ أَنْـتَـظِـرُ

وكـــذلـــك الأعـــــوامُ يـجـعـلـهـا ... مـثـلَ الـجـبـالِ الـشـوقُ والـسَّـهَـرُ

ســافـرتَ، لا بـل ســافـرتْ لـغـتـي ... فـي حُـزْنـهـا، وتـطـاوَل الـسَّـفَـرُ

مـنـذ ارتحـلْـتَ وعـيـن قـافـيـتـي ... تـهـمـي، ودمـــع الـصَّـمـتِ يَـنْـهَـمِـرُ

مـنـذ ارتحـلـتَ ولـيـلُ حسرتنا ... لا نجـمُـه غـنَّـى ولا الـقَـمَـرُ

أأَبـــا الـبـــراءِ! الـسَّـهْـمُ أَثْـبَـتـي ... لـــمَّـا أتـــى بـرحـيـلـك الخَـبـرُ

وبـقـيـتُ مـكـتـوفَ الحـــروف؛ فلا ... لحـــنٌ يـطـاوعـنـي ولا وَتَـــرُ

حـتـى قـوافـي الـشـعـر أَثْـبَـتـهـا ... مـهـم الـسـكـوتِ فـتـهـاوتِ الـصُّـوَرُ

وتـبـاعـد الـشـعـر المـعـبِّـر عَـنْ ... قـلـبـي، فـكـاد الـقـلـب يـنـفـطـرُ

ومـضـى بـيَ الـصـمـتُ الـطـويـل وفـي ... قـلـبـي عـلـيـك مـن الأسـى شَـرَرُ

لا الـقـلـبُ أَفْـلَـتَ مـن تـوجُّـعِـه ... يـومـاً، ولا مـن ســافـروا حـضـروا

لـــولا شـعـاعٌ ظـلَّ، مـن أَمَـلـي ... فـي الـلـه، عـنـه الـلـيـل يـنـحـسـرُ

لاثَّـاقَـلَـتْ نـفـسـي وأقـعـدنـي ... عـن هِـمَّـتـي الإعـيـاءُ والـضَّـجَـرُ

أأبـــا الـبـــراءِ! الأَرْضُ تحملها ... فـي كـفِّـهـا الأحـــداثُ والـغِـيَـرُ

لـكـأنـنـي بـالـشـام تـسـألـنـي ... وأنـــا بـبُـعـدي عـنـك اعـتـذِرُ

(*) جاءت هذه القصيدة – كما ذكر الشاعر – وليدة ساعتها؛ إذ دعته رابطة الأدب الإسلامي العالمية لحضور ملتقاها الشهري الأدبي المقام للشاعر أحمد البراء ابن عمر الأميري مساء الأربعاء ٢٥/٤/١٤٣٢هـ، وجالت بشاعرنا عبد الرحمن العشماوي الذكرى، فقد كانت تربطه بشاعر الإنسانية المؤمنة عمر بهاء الدين الأميري علاقات حميمة، ورؤى وهموم مشتركة، وحب صادق، وتذكَّر أنه لم يَرْثِه، فكانت هذه القصيدة التي شدا بها أمام ابن الشاعر أحمد البراء، وأمام الحضور في الملتقى. المحرر محمد الحناحنة.

لو كنتَ تسمع ما أبوحُ به ... لكشفتُ عمَّا يصنع البَشَرُ
ورويتُ عن أحداث أمَّتنا ... ما فيه للإنسان مُدَّكَرُ
كنَّا شريكي همِّ أمتنا ... وشراكة الإحساس تُدَّخَرُ
تبقى القلوب على تَواصُلِها ... مهما يطول البُعْدُ يا عُمَرُ!
هذا البراء أخي يذكِّرني ... بالجِذعِ أَحْنَى غُصْنَه الثمَرُ
بيني وبينك منه رابطةٌ ... بإخائنا في الله تَزْدَهِرُ
ومودَّةٌ يُسْقى الفؤاد بها ... يجري لها ما بيننا نَهَرُ
ما زال حَبْلُ الودِّ متَّصلاً ... ولنَبْضِ قلبك عندنا أَثَرُ
ألوان طيفِكَ ما تزال على ... ما يشتهي من حُسْنِها النَّظَرُ
وهنا «معَ اللهِ» الذي ابتسَمَتْ ... لحروفه الأزهار والشَّجَرُ
وبه تغنَّى الفجر مبتهجاً ... وبه تألَّق وَجْهُه النَّضِرُ
وهنا «النَّجاوى» عِطْرُها عَبِقٌ ... فيها الحروف البيض والفِكَرُ
أأبا البراءِ فراقُنا قَدَرٌ ... أنِّى يُرَدُّ إذا أتى القَدَرُ؟
ما هذه الدنيا سوى عِبَرٍ ... والحُرُّ تُوقِظُ نَفْسَه العِبَرُ

وتستمر أمواج المظاهرات في الانتشار والتمدد؛ فبعد تونس ومصر وليبيا واليمن، ها هي سورية تنضم لتسونامي الحرية.

وعلى الرغم مما شهدته الثورتان (الليبية واليمنية) من عقبات ومعوقات حدَّت من التدفق الثوري العربي؛ بشكل أوحى للمراقبين بانحسار هذه الموجة وتلاشيها، خرج الشعب السوري ليثبت للعالم أن الثورة ليست تقليداً؛ وإنما هي حاجة شعبية ماسَّة للخروج من نفق ظلم وطغيان الأنظمة الشمولية وما أورثته من امتهان لشعوبها وتعطيل لطاقاتها وهدر لمواردها وتكريس لكل معاني الذل والاستخزاء.

لقد كان يوم ٢٠١١/٣/١٥م نقطة تحول فاصلة تؤذن بعودة راشدة - إن شاء الله - لأهل الشام إلى حاضنة الأمة المسلمة في ثورة عارمة يقودها الشباب، في ظل ظروف ومعطيات دولية معقدة، وما يمكن أن نسميه تقهقراً إعلامياً عن تغطية الحدث السوري على الرغم من فداحته.

في ملفنا هذا أربع مقالات:

الأولى منها: تؤسس لدى القارئ تصوراً عن حقيقة ما يجري في سورية عبر قراءة تاريخية لتطورات الأحداث في سورية خلال ما يزيد عن نصف قرن الزمان وكيف وصلت إلى ما هي عليه الآن.

أما الثانية: فتبسط القول حول حساسية الحالة السورية ومناورة النظام في اللعب بالخيوط المتاحة لديه عربياً وإقليمياً، ثم إرهاصات الثورة وتَبلوُرها وبيان بعض ملابساتها.

وأما الثالثة: ففيها بيان آثار هذه الحركة المباركة على النظام، ومتداد أفقها الاحتجاجي، ووعي خطابها، ومحاولات النظام الالتفاف على مطالبها المشروعة.

وأما الرابعة: فتسلط الضوء من خلال رؤية تحليلية على من يأمر بالعنف ويقتل المتظاهرين.

الرضيع

طفلي الرضيع

خصائصة ـ صحته ـ تربيته

مشروعنا
وظف مختلف
المتخصصون

مشروعنا:

- بناء علمي منهجي.
- تنويع في شكل المعلومات.
- توظيف المتخصصين بكافة مجالهم في مراحل المشروع.
- توسيع دا~رة المشرفين في منتجات المشروع.
- تنويع بيئات المشاركين وتجاربهم.

www.albayan.co.uk

الريـــاض: ـ هـــاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحـــويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فـــاكس: ٤٥٣٢١٢١
التـوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جـدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكـة والمدينـة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقـة الجنوبيـة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقـة الشرقيـة: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقـة القصيـم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

ماذا جرى في سورية؟ وماذا يجري الآن؟

د. محمد العبدة

فذلكة تاريخية:

حتى نفهم الحاضر لا بد من الرجوع قليلاً إلى الماضي القريب، فسورية هي الجزء الأكبر من بلاد الشام التي قُسِّمَت بعد الحرب العالمية الأولى حسب اتفاقية (سايكس - بيكو) البريطانية الفرنسية وبعد ذلك خضعت سورية للاحتلال الفرنسي منذ عام ١٩٢٠م، وبعد استقلالها عام ١٩٤٦م راوح الحكم فيها ما بين حكم ديمقراطي برلماني أو هو أقرب إلى الديمقراطي تقوده أحزاب وطنية تعتمد على الأشخاص أكثر من اعتمادها على فكر معيَّن، وبين انقلابات عسكرية زرعت الفوضى وعدم الاستقرار، وشجعت الجيش على التدخل في الشؤون السياسية[١].

ولذلك كانت فترة الحرية المتاحة للشعب وتشكيل هيئاته ومجالسه فترةً قصيرة؛ ولكنها كانت غنية بالتنمية البشرية والعلمية والاقتصادية وبناء الجيش القوي. وفي فترات الحرية تلك تحققت انتصارات على إسرائيل في معارك على الحدود، (كان ذلك في عامَي ١٩٥٥ و ١٩٦٢م)، وعُرِضَت الدبابات الإسرائيلية التي غَنِمها الجيش السوري في ساحة المرجة في وسط دمشق، ولكن عندما تحكَّم العسكر كانت الهزائم الكبيرة في عام ١٩٦٧م، وكان وقف إطلاق النار ضد العدو منذ عام ١٩٧٣م وحتى الآن.

كان آخر الانقلابات الظاهرة هو انقلاب عام ١٩٦٣م، وكان على رأس هذا الانقلاب ضباط ناصريون، ولكن حزب البعث هو الذي استغل هذا الانقلاب واستولى على السلطة وأبعد الناصريين.

إن الذين حكموا في فترة الستينيات من البعثيين كانوا أقرب إلى اليسار الاشتراكي. وظهر الإلحاد علناً، وكتبت مجلاتهم السب للإسلام. وأثناء هذه الفترة كانت مجموعة من الضباط من الطائفة العلوية والإسماعيلية تخطط للانقضاض على القيادة القومية لحزب البعث، وكانت المجموعة مؤلفة من خمسة ضباط[٢] منهم صلاح جديد وحافظ الأسد، وكانوا يعتبرون أنفسهم ممثلين للقيادة القطرية، ونجحوا في انقلابهم، وأُبعِد القادة المؤسسون لحزب البعث خارج سورية واستقروا في العراق، ثم كان صراعاً بين صلاح جديد وحافظ الأسد إلى أن استقر الأمر أخيراً للأسد، وأدخل صلاح جديد السجن ومات في السجن عام ١٩٩٤م.

استقل حافظ الأسد بحكم سورية منذ عام ١٩٧٠م وتحول حزب البعث إلى (ديكور) لتجميل الصورة فقط، ولم يعد له من الأمر شيء. لقد أصبح الحكم عسكرياً استفرد به حافظ الأسد ومَنْ حوله من الضباط الكبار في الجيش والأمن السياسي، وكان الأسد يعلم أن وضعه غير طبيعي؛ إذ كيف يحكم الأكثرية وهو من طائفة قليلة؟ لذلك استعان بالمشايخ الذين ينافقون له ويجمِّلون صورته بأنه يميل إلى رأي الأكثرية مثل المفتي أحمد

(١) وقعت ثلاثة انقلابات في فترة قصيرة في الأعوام: ١٩٤٩، ١٩٥٠، ١٩٥١م.

(٢) وباقي الضباط هم: محمد عمران، وأحمد المير، وعبدالكريم الجندي، وكلهم من الأقليات.

كفتـــارو

والشيخ ســـعيد رمضان

البوطي، ولكن الأســـد لم يســـتطع إلا أن يُظهِر ما يخبئه للشعب السوري، فحاول تغيير مادة في الدستور تنص على أن رئيس الجمهورية يجب أن يكون مســـلماً فقامت الاعتراضات الكبيرة تواجه هذا التصرف فســـكت عن الموضوع، ثم جاءت الخطوة الثانية حين أبعد كل المدرســـين المتديِّنين عن التدريس في الثانويات – ســـواء كان مدرســـاً للمواد الدينية أو للمواد الأخرى – وإحالة هؤلاء المدرسين للعمل في الوزارات الخدمية مثل وزارة الصحة أو المواصـــلات أو الزراعة. لقد أزعج هذا التصرف المســـلمين في هذا البلد الذي تبلغ نسبة أهل السُّنة فيه ٨٠ ٪، وشـــعر المسلمون أن هذا جزءٌ من مخطط وسيتلوه أشـــياء أخرى، ثم جاء اعتقال الشـــيخ مروان حديد ثم وفاته في الســـجن تحت التعذيب ليكون ردُّ الفعل أن يحمل السلاحَ تلامذةُ الشـــيخ مروان ردّاً على الظلم ودفعاً للضيم، وانجرت سورية إلى معارك وقتال لم تكن نتائجه في صالح الأكثرية رغم نية أصحابه في دفع الشـــر، واختلطت البطولات والشـــجاعة في مقاومة الباطل بالأخطاء التـــي أدت إلى كوارث من حيث الاعتقالاتُ التي شـــملت آلاف الشـــباب المتديـــن المتعلم من أصحاب الأخلاق العالية، وخسرت ســـورية خيرة شبابها في ســـجون تدمر؛ حيث أُعدِم آلاف منهم أيضاً. لقد كان ردُّ فعل الدولة ظالماً قاسياً بل متوحشاً، والذي يقرأ كتاب (تدمر شاهد ومشـــهود) وغيره من الكتب التي تتحدث عن مآســـي الشعب الســـوري مع هذا النظام يدرك ذلـــك، وقُصفَت مدينة حماة وهُدمَت بعض أحيائها، وقتل الآلاف، وأبيدت بعض الأسر ولم يبقَ منها أحد.

هذه القســـوة الشـــديدة أرعبت الناس لســـنوات طويلة، وكأنها كانت تنفيذاً لنصيحـــة (ميكافيلي) عندما نصح أميره بأنه إذا ضرب فَلْيضرب موجعـــاً؛ لأن الضربة الخفيفة تزيد قوة الشعب.

خيوط اللعبة في عهد الأسد:

إن سورية بحجمها الجغرافي والسكاني لم تكن في الواقع السياســـي للبلاد العربية بالدولة الكبيرة الغنية التي تستقطب دولاً أخرى، ولا هي بالدولـــة الصغيرة التي لا تأثير لها، أو لا وزن لها؛ ولموقعها هذا كانت محلَّ اســـتقطاب: إما من العراق أو من مصر. وكانت الســـعودية تحاول إبعاد كِلا الاستقطابين. ومع ارتفاع الحس العروبي الوحدوي عند الشـــعب الســـوري كانت الأحزاب تطرح مشـــاريع الوحدة: إمـــا مع العراق أو مع مصر[1]. ولكن عندما انفرد الأسد بحكم سورية كان له سياسته الخاصـــة بعيدة عن الحس العروبـــي الوحدوي، لقد كان يتقن اللعب بخيوط يمسك بها، هي:

خيط مع حزب العمال الكردستاني المعارض في تركيا.

وخيـــط مـــع دول الخليج يبتزها ويقـــول لها: إن علاقتي المتميزة مع إيران هي لمصلحة دول الخليج.

وخيـــط مع منظمات فلســـطينية ليناور باسمها ويفاوض أمريكا أو إســـرائيل ومعه أوراق القضية الفلســـطينية، ولكن ياسر عرفات لم يســـلِّمه الورقة الفلســـطينية، وقامت لذلك عداوة شـــديدة لعرفات. يقول أحد الكتاب الغربيين: إن حافظ الأسد توفي وفي قلبه غصة أنه لم يقتل ياسر عرفات.

هـــذه الخيـــوط بدأت تتفلت مـــن يد الأســـد؛ فقد جاءه التهديد من جانب تركيا واســـتجاب فـــوراً وأبعد رئيس حزب العمال الكردســـتاني، وانكشـــفت لعبته مع دول الخليج، ولكن الشيء الذي لم يفلت من يده هو مسلسل الاغتيالات في لبنان؛ فكل من يعارض حاكم دمشـــق أو كل من كان ذا شخصية قوية فمصيره الاغتيال وهكذا اغتيل الزعيم الدرزي كمال جنبلاط وهو زعيم اشـــتراكي أيضاً، وقُتِل المفتي قوي الشخصية حسن خالد – رحمه الله – وقتل الشـــيخ صبحـــي الصالح – رحمه الله – وهو من العلماء البارزين في لبنان، إلى آخر السلسلة... وسيستمر مسلسل الاغتيال في عهد الأسد الابن.

(١) قامت الوحدة بين سورية ومصر زمن عبد الناصر عام ١٩٥٨م وانتهت عام ١٩٦١م.

سورية بعد حافظ الأسد:

من مساوئ النظم الشمولية الديكتاتورية أنها تخنق الحياة السياسية، وتشل القدرات وتطلعات الناس إلى حياة أفضل؛ فيهاجر المفكر والمثقف والسياسي ورجل الأعمال، ويبقى الزعيم وحدَه وحوله كثير من (الأصفار)، وعندما يقترب من نهايته تأتي الفرصة المواتية ليقوم ببدعة جديدة في الحكومات الجمهورية؛ وهي التوريث لأحد أولاده، وهكذا جاء بشار الأسد بعد مقتل أخيه الأكبر في حادث سيارة. لقد جاء بشار ولم يكن مهيئاً لهذه المهمة؛ فقد تخرَّج من جامعة دمشق كلية الطب وذهب إلى بريطانيا لإكمال الدراسة في طب العيون. جاء بشار بعد أن استطاع مجلس الشعب تغيير مادة في الدستور خلال خمس دقائق، والمادة تنص على بلوغ سن الأربعين لمن يترشح للرئاسة، وبشار لم يبلغ هذا السن، وكان هذا من الغرائب والعجائب.

في بداية تسلُّم بشار الأسد للحكم وفي خطابه الأول أمام مجلس الشعب قدَّم وعوداً وردية للتغيير، وصدَّق الناسُ وقالوا: هذا شاب متعلم عاش سنتين في بريطانيا. وهذه الوعود هي ماسمي بـ (ربيع دمشق)، وظن السياسيون أن الأمر جِدٌّ، فقاموا بإنشاء المنتديات والندوات يتكلمون عن الحرية والتغيير... وبعد شهر أو شهرين جاء من يقول للأسد إلى أين أنت ذاهب؟ هذا الانفتاح ليس في صالح النظام. وكان أشد المحاربين لهذه المنتديات نائب الرئيس السابق عبد الحليم خدام، فأقفل ربيع دمشق وعندما سُئل بشار الأسد في إحدى المقابلات الإعلامية عن مصير ربيع دمشق قال: هناك ربيع وهناك خريف وشتاء!

استمرت الأمور كسابق عهدها من تغوُّلٍ لفروع الأمن، وظهر (الحيتان) الذين نهبوا الأموال واحتكروا التجارة وتكدَّست الثروات بأيدي فئة قليلة منهم ابن خال الرئيس (رامي مخلوف)، والملفت للنظر أن الحزب القومي السوري الذي كان مبعَداً زمن الأب، اعترف به الابن وعاد إلى الحياة السياسية وأصدر صحيفة تعبِّر عن آرائه.

لقد فقد النظام كثيراً من الأوراق التي كان يلعب بها الأب؛ ولذلك صار بشار أكثر اعتماداً على إيران (الحليفة القوية والغنية)، واستغلت إيران هذه الناحية وقامت بنشر التشيع مستغلة فقر بعض القرى في الشمال الشرقي من سورية، ومستغلة الإعلام الذي أتيح لها وحُرِم منه الآخرون، وأقامت الحوزات والحسينيات بجوار مقام السيدة زينب في ضواحي دمشق. وهذا شيء لم تعرفه سورية في عهد الأسد الأب، وبسبب هذا التغلغل الإيراني الصفوي تركزت الاعتقالات في السنوات الأخيرة على الاتجاه السلفي فأصبحت (السلفية) تهمة بحد ذاتها؛ ولو أن صاحبها لم يعارض أو يتكلم منتقداً.

بعد سقوط بعد بغداد:

وقع النظام في خوف من أن تكون أمريكا جادة في محاربة الأنظمة الديكتاتورية، وأنها تريد نشر الديمقراطية، ثم تبيَّن بعدئذٍ أنها غير جادة وخاصة مع دولة حدودها هادئة مع إسرائيل منذ عام ١٩٧٣م، ولكن النظام سمح للشباب السوري بالذهاب إلى العراق للقتال ضد المحتل الأمريكي، وهو بهذا يكتشف الشباب الذين يفكرون بحمل السلاح فإذا رجعوا من العراق يحقق معهم وتصبح أسماؤهم معروفة لدى الأمن، أو يسجنهم ويقول لأمريكا: نحن نحارب الإرهاب. وقد أعطى لأمريكا آلاف الوثائق والأسماء عن الإسلاميين باعترافه، وبعد أن اطمأن عاد ليمارس اغتيال الشخصيات اللبنانية المعارضة له أو شخصيات لا يرتاح لها؛ لأن لها نفوذاً كبيراً، وهكذا تم اغتيال رفيق الحريري ومرافقيه وتم اغتيال بعض الصحفيين المعارضين، وربما لم يتوقع النظام ردَّ الفعل الكبير اتجاه مقتل شخصية كبيرة كالحريري؛ سواء من المسلمين في لبنان أو من الدول الأوروبية، واضطر النظام لسحب جيشه من لبنان وسحب نفوذه الأمني أيضاً. وما تزال قضية الحريري ومحكمة العدل الدولية تؤرق النظام إلى الآن.

لقد استفاد النظام من أوراق هُيئَت له وبدأ يلعب بها كما كان الأب يتقن ذلك، فانسحاب إسرائيل من جنوب لبنان ورقة جيدة لما يسمى باحتضان المقاومة[1]، كما جاء اضطرار حماس (كما تقول) إلى اللجوء إلى سورية ورقة ثانية لرفع شعار احتضان المقاومة والتلويح بها لكل من ينتقد النظام، وقد انخدعت منظمات وهيئات في البلاد العربية بهذا الشعار.

(١) في كتاب تحالف الغدر، العلاقات السرية بين إيران وأمريكا وإسرائيل لمؤلفه برسا يذكر أن انسحاب إسرائيل كان باتفاق مع إيران.

ثم جاءت الثورات العربية:

خلال شهرين من الأحداث المتسارعة في تونس ومصر كان الشعب السوري يشاهد كيف أن الشعوب أصبحت قادرة على إزالة الحكومات الاستبدادية، وكيف تنفس الشعب في تونس الصعداء بعد رحيل ابن علي، وكيف شعر الشعب المصري بأن الخوف ذهب إلى غير رجعة، إن شاء الله.

لقد بدأ الشعب السوري - وهو الذي يرزح تحت حكم استبدادي متجبر منذ خمسة عقود - يفكر في المطالبة بالحرية السياسية التي حُرم منها، كما طالب بها الآخرون ونجحوا في نيل مطالبهم.

لقد كانت الشرارة الأولى في مدينة درعا الجنوبية حين اعتقلت السلطات السورية أطفالاً كتبوا على الجدران عبارة: (الشعب يريد إسقاط النظام). والطغيان إذا استمر طويلاً لا يحتمل أي انتقاد ولو كان من أطفال ويستغرب جداً أن يطالب الناس بحقوقهم! وخرج أهالي درعا يطالبون بإخراج السجناء فكان الرد من أمن الدولة هو القتل وليس الغاز المسيل للدموع ولا خراطيم المياه، وقامت المدن الأخرى مؤازرة لمدينة درعا، ورفعت المطالب المشروعة في كل مكان، وهي: إلغاء قانون الطوارئ، وإخراج المعتقلين السياسيين، وإطلاق الحريات العامة، وإبعاد أجهزة الأمن عن التدخل في شؤون الناس، وإنهاء حالة الفساد. فبدأ النظام - كما هو متوقع - بالترقيع والتجميل؛ فمرة يغلق (باراً) ومرة يأمر بإعادة المحجبات المنقبات إلى أعمالهن[1]، ولكنه لم يدخل في صلب الموضوع؛ وهو إطلاق الحريَّات العامة وإلغاء قانون الطوارئ؛ والناس في سورية ليسوا جوعى حتى يرضيهم النظام برفع الرواتب؛ إنما هم يريدون العدل والحرية والكرامة.

النظام مستهدَف:

هذه هي النغمة القديمة الحديثة التي يكررها النظام وهو يعني أن لا تطالبوا أيها الناس بأي شيء ولا تتظاهروا؛ لأنني مستهدَف بسبب احتضان المقاومة، مستهدف من مؤامرة خارجية وهو الشعار نفسُه الذي كان يردده: (لا صوت يعلو فوق صوت المعركة). مع أنه لم يكن في معركة ولكنها الشعارات البالية التي سئمها الناس.

(١) القرار صدر بإعادة عدد يسير من المنقبات اللواتي جرى فصلهن أو نقلهن إلى وظائف خدمية، وليس جميعهن. البيان

هل النظام مستهدف فعلاً؟ ومن الذي يستهدفه؟

إذا كانت أمريكا هي التي تستهدفه، فإن حافظ الأسد هو الذي دخل لبنان بموافقة أمريكا كما تحدث (هنري كيسنجر) في مذكراته؛ وذلك لإخراج منظمة التحرير من لبنان، وهو الذي دخل عام ١٩٩٠م في تحالف تقوده الولايات المتحدة في حرب الخليج.

وإذا كان النظام مستهدَفاً من قِبَل إسرائيل فالحدود السورية مع إسرائيل هي الأكثر أمناً على الإطلاق من غيرها، وقد حذرت صحيفة (هآرتس) من أن سقوط الأسد يطرح تهديداً أمام إسرائيل، ولكن لنفرض أن النظام مستهدَف؛ فهل هذا يبرر تسلُّط الأجهزة الأمنية على الناس؟ فهناك حكومات ديمقراطية وهي قوية، وهل الذي يكون مستهدَفاً يُضعِف العلم في الجامعات ويُضعِف الاقتصاد بكثرة الفساد والنهب العام، ويُضعف الجيش تدريباً وتسلُّحاً، ويعيش الضباط حياة الرفاهية والترف في القصور التي بنوها في منطقة (الديماس) وفي قراهم. والأهم من هذا كله إضعاف الإنسان السوري وإذلاله؛ والذليل ليس مؤهَّلاً للدفاع عن الأوطان.

هل سورية فعلاً هي رأس الحربة في مقاومة إسرائيل، أم هي أسطورة في عهد الاستبداد؟

لقد مُسخَت الشخصية الإنسانية للمواطن السوري؛ فمثلاً عندما وصل العدو الصهيوني إلى قلب العاصمة السورية واغتال أحد زعماء حماس، سألتْ الجزيرة أحدهم: كيف سيكون الرد؟ قال: سيكون الرد حضارياً سنشرح للعالم اعتداءات إسرائيل! كيف استطاع النظام أن يمسخَ هذه الشخصية ويدرِّبَها على مثل هذه الإجابات، فلم نسمع أن دولة يُعتدى عليها ويكون الرد حضارياً؟

إن من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ الدين والنفس والمال؛ وكل هذا مفقود في ظل الحكومات الاستبدادية الديكتاتورية، وقد آن للشعوب العربية التي عانت طويلاً من حكومات عسكرية أن تعيش تحت ظل العدل والحرية والكرامة التي يحققها الإسلام.

قراءة في المشهد السوري

محمد عبد الرحمن

لم يكن أكثر المراقبين يتوقعون قبل ٢٠١١/٣/١٥م أن تقوم حركة ناقدة في سورية فضلاً عن أن تكون متمردة بله أن تصبح مظاهرات وشعارات منادية بالحرية والتعددية السياسية وغيرها من شعارات حقوق الإنسان؛ ذلك أن الأنظمة الشمولية القمعية أجهضت أي محاولة للفكر الجمعي المنظم؛ إلا تحت سقف النظام وأهدافه. ولذا فقد وُئدت جميع المحاولات السابقة لطرح فكرة التحرر منذ سنين طويلة كان آخرها محاولة جماعة الإخوان المسلمين في ثمانينيات القرن الماضي التي سُحقَت سحقاً شديداً وأوحت للمراقبين أنه لن تقوم قائمة لحركة تحررية بعدها. ولعل تلك المرحلة وتداعياتها تركت آثارها في العقل الباطن لدى السوريين؛ من أن النظام البعثي القائم من القوة والمكنة والبطش وسيطرة الحزب الواحد بحيث يستحيل مع ذلك مجرد التفكير بالمواجهة أو إعادة التجربة. وهكذا نشأت أجيال تربَّت على عقدة الخوف من الأمن وبطشه؛ جيل أو جيلين لم يعرفوا معنى للكرامة، ولا أبجديات الحرية؛ يتعايشون مع الأجهزة الأمنية وكأنها قدره الذي لا مفر منه.

نبذة تاريخية (سياسية واجتماعية):

تشكِّل سورية فسيفساء دينياً وإثنياً وطائفياً متعددة الألوان يسيطر عليه لون الأغلبية **السُّنية بنسبة** (٨٠٪)، وهي التي كانت وما تزال تشكل الأغلبية الاجتماعية من أهل الحضر من التركمان، والأرياف حول المدن الكبيرة الرئيسية، وتشمل جميع البدو ممن يحيون ضمن سورية لامتداد جذورهم التاريخية، كما تمثل أغلب الكرد الذين استوطنوا سورية مع قدوم صلاح الدين الأيوبي، وجميع الشركس والداغستان والشيشان الذين وفدوا لسورية أثناء قيام الاتحاد السوفييتي السابق باضطهاد المسلمين هناك فراراً بدينهم إلى بلاد الشام. وهذه الطائفة كانت تمثل استقراراً مادياً لاحتوائها شريحة التجار وبعض أصحاب النفوذ والحظوة لدى الدولة العثمانية سابقاً.

أما باقي الطوائف فهي تشمل:

العلويين بنسبة (١٠٪): وهم فئة عاشت على أطراف الخط الساحلي مستوطنة تلك المنطقة التي سميت باسمهم (جبال العلويين) وللحقيقة أقول: لقد كانت تلك الفئة على مدار عقود تحيا حياة البؤس والشقاء في ظروف بيئية واجتماعية قاسية؛ ولذا كان من السهل على أغلبهم مدُّ

أيديهم لكل محاولة لانتشالهم من وضعهم؛ ولو كانت تلك اليد يَدَ مستعمر أو حزب أو متآمر أو حاقد؛ فكانوا فريسة للصليبيين قديماً ولحزب البعث وأهدافه التحررية التقدمية حديثاً.

وطائفة الدروز: وهم مجموعات من الناس استوطنت منطقة الجنوب السوري أو ما سمي بـ (جبل العرب): وهي فئة شديدة الغموض في ما تتخذه من عقيدة، وهو ما جعلهم معزولين اجتماعياً عن الآخرين وسَهُل كذلك احتواؤهم من قِبَل بعض الدول خارجياً كان آخرها الدولة الصهيونية بعد احتلالها للقنيطرة؛ فقد شكلت مجموعة عسكرية من دروز الجولان مهمتها التحقيق مع الفلسطينين لتجاوزهم مشكلة اللغة، ويشار في هذا السياق إلى أنه ثمة (مشكلات تاريخية «عقيدية وسياسية» كانت بين الأقلية العلوية والدرزية ولا زالت، وهم ممنوعون في دولة البعث الحالية من تولي مناصب أمنية عليا).

والطائفة الإسماعيلية: وتضم فذة من الناس توارثت الفكر العبيدي الفاطمي واستوطنت منطقة السَّلَمية شرقي مدينة حماة الشهيرة؛ وهم لا ينتمون لمذهبهم ذلك الانتماء العقدي؛ وإنما شكَّل المذهب لهم في الفترة الأخيرة نوعاً من الحاضن الاجتماعي وكياناً يضمن لهم الاستمرار والبقاء، ولقد تفشَّى بينهم بقوة الفكر الشيوعي وأحزابه على اختلاف مشاربها وأطيافها؛ حتى سميت السَّلمية بـ (موسكو سورية)، وهذه الفئة انتهازية مولعة بالعلم والسياسة.

ويبقى هناك بعض الفئات ممن لا أثر لهم في الأحداث كاليزيدية التي لها بعض الانتشار في أوساط الأكراد شمال سورية وامتدادها في العراق وشماله، وهي تمثل شريحة من الأمين الذين يحيون على الزراعة.

أما من حيث الأديان فهناك النصارى بطوائفهم المتعددة المختلفة والمتخالفة في ما بينها، وهي معروفة بانتمائها لكل من يتولى الحكم في سورية منذ الاستقلال؛ لأنها ترى في ذلك حفاظاً لها من التورط في أي مشكلة نظراً لقلة عددهم، وبعضٌ منهم له ارتباط فكري وعقدي مع الأحزاب اللبنانية النصرانية، ولا يُنكَر في هذا السياق وطنية ونضال بعضهم مما شهده الواقع تاريخياً مثل (فارس الخوري) وحاضراً مثل (ميشيل كيلو)، ولقد كان لهم حضور ملحوظ في الأحزاب اليسارية بشكل عام.

أما اليهود فلم يعد لهم وجود بعد أن سمح لهم نظام (الممانعة) بالهجرة من سورية فاتجهوا للغرب ومنه إلى (إسرائيل)؛ حيث شكلوا فيها ثقلاً مادياً نظراً لأن أغلبهم من التجار.

إرهاصات الاحتجاج داخل سورية:

مما لاشك فيه أن الحالة السورية تأثرت تأثراً واضحاً بما جرى في مصر وتونس، والشعب السوري بطبيعته شغوف بمتابعة السياسة وممارستها؛ وهذا ما لم يراعه النظام القائم؛ فقد كان ما جرى في هذين البلدين العزيزين – وخاصة مصر – حديث المجالس العامة والخاصة؛ يضاف إلى ذلك توافر ممهدات فكر الثورة عموماً، وهي: الظلم الاجتماعي الذي حل بالشعب السوري عموماً نتيجة انتشار الفساد الإداري والمالي بسبب سيطرة أدعياء الحزب ابتداءً وأعوانه ثم أبناء الطائفة الحاكمة والمنتفعين معهم ثانياً، لتنتهي القضية بسيطرة أفراد الأسرة الضيقة من آل الأسد ممن شكلت سورية لهم مزرعة يعطون فيها ويمنعون بمقدار الولاء لهم، وللأسف فقد كان هناك زواج غير شرعي بين بعض تجار دمشق وحلب والمنتفعين وبين أفراد العائلة المالكة «جمهورياً» (ولعل هذا ما يفسِّر تأخُّر قيام الثورة في دمشق وحلب).

كل تلك الممارسات جعلت من الشعب السوري شعباً فقيراً يحيا أغلبه تحت خط الفقر بعد أن كان في مقدمة الشعوب العربية في مرحلة الستينيات، وفي إحصائية لمكتب الإحصاء السوري جاء: أن معدل إنفاق الأسرة السورية من ٥ أفراد هو٢٠ ألف ليرة سورية بينما أفاد المصدر نفسه أن معدل الدخل لا يتجاوز ١٤ ألف ليرة؛ أي أن هناك عجزاً مباشراً بـ ٦ آلاف (أي ما يقارب مئة دولار أمريكي).

أضف إلى ذلك ما سمي بتغيير الحالة الديموغرافية

وسيطرة أبناء الطائفة على مقدرات الدولة ووظائفها عموماً نتيجة الولاء والقرابة وتحكُّم العقلية الأمنية في وظائف الدولة؛ وهكذا نلحظ في بعض مدن الداخل وجوداً غريباً للأقلية وسطوتها على مفاصل الحياة جميعها، أضف إلى ذلك ما شحنت به هذه الأقلية من مبادىء البعث من محاربة للإقطاع وغيرها؛ فشكل لديها حالة من الحقد الاجتماعي ممزوجة بالطائفية مع تخلُّف البِنيَة العقلية لأغلبهم؛ لأنهم تولوا مناصب لم يتقنوا بحثها العلمي ولا الأكاديمي؛ وإنما بمقدار ولائهم وحسب. وشيوع الفساد الإداري بجميع مرافق الحياة ابتداء من القضاء الذي تدخَّل الحزب في تعيين أفراده وعلمنة قوانينه – وهو معيار لصحة الأمم ورقيها عموماً – وانتهاء بالتعليم العالي والأكاديمي وما لحق به من تردٍّ نتيجة إيفاد الشخصيات العلمية غير المؤهلة ليكونوا محاضرين أومدرسين، كما أن العقلية التي كانت سائدة في حزب البعث من ضرورة الابتعاث لدول المنظومة الاشتراكية بكل أطيافها وما لديها من أيديولوجيات علمية بائسة أورث لدينا جيلاً من الجامعيين غير مؤهل. كل هذه التركيبة العقلية كان على المواطن السوري تحمُّل وطأتها وقسوتها.

عوامل القوة لدى النظام السوري:

لاشك أن النظام السوري يعتبَر من أكثر الأنظمة مراوغة ولعباً بالخيوط المتاحة بين يديه ولقد شكلت بعض النقاط إحراجاً لكل المعارضين للنظام، وتمثَّل ذلك في:

١ – في ظل تردي الوضع العربي وهشاشة معظم الدول العربية الممثلة لمعسكر الاعتدال برزت سورية على أنها حاملة لواء الممانعة والوقوف عند الثوابت القومية المتعلقة بموضوع فلسطين؛ وتجلى ذلك في دعمها شبه المطلق لحركات المقاومة الفلسطينية بشكل عام حتى الإسلامية منها، مثل حماس والجهاد الإسلامي التي تتلقى من التسهيلات في سورية ما لا تتلقاه – قطعاً – في أي قطر عربي آخر، ولا تزال المناهج المدرسية وتوجيهات الإعلام كذلك تجعل من القضية الفلسطينية قضية محورية في العقل البعثي السوري، وتسليط الإعلام السوري أضواءه على كل ما يحل بالواقع الفلسطيني من تطورات؛ ففي أحداث غزة فتحت سورية جميع قنوات التبرع أمام حماس (وهي حركة غير مسبوقة)، ثم تبنَّت كل المبعدين الفلسطينيين في تصرُّف غدا محرجاً لكل المعارضين للنظام؛ فهو يضعهم في خانة معسكر التطبيع مع العدو الصهيوني وهي تهمة ترفضها المعارضة السورية بشدة، ولقد اتكأ النظام على تلك المسألة اتكاءً كبيراً؛ ويبدو ذلك في تصريح وليد المعلم لدى لقائه بالقيادات الفلسطينية لشرح الواقع العربي الجديد بعد سقوط نظام حسني مبارك في مصر.

٢ – الحنكة والمهارة التي تتعامل بها وزارة الخارجية السورية أنقذتها من كثير من الأزمات خلال الفترة الماضية؛ كان أشدها تعقيداً مسألة اغتيال رفيق الحريري، وما اكتنف المحكمة الدولية من غموض استطاعت السلطات السورية تأخير صدور القرار الظني حتى الآن على الرغم من كل الضغوط ولعلها استطاعت اللعب به أيضاً، وكذا مسألة تشكيل الحكومات اللبنانية بدا أنها لا تتم دون تدخُّل سورية عبر وسطائها في لبنان؛ وهذا هو سبب تأخُّر تشكيل الحكومة الحالية، وكذلك وجدت الحكومات العراقية نفسها مضطرة للاستعانة بالسوريين لحل مشاكلهم الداخلية، وانهال المسؤولون العراقيون على سورية ابتداءً من رئيس الحكومة حتى أصغر زعيم طائفي، وكذلك استطاع السوريون أن يكونوا شوكة في حلق الأمريكيين إبَّان ظرف معيَّن في ما يتعلق بتسلل المقاتلين إلى العراق، وكذلك استطاعوا أن يحافظوا على علاقاتهم مع إيران كدولة من محور الشر مع استعادتهم لسفير أمريكا بدمشق، وعلاقات متينة مع تركيا العدو التاريخي لإيران، ومحافظة على ماء الوجه مع الاتحاد الأوروبي عموماً.

إرهاصات الثورة :

ذكرنا سابقاً من تأثُّر الواقع السوري بما جرى في مصر وتونس؛ وإن كان الواقع السوري أقرب إلى الدولة الأمنية التونسية منها إلى المصرية، وتسللت حركة الوعي للشعب السوري عموماً وكذلك المنتديات التي تضم حقوقيين وسياسيين وسجناء سابقين، وممن يهتمون للشأن العام مثل منتدى جمال الأتاسي، ويغلب على تلك المنتديات طابع العَلمانية والحركات اليسارية المفعمة بالمبادئ الثورية.

وبعد التشاور مع النخب الثقافية تم إنشاء صفحة للثورة السورية على الإنترنت تضم مجموعة من الهواة الإلكترونيين وأبناء العائلات المشردة من قِبَل النظام وذلك بالتنسيق والمتابعة مع بعض النخب في الداخل، وكان لشباب الصحوة الإسلامية المفعمين بروح الثورة والإسلام دورهم في ذلك، وكان ثمة جدال حول من يشعل الثورة وتوقيتها فكان الرأي أن لا يظهر الإسلاميون

علـــى الأقل في الوقت الحلي بالواجهة كي لا يلتف النظام عليهم وعلى ثورتهم ويظهرَها بمظهر حركة دينية متطرفة ومن ثَمَّ تسهُل محاصرتُها والســـيطرة عليها واتفقـــوا أن يكونوا وقود الثورة لا شـــرارتها الأولى، وللحقيقة فإن الثورة في ســـورية لم تقم على أيـــدي العلماء؛ وإنما كانت ثورة يقودها الشـــباب المثقف الواعي لأهميتها، المشبع بتعاليم الإسلام مع محاولة لحياة عصرية بقيم الحـرية والعـدالة؛ بل كان لبعض العلماء – لأســـف – دور محبط في قيـــام التظاهرات؛ إذ كانت صـــورة الثمانينيات جاثمة أمام أعينهم بمآسيها وبؤسها.

يوم ٢٠١١/٣/١٥م:

اختار شـــباب الثورة الخروج فـــي مناطق ذات بُعْد تراثي واجتماعـــي بغية تعاطـــف جماهير المواطنـــين معهم وكانت الشعارات حينها منادية بالحرية، مؤكدة على سلمية التظاهر وحق المواطن في إعلام حر، وسارت الشرارة الأولى للتظاهر من جامع بني أمية الكبير بدمشـــق مخترقة سوق الحميدية؛ وهو ســـوق تراثي ذو بعد سياحي (كان له في عام١٩٨٠م أثره في قلقلة النظام)، وهكذا ســـارت المظاهرة البســـيطة وسط ذهول تجار دمشق وحرفييها الذين تسمَّروا مكانهم من غرابة ما يقع وكان التعامل الأمني مقبولاً بالنســـبة لحجم المظاهرة؛ حيث جرى اعتقال بعض المتظاهرين والتعامل معهم على أنهم أفراد لا قيمة لهم في مســـار الأحداث، ولكنَّ الذي غاب عن بال النظام أن هذه المظاهرة شكلت الشرارة الأولى التي سوف تُشعِل الثوراة في كل المحافظات، وأنها كسرت حاجز الخوف الذي ران على قلوب الملايين سنوات طوال.

وبعدها بدأ يتنامى إلى أسماع المواطنين أخبار عن ملصقات على الجدران وكتابات تنادي بالحرية في شـــتى الأماكن؛ وهو ما أثار استغراب الأمن والمواطنين على حد سواء، ولم تتجاوز تلك المقولات شعارات الحرية والعدالة ومحاربة الفساد، ومن ثَمَّ قامت دعوات ليكـــون يوم ٢٠١١/٣/١٨ جمعة للتظاهرات فأخذت التنسيقات العفوية بُعْداً جدياً.

فـــي الجمعة المذكورة تداعـــت الجماهير في المحافظات الســـورية عبر شـــبكة من الوعي للقيام بالتظاهرات، فكانت مدينة درعا في الجنوب السوري هي السباقة لذلك، وخرجت الجماهير منادية بالإصلاح، وبما أن النظام لا يملك سوى لغة واحـــدة فقط تورط بالدم في درعـــا؛ وكان ذلك بعد أن خرج المحتجون مطالبين بأطفال لهم كتبوا شـــعارات مناوئة للنظام على طريقة المصريين، إلا أنهم فوجئوا بنيران الأمن السياسي برئاسة عاطف نجيب (ابن خالة الرئيس السوري) الذي تعامل مع الموضوع بالشق الأمني فقط متجاهلاً خصوصية المنطقة التي يحكمها، وهي التي تتميز بروابط عشائرية وعائلية كبيرة يصعب التعامل معها بمنطق التعسف وحدَه، فكانت هبَّة شعبية كبيـــرة لإنقاذ المدينة المبتلاة بشـــبابها، فلم يكن ردُّ النظام إلا مزيداً من الدماء، دخلت الأجهزة الأمنية بعد ذلك نفقاً مظلماً تتخبط فيه كل يوم بروايات مختلفة تزيد الوضع إرباكاً.

وفـــي مدينة حمص كانت الهبـــة الجماهيرية من جامع له رمزيته التاريخية وهو مسجد الصحابي الجليل خالد بن الوليد وبعض المساجد التي آزرته وســـط حشود أمنية لم تستطع ردَّ الجماهير عن بغيتها، ومن ثَـــمَّ تجمعت في مركز المدينة حتى دخلت في صـــراع مع الأجهزة الأمنية انفضت بعدها المظاهرة بعد أن كسرت حاجز الخوف من النظام.

مفاجآت الثورة:

لن ندخل في إطار سرد زماني للأحداث، فقد عُرِفَت من خلال شـــبكة الإنترنت؛ ولكننا لو أردنا الوقوف على التسلسل الزماني والمكانـــي للأحداث لوجدنا أنفســـنا إزاء مجموعة عوامل تستحق التأمل:

١ – لقد كان تفاعل أبناء الريف السُّـــني عموماً مع الثورة أمراً أثار الاســـتغراب من أبناء المدن، والاستهجان من النظام الـــذي كان يرى فيهم عملاء مطمئنـــين لنظامه بعد أن أتخم رؤوسهم بالكلام عن الإصلاح الزراعي وعقدة الريف والمدينة واضطهاد البرجوازيين من أبناء المدن لهم. ومنَّ عليهم بفتات من الوظائف الحكومية يتنافسون عليها، وهو ما جعل بعضهم يمثل الواجهة الخلفية للنظام الطائفي؛ لذلك كان مدهشاً حقاً ذلك التفاعل منهم.

ويرى المراقبون أن ذلك مردُّه إلى إحباط الأجيال المتلاحقة من أبناء الريف من أطروحات النظام وبعثه ولغته الخشـــبية التي لم تعد قادرة على حل مشاكلهم. أضف إلى ذلك أن توسع دائـــرة المعارف الإعلامية زاد من اطلاعهـــم على واقع كانوا يجهلونه. ولعلَّ الأجيال الشابة لها أثر في ذلك.

أضف إلى ذلك أن موجة مـــن الوعي الديني مردُّها إلى الانفتاح الإعلامي الذي اكتسح الشارع برمَّته وأصاب الريف منها خير وافر.

٢ – لقد وضع النظام نفسه في وضع لا يحسد عليه؛ وذلك باستعدائه لعشائر البدو عموماً وخاصة في حوران وضواحي مدينة حمص؛ فقد قام باستنفار بعض عناصره وتابعيه للتصادم مع البدو بقصد تأديب من شق عصا الطاعة منهم، ولم يدرك أن العقلية العشائرية أعقد من أن يحُلَّها التعامل الأمني فحسب؛ ففي حمص وجد النظام وأتباع طائفته أنفسهم في صراع مع عشائر العقيدات والفواعرة وبني خالد والمشاهدة وغيرهم؛ وذلك عندما قتل لهم عدداً من الشهداء في معارك هي أقرب إلى الانتقام، وأدرك النظام خطأه وحاول الاستدراك، ولكن سبق السيف العذل؛ فقد انضم عدد غير قليل من شباب البدو إلى المسيرات المؤيدة ولم تفلح جهود رؤساء العشائر في تهدئة الخواطر؛ بل وُجِدَت بعض الأشرطة والبيانات التي تدعوا للقيام على النظام من شباب العشائر؛ وتدعوا كذلك للتمرد على زعمائهم لِمَا رأوا فيهم من ممالأة للسلطة بغرض الانتفاع من وجودها.

٣ – أثبتت المسيرات المناهضة أن هذا الجيل قد تجاوز عقدة الخوف من بطش النظام، وأن منطق التظاهر السلمي هو أكثر إحراجاً للنظام من الحل المسلح؛ فهو لا يدع مجالاً للنظام ليمارس هوايته في سحق الأرواح دون رادع من ضمير، كما أثبت الشباب الثائر بكل أطيافه قدرته على استخدام وسائل التعبئة بقدرة فائقة وعقلية عملية تجاوزت كل العوائق الأمنية التي يضعها النظام في وجه التكنولوجيا، بدئاً بشبكة الاتصالات إلى عالم النت وغيره؛ فقد كانت الأحداث تصل مباشرة للقنوات الإعلامية على الرغم من كل المصاعب؛ ولذا كانت الأجهزة الأمنية حريصة أشد الحرص في المظاهرات على عدم السماح بالتصوير لأي صورة كانت، وشرعت في مصادرة أي أجهزة قد ترى فيها نوعاً من الإعلام المحرج.

الطائفية وادعاءات النظام:

لقد دأبت الحركة الاحتجاجية – رغم كل المآسي التي مرت بها – على الإصرار على طرح شعارات سلمية منادية بالحرية والمساواة ومحاربة الفساد الإداري وغير ذلك من شعارات التحرير. ولكن حجم التحرك الشعبي كان من الضخامة إلى درجة أحرجت النظام ووضعته أمام استحقاقات ضرورية نتيجة المطالب الشرعية التي اعترف بعض أعضاء النظام بها؛ لذلك لم يجد النظام أمامه إلا اللغة القديمة في الخطاب وهي نظرية المؤامرة التي تضع سورية دائماً ضمن هذه الدائرة؛ فهي مستهدفة – كما يدَّعون – من أميركا وإسرائيل ودول معسكر الاعتدال، ثم يفاجأ الشارع السوري بنظرية أن هناك من يريد إشعال فتنة طائفية بالنظام متكئين على كلمة ألقاها الدكتور يوسف القرضاوي[1] تدعم ما يذهبون إليه، وجيَّشوا لذلك الإعلام المرئي والمكتوب والمسموع بغية الرد على أولئك الذين يسعون لتخريب الوحدة الوطنية، ليجد المتظاهرون أنفسهم وسط دوامة من الخيانة والتهم الجاهزة؛ وذلك في ظل غيابٍ كامل لرئيس الجمهورية وإشاعات بقرب ظهوره على الإعلام. ولكن لم تظهر في تلك الفترة سوى مستشارة الرئيس بثينة شعبان، وأصبحت هي بوق النظام الذي يحاول تهدئة الأمور. وبدأت وعود النظام تنهال على الناس في الإصلاح وإزالة قانون الطوارئ وغيرها، كل ذلك على لسان المستشارة، وللحقيقة فقد وجد الثائرون أنفسهم أمام حدٍّ مقبول من الإصلاح لو تم؛ لذلك قاموا بعدة محاولات بقصد تهدئة الأمور ريثما يخرج الرئيس على الملأ يعلنها صراحة، وجاء خطاب الرئيس بعد حشد جماهيري مصطنع دعي إليه موظفوا الدولة وطلاب المدارس وعساكر الجيش، فجاء الخطاب ليشكل مفاجأة لأبناء النظام قبل معارضيه، وليشكل انتحاراً سياسياً للرئيس الذي استدعى في خطابه نبرة الثمانينيات التي استخدمها والده؛ والتي تخاطب الجماهير خطاباً ذا وتيرة استعلائية تتجلى في النبرة القومية لسورية ودورها الإستراتيجي في القضية الفلسطينية؛ وذلك مقدمة لما ظن الناس أنه سيكون قرارات إصلاحية، ثم يفاجأ الجميع بعدها بنظرية المؤامرة التي طرحها الإعلام نفسه وأن هناك من يهدد كيان البلد. وكانت التهمة جاهزة لكل من تسوِّل له نفسه انتقاد النظام وألا مكان للحياد في تلك الفتنة.

لقد وردت شائعات تقول بأن الرئيس إصلاحي وأن من حوله يُدفَعون للإصلاح دفعاً؛ وكان ذلك محاولة للظهور بمظهر المسيطر على الأحداث ليس أكثر.

بعد هذا الخطاب (الذي أسمته المعارضة بيان الحرب على التظاهرات) زادت المظاهر الأمنية بشكل ملفت للنظر وعم البلدَ مظاهر غريبة من رجال مدنيين بعصيٍّ، ودوريات تجول الشوارع، وغير ذلك من المظاهر التي استدعت للذاكرة مرحلة الثمانينيات من القرن الماضي، وظن ظانٌّ أن الثورة قد أجهضت في مهدها، ولكن إرادة الشعب كانت أكبر من ذلك، فأخذ يظهر بمظهر العنيد الذي لا يقهر.

(١) الكلمة هي: الأسد أسير طائفته.

فخرجت مظاهرة يـــوم ٢٠١١/٣/٢٥م لتكون أول مجزرة يرتكبها النظام بحـــق أهل درعا وضواحيها وأهالي اللاذقية، وبدأ الناس يسمعون لأول مرة عن مظاهر البلطجة والشبيحة الذين ســـماهم النظام (المندســـين)؛ وما هم – حقيقة – إلا جهـــلاء الطائفة وبعض أفراد الأمن مـــن ذوي المهام القذرة، وفُسِّر ذلك بأن النظام لا يستطيع الاستعانة إلا بأفراد الفرقة الرابعـــة وأفراد الأمـــن بأطيافه ولا يثـــق بالجيش لاحتمال اختراقه مـــن قِبَل بعض الجماعات والضبـــاط غير الموالين للسلطة، وجاءت نظرية الاستعانة بأفراد من حزب الله لتؤكد على تلك الفرضية، وكانت نتيجة كل ذلك عشـــرات الضحايا مـــن المدنيين الذين قُتِلوا بدم بارد وبشـــكل فظيع قنصاً على يد عصابات الأمن فكانت مجـــزرة في قرى حوران وحمص، ووصلت المظاهرات والمجازر للساحل السوري في صورة تمرُّد مدينة اللاذقيـــة ذات الأقلية السُّـــنية المضطهدة، وفي هذه المرحلة بدا النظام في صورة المضطرب الذي يهرب للأمام من أجل خطوات استباقية وبدأت تتفاقم مظاهر النقمة والغضب الشعبيين على النظام وقدوة القتل فيه متمثلة في ماهر الأسد (أخو الرئيس بشـــار) والقوى الأمنية عموماً، واستنفر الرأي العام العالمي ضد سورية وما تنجر إليه قواتها.

في هذه الســـياق وجد بعض علماء سورية أنفسهم أمام موقف تاريخـــي يجب أن يقولوا كلمتهـــم تجاهه، فكان بيان علماء حمـــص الذي أكد على مطالب الشـــعب بكل أطيافه؛ وهي التي تشـــمل الحرية والكرامة ومحاربة الفساد وغيرها من مطالب الإصلاح؛ مع أن الثورة لم تنشـــأ بدفع من العلماء أبـــداً؛ بل لعل دورهم كان مثبطاً في كثيـــر من الأحيان. كان هذا البيان بمثابة خروج من الصمت وإشـــعار بأن الشعب بدأ يصطف خلف قياداتـــه الدينية حتى التقليدية منها. وهذا ما لا يريـــده النظام الذي كان يرغب باظهـــار المتظاهرين كجُزُر معزولة لا يربطها رابط. ولذا سارعت الدولة بحركة استباقية إلى اســـتدعاء جميع الفعاليات الاجتماعية والدينية وشـــيوخ العشـــائر في محاولة للتهدئة ونزع فتيـــل الأزمة ومحاصرة الحَنَـــق الاجتماعي الذي يزداد باطراد، في هذه الأثناء عادت إلـــى الظهور شـــخصية رئيس الجمهورية ولوحظ انحســـار للمد الأمني عموماً، وهو ما فُسِّـــر من قِبَـــل بعض المتابعين بأنـــه امتداد للخط السياســـي الذي يرغب بالحل الســـلمي لمعالجة الأزمة، هذا الحل الـــذي يتبناه الرئيس مع مجموعة من المستشـــارين؛ وخاصة ضباط الأمن صغيري السن الذين درســـوا في الحياة الجامعية ولوحـــظ وجودهم في أكثر من قِطَاع أمني، ويغلب عليهم الحقوقيون بشكل عام، في مقابل ما بات يعرف بأصحاب الحل الأمني أو الاستئصاليين كما يحلو للبعض تسميتهم؛ وهم ثلة من قدامى رجال الأمن الذين تربى على عقليتهم شـــقيق الرئيس ماهر الأســـد. ويتصدر هؤلاء المستشارين هشام بختيار (شيعي دمشـــقي) واللواء (حافظ مخلوف) ابن عدنان مخلوف رئيس الحرس الجمهوري.

وبعد لقاء عدد من العلماء والفعاليات مع رئيس الجمهورية بجلســـة اتَّسمت بالمصارحة التامة من قِبَل العلماء لم تكن لها ســـابقة من قبل، طرح عليه العلماء مطالب الشعب، وأصروا على ضرورة معالجة القضايا المعقدة وعلى رأســـها المســـألة الأمنية التي يرونها لب العقدة وأم المشاكل، ثم طرحوا تعقيدات المسألة الطائفية وما تســـتتبعها من مشاكل، ووصلوا إلى أن الرئيس يفصله عن الشعب مسافات كبيرة، وأنه ربما لم يسمع ببعض هذه المشـــاكل من قَبْـــل وأن الموضوع من رؤيته ربما لا يتجاوز متطلبات معيشية أو حاجيات اقتصادية، وأن المشاكل الاقتصاديـــة في طريقها للحل مع إعطـــاء الدولة مهلة كافية لاستيفاء الدراســـات والمناقشات. أما في ما يتعلق بالمواضيع الشـــائكة فقد طلب منهم إمهال الدولة قليلاً لاستكمال بعض الإجراءات (غير المفســـرة) وربما يعتقـــد المراقبون أن الرجل غير ممســـك بكل مفاصل المسألة الأمنية وأنه ربما في إطار معالجتها.

ووعد أن القبضة الأمنية حتماً ستخف وكان في نبرته لمن قابلهم شيء من الاستجداء ومحاولة الاسترضاء؛ ربما لامتصاص النقمة التي لمسها فيهم، وطلب منهم المساعدة في محاولة التهدئة الشعبية ظناً منه أن العلماء هم الذين أخرجوا المظاهرات من المساجد، والحقيقة أن العلماء لم يستطيعوا أن ينقلوا تلك الثقة للناس وجاء يوم الجمعة ٢٠١١/٤/١٥م وخرجت المظاهرات غير مبالية بما جاء في لقاء الفعاليات مع رئيس الجمهورية لترى شيئاً مما وعد به حتى الآن؛ حيث لم يلمسوا حضوراً أمنياً ذا قيمة؛ وإنما مظاهر عادية لم تتعرض للمتظاهرين؛ بل تُركَت الجموع لتجوب شوارع سورية بهدوء وإن خرجت عن السيطرة في بعض الحالات وأسقطت تمثالاً للبائد حافظ الأسد؛ وهي جريمة لا تقل عقوبة مرتكبها عن الإعدام في وقت سابق.

رؤية مستقبلية :

يرى المتابعون للأحداث أن أمامنا ثلاثة سيناريوهات محتملة لسير الأحداث القادمة :

أولاً: أن تستمر التظاهرات بالوتيرة نفسها أو تزداد زيادة مطردة وينضم إليها أهالي العاصمة (وبدون انضمام أهلها لاتسقط حكومة)، وقد بدت إرهاصات ذلك في جامعة دمشق ومسجد الشيخ عبد الكريم الرفاعي، ولو تطور ذلك فسيجد النظام نفسه أمام سيل بشري كبير هادر يصعب عليه مواجهته؛ ولذا يعتقد المراقبون ومن خلال متابعتهم لشخصية الرئيس المهلهلة أن يتنازل عن الحكم ويغادر البلاد إلى بريطانيا التي تأكدنا أنها أعطته جنسيتها نظراً لزواجه من بريطانية من أصل سوري منذ 4 سنوات؛ علماً بأن ذلك مخالف للدستور السوري الذي ينص على أن رئيس الجمهورية يجب أن يحمل الجنسية السورية فقط.

ثانياً: أن يفشل الحل السلمي ويسيطر الاستئصاليون على الحكم ويعيدوا للأذهان شيئاً من مآسي حماه في قمع الشعب ضاربين بذلك عرض الحائط بكل المواثيق والقيم الدولية متكئين على علاقتهم القوية بإيران كقوة إقليمية قادرة على حمايتهم في المحافل الدولية مستغلة علاقاتها الجيدة بالصين وروسيا. ولكن المتابعين يستبعدون هذا الاحتمال لسبب واحد فقط؛ وهو وجود تركيا لاعباً إقليمياً ودولةً لها حدود مع سورية، ويهمُّها ألا يصاب الاستقرار في سورية بأية هزة بل يعتقد بعض المتفائلين أن تركيا ربما لن تقف مكتوفة الأيدي في المسالة السورية.

ثالثاً: أن يستجيب الرئيس لمطالب الجماهير تحت زيادة الضغط الاجتماعي ويقوم باصلاحات جدية: من إفراج عن المعتقلين، وأن يصدر قانون وئام عام (سمعنا عنه منذ 10 أعوام) يقضي بعودة المهجرين. وهذه الممارسات - إن جرت - ربما ستخفف النقمة الشعبية عند الناس، وربما يقبلون به مرحلة انتقالية ريثما تنتهي ولايته ثم يمضي لحاله وهذا السيناريو ربما هو الأكثر قبولاً لدى الناس؛ على الأقل في المرحلة الحالية تجنباً لأي حالة من الفراغ قد تجر صعوبات على البلد في ظل المسألة الطائفية التي افتُعلت من قِبَل أبناء الطائفة وغيرهم من الأجهزة الأمنية الذين سيبقون في الشارع لو زال النظام، وسيسببون حرجاً لكل جديد على الحكم فحبذا.

الآن..

" من لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أُغلق عليه باب التدبر "

بدر
٠٥٠٨٩٤٨٩٤٧

الرياض ـ هاتف ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس ٤٥٣٢١٢١

المشاريع ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ - ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ - ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ - ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ - ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ الجنوبية ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

الشرقية ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ القصيم ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

سوريا...
آفاق الحركة الشعبية ومطالبها

د. بشير زين العابدين

استطاعت حركة الاحتجاجات الشعبية في غضون أربعة الأسابيع الأُوَلى أن تفرض على القصر الجمهوري تشكيل حكومة جديدة، وانتزاع «وعود» برفع حالة الطوارئ ثم رفعت، والسماح بتعدد الأحزاب، وإصدار قانون للإعلام.

وعلى الرغم من تواضع هذه الإنجازات؛ مقارنة بحجم التضحيات التي قدمها الشعب السوري لنيل حريته؛ إلا أن انعكاسات هذه الحركة كان لها أثر بالغ على النظام السوري، الذي يرتكز استقراره على إثارة الأزمات الإقليمية والدولية.

ففي الفترة التي سبقت ١٥ مارس ٢٠١١م، كانت القوى الأمن السوري تمارس نشاطها المعتاد في عمليات تهريب الأسلحة وتوفير التسهيلات لمشروع التوسع الفارسي؛ حيث وصلت إلى ميناء اللاذقية في نهاية شهر فبراير سفينتان حربيتان إيرانيتان، وهما: سفينة الإمداد «خرق» التي يتألف فريقها من ٢٥٠ بحاراً، والفرقاطة «الفاند» التي تحمل طوربيدات وصواريخ مضادة للسفن، وجاءت هذه الأنباء وسط الحديث عن نوايا إيرانية بتأسيس وجود عسكري دائم في أحد موانئ سوريا.

وفي ١٥ مارس تم اعتراض سفينة متجهة من موانئ سوريا إلى لبنان وبحوزتها صواريخ (أرض – بحر) موجَّهة بالرادار، وفي اليوم التالي أجبرت مقاتلتان تابعتان للجيش التركي طائرة شحن إيرانية كانت متجهة إلى مدينة حلب على الهبوط، وتبيَّن أنها كانت تنقل قذائف مدفعية بعيارات مختلفة، وبنادق أوتوماتيكية لتصديرها إلى جهة ثالثة، واعترفت السلطات التركية بصعوبة وقف شحنات الأسلحة والمعدات الإيرانية إلى لبنان عبر سوريا؛ إلا أن حركة الاحتجاجات الداخلية قد تمكَّنت من إيقاف هذه الحركة النشطة بسبب توتر الأوضاع في المناطق الحدودية، وصعوبة الاستمرار في الوقت الحالي عقب تسليط الأضواء الإعلامية عليها.

(*) أكاديمي سوري.

تأثير الاحتجاجات الشعبية على النظام:

في محاولة لتشويه سمعة المحتجين، وتأكيد نظرية المؤامرة؛ عرض الإعلام السوري صوراً لأسلحة ادَّعى أنها صودرت في المسجد العمري بدرعا، وأخذت خيوط «المؤامرة» المزعومة تتكشف يوماً بعد آخر عبر تصوير مزيد من الأسلحة المصادَرة من مناطق حدودية مختلفة، واتهام الإعلام السوري مسؤولين لبنانيين، وإسلاميين محليين، ومخربين مجهولين بتهريب الأسلحة عبر الحدود من لبنان والعراق.

ولإثبات حجته؛ فقد عرض التلفزيون المحلي مشهداً مألوفاً منذ نهاية السبعينيات، يتضمن اعترافات أفراد «عصابة تخريبية»، وشهادات ضحايا مفترضين، وتوجيه أصابع الاتهام لصحفيين غربيين بهدف صرف مشاعر السخط الشعبي نحو الخارج.

وبعيداً عن تفاصيل هذا المشهد المكرر، تؤكد المصادر وجود أزمة فعلية يواجهها النظام؛ فحالة الارتباك الأمني قد أودت بحياة مئات القتلى في جميع المدن السورية، ومثلت التغطية الإعلامية الدولية تحدياً غير مسبوق لنظام قام على الرقابة والتعتيم، وغدت مشاهد الاعتقال التعسفي والتعذيب علنية بعد أن كانت تقتصر على الزنازين والسراديب.

ولكن تأثير هذه الحركة لم يتوقف عند تعرية السياسة الأمنية للنظام؛ بل كشف عن مظاهر خطيرة يمكن إيجازها في ما يأتي:

أولاً: الآثار الاقتصادية:

ألقت حركة الاحتجاجات بثقلها على الأوضاع الاقتصادية المتردية في سوريا؛ حيث تتعرض حركة التبادل التجاري إلى شلل شبه كامل؛ فقد توقفت حركة التصدير، وندرت بضائع كثير في الأسواق المحلية نتيجة بطئ حركة الاستيراد، وظهرت الصورة المروعة في المناطق الحدودية؛ حيث تتكدس ٢٥٠٠ شاحنة على الحدود اللبنانية السورية، ونحو ٣٠٠٠ شاحنة على الحدود مع كلٍّ من الأردن والعراق، وهو ما تسبب بخسائر كبيرة لشركات الاستيراد والتصدير التي يديرها أشخاص مقربون من القصر الجمهوري[١]؛ إذ تدير أجهزة الأمن السوري أكبر شبكة تهريب في الشرق الأوسط، ولا يسمح النظام بممارسة هذا النشاط إلا لشخصيات مقربة من عائلة الرئيس.

لكن السماح لهذه الحركة بالاستمرار اليوم يعود على النظام بأضرار بالغة؛ حيث يتزايد القلق الرسمي من إمكانية استخدام حركة المواصلات عبر سوريا بطريقة قد تضر بالأمن السوري؛ ونتيجة لذلك فقد اتخذ النظام إجراءات صارمة لمراقبة طرق المواصلات، تتمثل في نشر المدرعات في الطرق الرئيسية، وتكليف عناصر الاستخبارات بمراقبة المناطق الحدودية، ورصد تحركات القبائل التي تتمتع باتصالات وثيقة مع قوى إقليمية.

ويبدو أن حركة تصدير الأسلحة الإيرانية عبر المعابر السورية قد تأثرت كذلك؛ فقد سُلِّطت الأضواء على نشاط عصابة «الشبيحة» وبعض قوى الأمن في عمليات التهريب، وهو ما أدى إلى عرقلة هذه الحركة النشطة، واضطرار النظام السوري لمدِّ يد العون إلى حلفائه بطهران؛ إذ تؤكد المصادر الغربية أن الاستخبارات الإيرانية قد قدَّمت في الأسابيع الماضية مساعدات تقنية لا تتوفر لدى السوريين في مجالات الرقابة، ورصد تحركات المعارضين من خلال: مراقبة الاتصالات الهاتفية، والرسائل النصية، ومراسلات شبكة الإنترنت؛ وهو ما دفع بالسلطات الأمريكية للتلميح بعلمها عن هذا النشاط الاستخباراتي القائم بين الدولتين[٢].

الآثار الأمنية:

لم تنجح إستراتيجية النظام السوري في احتواء حركة الاحتجاجات الشعبية حتى الآن؛ فقد أدى استخدام القوة المفرطة إلى توسيع نطاق الحركة لتشمل سائر المدن السورية، واستقطاب عناصر كانت تُعَدُّ في السابق حليفة للنظام، وبالإضافة إلى توتر الأوضاع في المحافظات الحدودية مع كلٍّ من لبنان وتركيا والعراق، ينتشر السخط بين أبناء قرى جبل الأنصارية؛ وخاصة في صفوف أسرة كنعان التي تخوض صراعاً مع عصابة «الشبيحة»[٣]، وكان وزير الداخلية الأسبق غازي

(١) المستقبل (٢٠١١م) «أزمة عبور الشاحنات بالعبُّودية على حالها، وتداعيات على التبادل التجاري مع الدول العربية»، المستقبل الاقتصادي، ١٦ أبريل ٢٠١١م، العدد ٣٩٧١.

(٢) France ٢٤، ١٥ th April / ٢٠١١م.

(٣) الشبيحة: عصابة خارجة عن القانون، يقدَّر تعداد أفرادها ما بين ٩ إلى ١٠ آلاف عنصر، تنشط في الساحل السوري، ويقودها أفراد من آل أسد من أبرزهم: منذر أسد، وهلال أسد، وأمير أسد، وحافظ أسد (الصغير)، وعلي أسد، وشخص يسمى: «شيخ الجبل»، وسومر أسد، وسوار أسد، ويشمل نشاطها: تهريب مختلف البضائع كالدخان، والمخدرات، والكحول، والخمور، والأسلحة، والسيارات المهربة والمسروقة، وقطع الغيار، والأجهزة المنزلية، والسجاد. وهم لا يتوانون عن قتل أي أحد يعارضهم، ولهم نقاط تفتيش خاصة بهم داخل مدينة اللاذقية وخاصة في حي الزراعة حيث يوجد منزل فواز الأسد وشيخ الجبل.

كنعان قد حاول الحد من نشـــاط هذه العصابة؛ لكنه اصطدم مع نمير بن بديع أسد (أحد أبناء عمومة الرئيس)، ومع عاطف نجيب (ابن خالة بشـــار أسد)، وفوجئ بموقف الرئيس السوري الذي لم يكون مؤيداً له، ثم أعلنت الســـلطات عن انتحاره عام ٢٠٠٥م، ومقتل شقيقه بعد ذلك في ظروف غامضة.

ولا تقتصر مشاعر السخط بين صفوف العلويين على أسرة كنعان، بل تمتد لتشـــمل عوائل كثيرة كانت تُحسَب على النظام في عهد حافظ أسد، ولكنهم في السنوات العشر الماضية فقدوا جميع وسائل التواصل مع القصر الجمهوري، وأخذوا يتذمرون من إهمال مناطقهم، وتســـريح أبنائهم من الجيش وقوى الأمن، واعتماد بشار على دائرة مغلقة من أقاربه.

وفي الوقت ذاته؛ ارتكب أفراد عصابة «الشـــبيحة» خطأً كبيراً عندما استهدفوا مختلف شرائح الساحل السوري، ولم تفرِّق أعمالهم القمعية بـــين طائفة وأخرى، كما يتهمهم أبناء اللاذقية وجبلـــة وبانياس بإطلاق النـــار على بعض عناصر الجيـــش لإثارة الفوضـــى ودفع النظام إلـــى الاعتماد عليهم بصورة أكبر في حفظ الأمن والاعتراف بدورهم في المنطقة.

ويبدو من الواضح أن النظام الســـوري قد أصيب بحالة ارتباك أفقدتـــه توازنـــه وقدرَتَه على توظيـــف التناقضات المحلية لصالحه؛ فبالإضافة إلـــى مواجهة القبائل المعارضة في صفوف العلويين، وقتل أكثر من مائتين من أبناء العشـــائر الرئيســـية بحوران، واســـتفزاز الأكراد الذين انضموا لحركة الاحتجاجات؛ تورطت قوى الأمن في مواجهة غير محســـوبة مع أبناء جبل العرب جنوب سوريا؛ حيث أصيب في ١٧ أبريل خمسة من أبناء السويداء بجروح على يد عناصر «الشبيحة»، وذكر ناشـــطون حقوقيون أن هاني بن حسن الأطرش (حفيد ســـلطان باشـــا الأطرش) أصيب بجروح إثر تعرُّضه للضرب المبـــرح مـــن قِبَل المعتديـــن؛ وذلك في اليوم الـــذي يصادف الاحتفالات الرسمية بذكرى الجلاء.

ويتردد الحديث عن انضمام قبائل في الشـــمال الشرقي لحركـــة الاحتجاجات؛ حيث يتوجس النظـــام خوفاً من قيام بعض فروع قبيلة شَمَّر بالتعاون مع قوى يعتبرها مناهضة له.

وفي الفترة نفسها بدأت تظهر ملامح حَراك طلابي أعاد إلى الجامعات الســـورية دورها السياسي في مرحلة ما قبل البعث، من خلال خروج المظاهرات في جامعتي دمشق وحلب.

الآثار الإعلامية:

وبالإضافة إلى تردِّي الأوضاع الاقتصادية، وانتشار حالة الســـخط الشعبي بين جميع أبناء المجتمع السوري؛ فإن عجز النظام عن الســـيطرة على الأوضاع الأمنية أصبح مؤشـــراً خطراً لا يمكن تجاهله، وتتجلـــى الصورة في قصور الإعلام السوري عن مستوى الحدث، من خلال إظهار النظام بمظهر الضحية، وادِّعاء تعرُّض أجهزة الدولة لنيران المحتجين.

لكـــن هذه المســـرحية لم تنطلِ على الفضائيات ووســـائل الإعلام الخارجي؛ حيث تظهر الصورة البشـــعة لعمليات القتل الجماعي، وحملات الاعتقال العشـــوائي، ومشـــاهد التعذيب العلني، وانتشار نقاط التفتيش والمراقبة في سائر مدن القطر الســـوري، وتدهور حركة المواصلات، وصعوبة وصول الأغذية إلى بعض المناطق، وتصوير حالة الهلع التي تنتاب عناصر الأمن لدى رؤية جموع المحتجين، وهو ما يدفعهم إلى إطلاق الرصاص الحي وكأنهم في ساحة القتال مع «العدو الصهيوني».

وتؤكد التقارير الإعلامية انتشار حالة التذمر في صفوف القوات المسلحة؛ حيث ثبت قيام بعض ضباط الفِرَق في درعا وحمـــص وبانياس بقتل عناصر من الجيش بســـبب رفضهم إطلاق النار على المتظاهرين.

ونتيجـــة لهـــذه الأخطاء الفادحـــة؛ فقد واجـــه النظام الســـوري حملةً إعلاميةً غير مسبوقة، انضمت إليها صحف كانت في السابق محســـوبة عليه[1]، وفي الوقت نفسه بدأت تتعالى أصوات المسؤولين الغربيين للمطالبة بحماية المحتجين السوريين من قوى الأمن.

(١) انظر – على سبيل المثال – الخطاب المفتوح الذي وجهه رئيس تحرير صحيفة السفير اللبنانية طلال سلمان بتاريخ ١١ أبريل ٢٠١١م.

ملامح المبادرة السياسية الرسمية:

يشهد القصر الجمهوري في الأسابيع الماضية اجتماعات مكثفة لأعضاء القيادة القطرية، ومجلس الأمن الوطني، الذي شكل لجاناً قانونية وإعلامية وأمنية، لتقييم الأوضاع ودراسة سبل الخروج من الأزمة الراهنة.

ويسود اعتقاد لدى أركان النظام أن سياسة القمع قد أثبتت فشلها، كما أن مؤسسات الإعلام المحلي لم تكن بمستوى الحدث، ويبدو أن القصر الجمهوري يتجه نحو تقديم تنازلات وهمية تمثل تجاوباً شكلياً مع مطالب المحتجين؛ إذ تلوح في الأفق ملامح مبادرة سياسية تهدف إلى تخفيف حالة الاحتقان، وتتمثل هذه المبادرة في ثلاث محاور رئيسة:

١ – رفع حالة الطوارئ.

٢ – السماح بتعدد الأحزاب.

٣ – وضع قانون للصحافة والإعلام.

ولمعرفة مدى جدية القصر الجمهوري في الاستجابة لمطالب الشعب، لا بد من الوقوف عند فلسفة النظام لمفهومي: (الإصلاح، والانفتاح): فقد عبر بشار أسد في مناسبات كثيرة عن رغبته في الانفتاح السياسي من خلال ترسيخ دور الجبهة الوطنية التقدمية، والسماح لأحزابها بإصدار الصحف[١]، وتأتي هذه السياسة من خلال قناعة الرئيس بأن الانفتاح يجب أن يكون: «منظَّماً وأن يبدأ من الداخل؛ لأنه إذا جاء من خارج النظام فإنه يحمل السمة الانقلابية».

وترسيخاً لمبدأ الانفتاح من الداخل؛ وعد رئيس الجمهورية برفع حالة الطوارئ مع التذكير بضرورة الالتزام بقانون «الإرهاب» المزَمع إصداره، وركز في خطابه الثاني على حزمة من التدابير الأمنية، تتضمن تعزيز دور وزارة الداخلية، وتوجيهها للقضاء على «المؤامرة» ووأد «الفتنة».

أما عملية التواصل مع المجتمع فتتمثل في نظر الرئيس في التحاور مع النقابات والمنظمات الشعبية، وهي مؤسسات نشأت في ظل الحكم الحالي، ويهيمن عليها عناصر البعث وعملاء الأمن، ومن ثَمَّ فإن النظام لا يزال مصرّاً على محاورة نفسه، ورفض الحوار مع أي جهة تخرج عن إطاره.

وقد تجلى مفهوم الرئيس للانفتاح في حكومته الجديدة التي يترأسها بعثي مغمور، وتهيمن عليها الوجوه القديمة من عناصر الحزب، وتضم في عضويتها متهمين بجرائم ضد الشعب السوري.

أما مفهومي: (المحاسبة، ومحاربة الفساد)، فيتلخصان عند رئيس الجمهورية بممارسة دوره في: «مراقبة الوزراء ومحاسبتهم»، وحثِّهم على الكشف عن ممتلكاتهم، وحضهم على الشفافية، ولا بد من التأكيد على أن اختزال مهمة «الرقابة» في محاسبة رئيس الجمهورية لوزرائه، هو في حقيقته ترسيخ للحكم الشمولي، ويهدف بشار منه إلى تجنيب أقاربه أي فرصة للمحاسبة، ويغيِّب الآليات الفعلية التي يتوجب استحداثها لممارسة أعمال التدقيق والمحاسبة[٢].

ولا بد من التأكيد على أن بشار لا يستطيع إحداث تغيير جذري في بِنيَة نظام الحكم، الذي أُرسيَت قواعده خلال نحو خمسة عقود، ولا يُتوقَّع منه تحقيق أي انفراج يذكَر في ظل هيمنة أقاربه وأفراد عائلته على المقدَّرات الاقتصادية للبلاد، وتَغلغُلِ عناصر حزب البعث في جميع مؤسسات الدولة[٣]، وهيمنة أجهزة الأمن على مفاصل المجتمع.

ويتجاهل الرئيس في خطابه ما يمثله الحكم الشمولي من عبئ على الاقتصاد الوطني؛ فأعضاء حزب البعث يتجاوز عددهم ١.٩ مليون عضو، ويقدَّر تعداد قوى الأمن وفِرَق حماية النظام بنحو نصف مليون عنصر، وهي فئات غير منتجة بالمفهوم الاقتصادي؛ بل تعتمد على قطاع إنتاجي محدود، وعلى الرغم من سوء أثرها على الاقتصاد المحلي؛ فإن هذه الأجهزة تمثل أركان الحكم الذي يستقر عليه توازن النظام.

وبناءً على ذلك فإنه لا بد من التمييز بين الإجراءات الشكلية التي تتخذها السلطة للتخفيف من وطأة النظام

(١) أحزاب الجبهة التقدمية بعد توسيعها هي: حزب البعث العربي الاشتراكي، جناح الحزب الشيوعي السوري برئاسة وصال بكداش، جناح الحزب الشيوعي السوري برئاسة يوسف فيصل، حزب الاتحاد الاشتراكي، الحزب الوحدوي الاشتراكي برئاسة فايز إسماعيل، الحزب الاشتراكي برئاسة أحمد الأحمد، الحزب الوحدوي الاشتراكي الديمقراطي المنشق عن الوحدويين الاشتراكيين برئاسة فضل الله ناصر الدين، حزب الوحدة العربية الديمقراطي برئاسة غسان أحمد عثمان، وحزب العهد الوطني.

(٢) لمزيد من التفصيل يمكن مراجعة: بشير زين العابدين، الفساد في سوريا حقائق وأرقام، فصل: «البدايات الخاطئة في عهد بشار»، ص ١٣٥ – ١٥٠. مركز الدراسات الإسلامية (٢٠٠٠م).

(٣) بلغ عدد أعضاء حزب البعث سنة ٢٠٠٠م: ١٩٠,٤٥٨٠ عضواً، منهم ٤٠٦,٠٤٧ عضواً عاملاً، ويوجد في الجيش السوري ٢٧ فرعاً لحزب البعث و ٢١٢ شعبة، و ١٦٥٦ حلقة حزبية بلغ عدد أعضائها ٢٥,٠٦٦ عضواً، وتشير المعطيات إلى تغلغل الحزب في قطاعات أخرى غير المؤسسة العسكرية، حيث إن ٩٩٨ من أصل القضاة العاملين في سورية الذين يبلغ عددهم ١٣٠٧ هم حزبيون، ويبلغ عدد الحزبيين من محاضري جامعة دمشق ٥٦٪، و ٥٤٪ من محاضري جامعة حلب، و٧٩٪ من محاضري جامعة تشرين، و ٨١٪ من محاضري جامعة البعث، ويهيمن الحزب على وسائل الإعلام بصورة مطلقة.

الشـــمولي، وبين ســـعي أقطاب القصر الجمهوري إلى عدم إحداث تغييـــر جذري في بِنيَة النظام؛ حيث إن اســـتحداث أي تغيير أساســـي في بِنيَة حزب البعث أو تشكيلة الحكومة والمؤسسات الأمنية؛ سيؤثر على استقرار نظام الحكم وتوازنه، وبشـــار أســـد هو جزء من هذه المعادلة؛ ولذلـــك فإن فكرة الاستجابة لمطالب الشعب لا تزال بعيدة كل البعد عن خطاب الرئيس ومفهومه للإصلاح.

وعلى الرغم من جدليات الرئيس المكررة، وخطاباته التي لا تزال ترتكز على الوعود الفضفاضة؛ إلا أن وزير الخارجية البريطاني قد سارع إلى الترحيب بها، وكان ردُّ الفعل الفرنسي شـــبيهاً حيث أكدت وزارة الخارجية الفرنســـية على ضرورة التقيـــد بالإصلاح وعدم تأييد فكـــرة: «الإطاحة بالحكومات فـــي المنطقة»، وتأتي ردود الأفعال الغربية هذه في ظل قناعة دوائر القرار الإسرائيلية والأمريكية بأن أضرار سقوط النظام السوري ستكون كبيرة، ولا تزال الدول الغربية تفضل الوصول إلى صيغة تعاون مع النظام الســـوري في الشؤون الإقليمية، بدلاً من الاضطرار إلى التعامل مع سلطة بديلة لا يضمنونها.

حتى لا تُسرَق الحركة الشعبية:

تنذر الظروف المحليـــة والدولية في الأيام القادمة بولادة مشـــروع إصلاحي شـــكلي لا يمس جوهر الحريات والحقوق الأساسية للشعب الســـوري، بل يمثل محاولة يائسة من قِبَل النظام الســـوري للخروج بمبادرة سياسية تحتفظ بمكتسبات أقطابه، من خلال رفع شعارات واتخاذ إجراءات لا ترقى إلى مستوى الطموح.

وفي مقابل التخبط السياســـي الرســـمي، ظهرت حركة الاحتجاجات الســـورية بمظهر يدعو إلى الاحترام والتقدير، من حيث ســـموُّها على المناورات السياسية، وتوازن شعاراتها المرفوعة، ومحافظتها على السلمية، بالإضافة إلى استيعابها لجميع مكونات المجتمع.

وحيث إنه لا يمكن التعويل على النظام ولا على الضغوط الخارجية للخروج بمشـــروع إصلاح فعلـــي؛ فإنه يتعين على الحركة الشـــعبية أن تأخذ بزمام المبـــادرة، وأن تُثبِت قدرتَها على التفاعل مع هذه المستجدات.

وحتـــى لا يضيع زخـــم الاحتجاجات الشـــعبية في أتون الشعارات الرســـمية، ومظاهر الاحتفالات المرتقبة بالإصلاح الشكلي؛ فإنه يتيعن الخروج بحزمة مطالب واضحة وموحدة يُجمِع عليها أبناء القطر السوري.

كمـــا ينبغي المبادرة إلى إيجاد قيادة سياســـية قادرة على تمثيل هـــذه المطالب أمام الرأي العـــام، وتوضيح عدم جدية النظام في تحقيقها.

ولا بد من الرقي بمســـتوى الخطـــاب الإعلامي للحركة الشعبية، حتى لا تنخدع وسائل الإعلام بالمزايدات والشعارات التي يطلقها النظام.

وعلى الرغم من أن حركة الاحتجاجات الشـــعبية لا تزال تعيـــش في مراحلهـــا المبكرة؛ إلا أنه يمكن تتبُّـــع ارتفاع نبرة الأصوات الواعية التي تنـــادي بضرورة تحقيق جملة مطالب شعبية على الأصعدة السياســـية والاقتصادية والاجتماعية، وتتضمـــن: رفع قانون الطوارئ، وإقامة حوار وطني شـــامل، وإقالة الحكومة المعيَّنة التي لا تمثل الشـــعب ولا تســـتجيب لمتطلبـــات المرحلـــة، وإلغـــاء دور حزب البعث في الســـلطة والمجتمع، وتحرير القضاء وأجهزة الإعلام، ومحاســـبة أركان القصر الجمهوري والمقربين منه في قضايا الفســـاد، وتقديم قادة الفِرَق العســـكرية المتورطة فـــي قتل المدنيين للمحاكمة، وتســـريح أفرادها، والإفراج عن جميع المعتقلين السياسيين، والكشف عن مصير آلاف المفقودين، والحد من دَوْر المؤسسات الأمنية التـــي تخضع لإدارة القصر الجمهـــوري؛ إذ لا يمكن أن تقوم سياســـة الانفتاح ومرحلة الحريات العامة على ثلاث عشرة مؤسسة أمنية يديرها القصر الجمهوري.

أوراد

أهل السنة والجماعة

من القرآن الكريم وصحيح السنة والنبوية

قال شيخ الإسلام: (فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان).

في هذا الكتاب..

الثناء • الصلاة على الحبيب • الاستغفار • السؤالات • الاستعاذات

تفريج الكرب والهم • الرقية الشرعية • أذكار الصباح والمساء

للتوزيع الخيري والمبيعات في المملكة العربية السعودية - اليمن - السودان

دار رسالة البيان للنشر والتوزيع - هاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ - تحويلة ٥٠٢/٥٠٠ - جوال : ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

المنطقة الغربية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ - المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨ - القصيم : ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

الشرقية : ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ - مكة : ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠

دولة الأشباح

د. يوسف بن صالح الصغير(*)

أثناء اشتعال الثورة التونسية جلستُ بجانب أحد الأصدقاء في إحدى المناسبات الاجتماعية فسألني: من التالي؟ فقلت له بسرعة: سورية. فأبدى استغرابه؛ خاصة أن مصر مرشحة أكثر للتغيير، وأن النظام السوري يرتكز على طائفة، وله باع طويل في قمع المعارضين! وكان ردِّي: أن الطائفة النصيرية تمثل أساسَ قوة النظام ونقطةَ ضعفه القاتلة في الوقت نفسه؛ فالاستقطاب الطائفي سيضع النظام وطائفته في زاوية ضيقة؛ خاصة مع بوادر الاحتقان السُّني الشيعي في العالم الإسلامي. وتوقَّف النقاش هنا ولا أكتم القارئ الكريم أنني كنت اتفق مع أخي في الترتيب ولكن كنت أريد لفت النظر إلى أن سورية مؤهَّلة للتغيير الذي ستكون آثاره عميقة؛ بل أكثر وضوحاً من تأثير التغيير في مصر.

يمثل الأسد الابن المثال الأول والوحيد حالياً لما يمكن تسميته بالجمهورية الملكية، التي كان من المقرر تعميمُها في عالمنا العربي المنكوب بديلاً مثالياً لمرحلة ما بعد جمهورية الفرد المطلَقة التي انتهت صلاحيتها بالموت أو العجز. لقد كان موت حافظ الأسد نهاية حقبة طويلة من التاريخ السوري الحديث الذي يمكن تقسيمه إلى أربع مراحل:

الأولى: تبدأ بسقوط دمشق بيد الإنجليز وأتباعهم من العرب، وتولية فيصل بن الحسين ملكاً على سورية الكبرى باستثناء فلسطين وشرق الأردن.

والثانية: مرحلة الاحتلال الفرنسي التي تميزت بسلخ لواء الإسكندرونة وضمِّه إلى تركيا، وفصلِ لبنان. وكان الحكم يدار بواسطة حكومة برلمانية تحت سلطة الاحتلال.

أما الثالثة: فهي مرحلة ما بعد الاستقلال، وتميزت بصراعات سياسية حزبية تخلَّلتها انقلابات عسكرية وإعلان الوحدة مع مصر حلاً للخروج من حالة الصراع السياسي

(*) أستاذ مشارك في كلية الهندسة – جامعة الملك سعود – الرياض.

الداخلي؛ ولكنها أججت الصراع وانتهت بالانفصال الذي تلاه سلسلة انقلابات عسكرية حزبية واستلام حزب البعث للحكم.

وأما الرابعة: وهي المرحلة البعثية التي تميزت بسلسلة من الصراعات الداخلية في الحزب بين الأجنحة المختلفة؛ فقد كان حزب البعث العربي الاشتراكي الذي كان شعاره (وحدة، حرية، اشتراكية) مظلةً انضوى تحتها القوميون واليساريون، والأهم أنه كان محضن الأقليات التي تسلَّلت عن طريقه إلى قيادة الدولة، وانطلت على الأكثرية السُّنية مقولة: «فلا دين يفرقنا»؛ فرضيت أن تكون واجهة للأقوى في الحزب الذي شهد طرد المؤسس النصراني ميشيل عفلق، وتبعَه تصفيةُ القيادات الإسماعيلية والدرزية، وسيطر النصيريون على الحزب والدولة بتولي حافظ الأسد وزارة الدفاع، ولم يكن نور الدين الأتاسي الطبيب السُّني المغفَّل إلا واجهة مؤقتة، ولم تكن إزاحته تحتاج لأكثر من ثورة تصحيحية أوصلت حافظ الأسد للحكم ولا أدري: هل الطائفة حكمت عن طريق الأسد كما يشاع، أم أن الأسد حكم بواسطة الطائفة والحزب؟ عند استقراء الأحداث نجد أن لازمة الواجهات السُّنية ما زالت حاضرة؛ فمن مصطفى طلاس مروراً بعبد الحليم خدام وانتهاء بوليد المعلم. بينما الدولة الأمنية قامت على أمثال علي دوبا ورفعت الأسد شقيق حافظ، والآن على ماهر شقيق بشار وعلى صهره آصف شوكت؛ في تكرار للأدوار مع تغيُّر الأشخاص. لقد كان الأسد يحكم واستغل الجميع وأبعد كلَّ من انتهى دوره أو تجاوز حدوده، وكان يُعِدُّ ابنه باسلاً لخلافته بصورة ظاهرة، ولكن موت باسل المفاجئ في حادث سيارة – كما يقال – حطم قلبه واضطره لمحاولة تأهيل ابنه الثاني بشار، الذي كان بعيداً عن السياسة قانعاً بالتنعُّم بمنصب ابن الرئيس وكفى، ولكن موت أبيه دفع به إلى الواجهة، ولم تكن صفات: (شاب مثقف ومهذب مانعة) من توليِّه رئاسة دولة بوليسية وتحمُّلِ تَركَتِها؛ فالمطلوب منه فقط أن يكون واجهة مقبولة؛ أي أن يكون قادراً على الكلام بدون أن يتلعثم؛ أما ممارسة السلطة ورسم السياسات وتنفيذها فلا داعي أن يشغل نفسه بها. وفي سابقة تاريخية اجتمع مجلس الشعب وأقر تعديلاً دستورياً خلال ثلاث ساعات، ينص على تخفيض عُمُر الرئيس بما يتناسب مع عمر بشار.

بشار الذي أكثر الحديث عن الإصلاح، وخلال عشر سنوات من حكمه وصلت الإصلاحات إلى مرحلة كتابة المسودة كما صرَّح في خطابه الأول أثناء الأحداث. وبالطبع لم يتبقَ إلا تنقيح المسودة وتطبيقها، وكما صرح الرئيس في خطابه الثاني أنه يريد الإصلاح «بسرعة، ولكن دون تسرُّع».

إن الحقيقة هي أن الرئيس بشار قد مارس دورَه المرسوم باقتدار وقاد سورية وَفْق المنهج المرسوم من أيام والده، والقائم خارجياً على أسس ثابتة أهمها:

- التحالف الإستراتيجي مع إيران: سواء كانت إيران الشاه، أو الخميني، أو خامئني أو... لا يهم.
- محاولة السيطرة على لبنان: ولا مانع في سبيل ذلك من التحالف مع الكتائب المارونية والتنسيق مع إسرائيل وأمريكا لتصفية السلاح الفلسطيني المقاوِم في لبنان، وتبنِّي الشيعة ودعمهم بصورة مباشرة عن طريق حركة أمل أو عن طريق إيران من خلال حزب الله.
- محاربة التيارات الإسلامية السُّنية المختلفة وتشجيع نشر التشيع بصورة ممنهجة حتى تصبح سورية جزءاً أساسياً ثابتاً في الهلال الشيعي الممتد من إيران إلى لبنان مروراً بالعراق وسورية، وكان إسقاط الحريري مرحلة متقدمة من المشروع الخاص بلبنان.
- استعمال القضية الفلسطينية ورقة مساومةٍ مع الغرب ومحاولة الاستفادة منه محلياً وإقليمياً.
- عدم التفريط بالأوراق: فسورية تحوَّلت من الجبهة الشرقية إلى دولة صمود وتصدٍّ، ثم إلى دولة مقاومة، ثم انتهت إلى دولة ممانعة. وكل هذا على المستوى السياسي، أما العسكري فالجولان هادئة منذ حوالي أربعة عقود، وأي تسخين عسكري فمكانه لبنان.

أما داخلياً فاستمرت القبضة الحديدية، وكان أي تراخٍ مردُّ إلى حالة الاطمئنان التي يعيشها النظام، وبدأت مرحلة انفتاح اقتصادي محدود قائم على احتكار المتنفذين ومشاركتهم؛ وهو ما كوَّن طبقة رأسمالية داخل النظام وبصورة خاصة داخل أسرة الأسد الحاكمة.

لقد كانت فورة الانتفاضات الشعبية العربية عاملاً مهمّاً في انطلاق مظاهر إعلان عدم الرضا التي بدأت بمظاهرة بسوق الحميدية بدمشق، ثم أمام وزارة الداخلية، ومن ثَمَّ درعا. وكان التعامل الفظُّ مع المحتجين، وعمليات الاعتقال والقتل المتَّبعة بصورة روتينية سابقاً، قد أدَّت إلى آثار عكسية في الأحداث الحالية؛ فقد بدأت سلسلة القتل والاحتجاج المتصاعد في مدينة درعا وما حولها - وهي منطقة عشائرية - واكتشف النظام أن القتل سيؤدي إلى جنائز تتحول إلى مظاهرات، وتورط النظام في عمليات قَتْلِ واعتقالِ الأطفال، وكان النظام بداية يحس بالمشكلة فقام أركان الدولة من البداية بزيارة درعا وتقديم العزاء، واجتمعت القيادة القطرية للحزب وأعلن الرئيس على لسان بثينة شعبان جملة إصلاحات وممارسات أهمها: أمرٌ رئاسي بمنع إطلاق النار على المحتجين، ولكن الممارسات استمرت بل زادت؛ وهو ما زاد من اشتعال المظاهرات وارتفاع سقف المطالب، وكان انتقال ثقل الأحداث إلى منطقة الساحل في اللاذقية وبانياس مؤشرَ خطر على النظام.

وأصبح الخطاب الرئاسي في وادٍ والإعلام الرسمي في وادٍ آخر ولكن الأهم أن السلطة على الأرض لها ممارسات مختلفة؛ فقوى الأمن التي اعتادت على التصدي للمتظاهرين وقتلهم أمرت بعدم استعمال السلاح مطلقاً بل تم سحب السلاح منهم في بعض المناطق؛ ولكن الجديد أن قَتْل المتظاهرين استمر ومعهم بعض القتلى من الجيش والأمن الأعزل، وبدأ النظام يتكلم عن مندسين تقمَّصوا شخصيات أمنية قيادية وأمروا الأمن في درعا بإطلاق النار على المتظاهرين، وفاتهم أن القوات الخاصة هي التي اقتحمت المسجد الذي اعتصم به المحتجون وقتلتْهم فيه، وفاتَهم أن قوات الأمن تم كفُّ يدِها عن القتل ليمارسَه آخرون يسرحون ويمرحون. وفي النهاية: فسواء كانت الضحية هي المتظاهر الأعزل، أم الضابط الأعزل، أم رجل الأمن الأعزل فالقاتل

واحد؛ وهم الشبيحة الذين صدرت الأوامر المشددة بعدم التعرض لهم؛ فهم هم النظام، ويبقى البلد يحكمه مجموعة من الأشباح الذين يرسِلُون الشبيحة، إنه نظام يتعامل مع الحدث بأساليبَ عفا عليها الزمن؛ فالرئيس يتكلم عن المطالب المشروعة، والداخلية تدَّعي أن هناك قتلةً مندسين وفي الوقت نفسه تهدد بالتصدي بحزم للمظاهرات؛ بل زاد الأمر إلى حدِّ الادِّعاء أن السلفيين يقفون خلف الاضطرابات ويريدون الجهاد وإقامة دولة إسلامية... إلخ، إنه تخبُّط وممارسة للابتزاز؛ ولكن ليطمئن النظام فإن أكثر الجهات قلقاً من التغيير في سورية هي إسرائيل الذين يقيمون الصلوات لبقاء الأسد، وإيران التي تحس أن مشروع الهلال الشيعي مهدد بالانهيار بعد أن أوشك على التمام فسقوط النظام السوري سيؤدي - حتماً - إلى تغيُّر أساسي في طبيعة النظام في العراق ولبنان؛ فمجموعة ١٤ آذار في لبنان بدأت تدرس خياراتها من جديد. أما أمريكا فهي آسفة أنها لَمَّا اتفقت مع الأسد اختل توازنه. والذي يبدو أن النظام في خطر، ولكن البلد أيضاً في خطر؛ فمن دمَّر حماة وقتل السجناء في تدمر وعبَّأ السجون والمنافي غير قادر على تصوُّر لحظة الحساب.

[المسلمون.. والعالم]

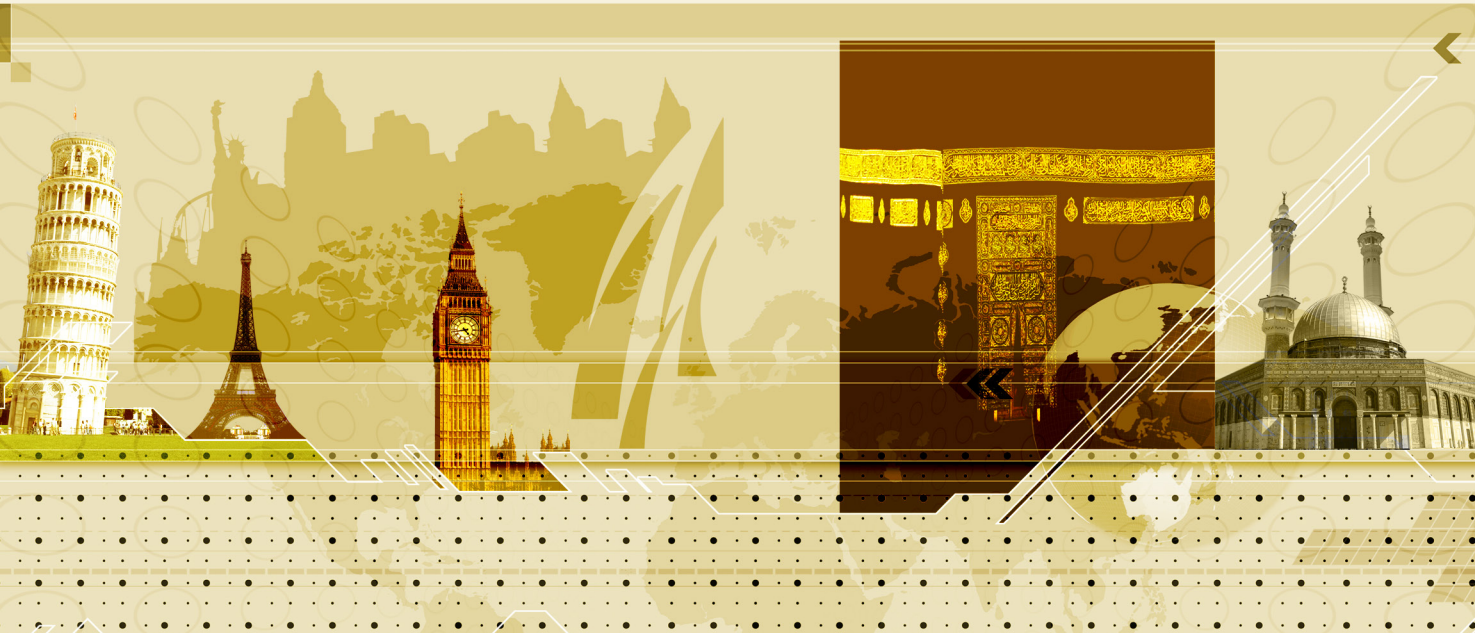

الحرب الأهلية في اليمن... المتوقع والمأمول
أنور بن قاسم الخضري

العلاقات السودانية المصرية بعد الثورة
العباس عبد الرحمن خليفة

تفتيت العرب... هل من فرصة؟
عبد المنعم منيب

مرصد الأحداث
جلال سعد الشايب

الحرب الأهلية في اليمن... المتوقع والمأمول

أنـور بـن قـاسـم الخـضـري(*)

شبح الحرب الأهلية يهدد اليمن:

تشـير بعض التوقعات المحلية والأجنبية بشأن مستقبل الأزمة الراهنة في اليمـن إلى إمكانية دخول البلاد في أتون (حرب أهلية)؛ نظراً لانسـداد أفق الحل المقبول من أطراف المعادلـة حتى اللحظة على أقل تقديـر، ولأنها مجتمعاً وبيئة وثقافة وتقاليداً تتوفر فيها عوامل متعددة تشـكل بمجموعها مخاطر تهدد بحرب أهلية، ومنها:

وجود تعبئة طائفية متشددة وحادة: كما هو الحال لدى حركة الحوثي، التي باتت قوة طائفية مسلحة تهيمن على موقع جغرافي وسـند قبلي اجتماعي، وهو ما يؤهلها لخوض حرب مسلحة في سبيل فرض هيمنتها كقوة عسكرية وسياسية في بعض محافظات شمال الشـمال، في صعدة والجوف مثلاً. وهذا قد يدفع بعودة المواجهـات مع القوى القبلية والمذهبية التي تختلف مع أجندة الحركة ومطامعها. وسـبق للكاتب أن حذر من لغة الاستقطاب المذهبي الحاد الذي تنتهجه الحركة في أدبياتها تجاه القوى السُّنية في اليمن بكافة أطايفها(١).

وهذه الحرب تلبِّي - بدون شـك - رغبة أطراف إقليمية كإيران، كما أنها تحقق تحـت عباءة الغطاء الطائفي مصالح قبائل وعوائل أُقصيَت عن التأثيـر والنفوذ والثروة. وخاصة أن الاسـتقطاب الطائفي بدأ يأخذ منحى تصاعدياً في ظل أحداث البحرين وما لحقها من تداعيات إقليمية.

وفي حال وقوع حرب من هذا النوع فلن يتوقف لهيب نارها في مناطق محدودة، بل ربما اسـتدعت البعد الإقليمي إليها؛ لذلـك فإن الواجب على اليمنيين وأدُ مثل هذه المشـاريع من خلال التأكيد على المصالح العامة والتعايش السـلمي في ظل القيم والمبادئ المشـتركة، مع بقاء الخلاف المذهبي والفكري في دائرة الجدل والحوار والنقـاش العلمي الموضوعي. وإذا خرجت الأمور عن السـيطرة ودخل المجتمع في حرب أهلية فإنها ستسـدعي البعد الإقليمي وتعيـد إلى الذهن الصراع المذهبي في العراق عقب سقوط بغداد عام ٢٠٠٣م.

ومنها الفرقة الاجتماعية والسياسية بين مكونات النسيج الاجتماعي والسياسي: فمما بات ملموساً غيابُ رؤية توافقية لحل الأزمات السياسـية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، حتى بين الأطراف التي اجتمعت اليوم على مطلب واحد بسـقوط النظام. فلا تزال توجد في الجنوب أصوات منادية بالانفصال وإن كانت ترى أنه من المناسب تكتيكياً عدم رفع شـعارات الانفصال حتى سـقوط النظام. وهناك سعي للحوثيين - كما أسـلفنا - لفرض وجودهم أمـراً واقعاً في صعدة والجوف وبعض المناطق وهم الذين ينظرون إلى التجمع

(*) رئيس مركز الجزيرة العربية للدراسات والبحوث - صنعاء.

(١) انظر: كتاب حركة الحوثي في اليمن، لمجموعة باحثين، المركز العربي للدراسات الإنسانية (القاهرة) بالتعاون مع مركز الجزيرة العربية للدراسات والبحوث (صنعاء)، ط١ - ٢٠٠٨م، وبحث: الصراع الزيدي السلفي، للكاتب، كتاب المسبار الشهري، العدد، ط١ - ٢٠٠٩م.

اليمني للإصلاح وعلي محسن الأحمر والشيخ حميد الأحمر وإخوانه بعين الريبة والشك. يضاف إلى ذلك محاولة القاعدة لاحتلال موقع قدم لها في أبيَن وشبوة في ظل الفوضى التي يمكن أن تنتج عن سقوط النظام. وهناك انقسامات أخرى سوف تكشف عنها الفترة القادمة، رغم محاولات التبسيط والقفز التي يحاول بعضهم ممارستها في زخم الثورة الشعبية والتغطية على بعض معطياتها في ساحات التغيير ذاتها.

ضعف الحكومة المركزية وبدء انهيار النظام: فهناك عدة محافظات خرجت عن سيطرة الدولة قصداً أو كرهاً، فمحافظة حضرموت والمهرة أصبحت مستقلة بانضمام اللواء محمد علي محسن قائد المحور الشرقي إلى الثورة، وشبوة وأبين تُركَت عمداً من النظام لتشغلها القاعدة، ومأرب والجوف – اللتان لم تكونا تحت سيطرة الدولة أساساً – بات الحضور الحكومي فيها ضعيف جداً، وصعدة سقطت بقرار النظام تسليمها إلى الحوثيين، بالإضافة إلى محافظات أخرى بدت تشهد عصياناً مدنياً ومقاومة شعبية بشكل يشلُّ أداء المؤسسات الحكومية.

توفر السلاح وطرق الإمداد للتسلح، وتوفر دعم مادي ومالي للأطراف المختلفة: وهذا يهيئ مناخاً ملائماً لاشتعال شرارة الحرب الأهلية في حال باتت المشاريع الخاصة هي المنطق الغالب في تعامل الأطراف السياسية والاجتماعية في ما بينها. فالمجتمع اليمني تطغى عليه العصبية القبلية والحمية، وبرغم الصورة السلمية التي تطغى على المشهد العام اليوم فإن التخطيط للمشاريع المستقبلية الخاصة حاضر بقوة وترافقه عمليات تسلح واستعداد لأي تحوُّل في طبيعة الأزمة. فإذا ما اعتبرنا اليمن منطقة عبور لتجارة الأسلحة وسوقاً للبيع والشراء ومخزناً ضخماً له فهي بهذه المعطيات تمثل (قنبلة موقوتة)؛ لا باعتبار التهديد الذي ينادي به الرئيس علي صالح لغاية في نفسه، ولكن باعتبار حقائق الواقع الملموسة التي تغض قوى الثورة الطرف عنها لغاية في نفسها هي أيضاً.

وهكذا نجد أن الحرب الأهلية في اليمن يمكن أن تأخذ صوراً عدة منها:

التراعات القبلية: التي ظلت مشتعلة خلال فترات سابقة نظراً لوجود نزاعات ثأر أو مصالح. كما هي الحال في

محافظات الجوف ومأرب وذمار ومحافظة صنعاء وغيرها.

الانقسام المناطقي: حيث يجري الحديث عن شعبين شمالي وجنوبي، والمناداة بالانفصال ولو اعتماداً على الاستعانة بالبعد الدولي، كما هو خطاب نائب الرئيس الأسبق علي سالم البيض ورموزاً معارضة في الخارج.

المشاريع الضيقة: من قَبيل مشروع القاعدة في فرض هيمنتها على رقعة من الأرض واتخاذها منطلقاً للقتال وضم بقية المناطق لما قد يطلق عليه بالإمارة الإسلامية. وقد تشهد اليمن مشاريع أخرى ضيقة كالسلطانات الجنوبية مثلاً.

التمييز الطبقي: حيث توجد شريحة اجتماعية كبيرة مهمشة تعيش على خارج حدود الحياة الإنسانية، في ظل تمييز اجتماعي، كما هي الحال مع طبقة الأخدام الذين يمكن

إدخالهم في الصراع لحساب طرف على آخر.

الحرب الأهلية والفتنة المبيتة:

تعرَّف الحـــرب الأهلية بأنها الصراع المســـلح الذي يقع داخل مجتمع ما، أو دولة ما، أو إقليم ما، على أســـس عرقية أو دينية أو مذهبية أو مناطقية أو مشاريع خاصة، سواء كانت الدولـــة جزء من هذا الصراع أو لا. ويطلق هذا المصطلح في القانون الدولي على هذه الصورة، وعلى أي نزاع مســـلح بين الدولة وبعض قوى المجتمع أو تجاه العصيان المدني أو التمرد المســـلح الموجَّه ضدها. أما التعريف الأكاديمي السائد فيقوم على معيارين:

أولهما: أن تكون المجموعات المتناحرة من البلد نفسه، وأن تتقاتل من أجل الســـيطرة على الســـلطة، أو من أجل فرض تغيير عليها، أو في سبيل الانفصال.

وفي العموم فإن المصطلح فضفاض ويضم أشكالاً عديدة من النزاعات. والرأي الســـائد في القانون الدولي في الوقت الحاضر يقوم على أســـاس أن تحديد الحرب الأهلية يعتمد على أن يكون القتال بين مدنيين مســـلحين، وليس بين دول أو قوات مسلحة نظامية.

وقـــد تقوم الحرب الأهلية في ظـــل حكومة قائمة أو في ظل ســـقوط النظام الحاكم في الرقعـــة الجغرافية أو غياب ســـيطرته على أجزاء من أراضيه. وتكمن خطورتها في كونها لا تخضع لقواعد الاشتباك المتعارَف عليها عسكرياً (نظامياً)؛ بل هي حرب تستند إلى مشاريع خاصة وشرعية ذاتية، يغيب عنها القانون وتخرج عن الســـيطرة غالباً، وجزء من أهدافها يتمثل في استهداف المدنيين من الطرف الآخر لغرض الإبادة الجماعية، أو ترهيبهم بغـــرض إخراجهم من مناطق النزاع، وفي كل الأحـــوال يجري تغيير التركيبة الســـكانية والتوازن الديموغرافي. وهي في سبيل ذلك تتخذ صور قتال العصابات (الميليشـــيات)، وقتال الشوارع، والاغتيالات، والكمائن، وصور التعذيب الوحشي والاختطافات.

ومـــن نتائج الحـــرب الأهلية: غياب الدولـــة أو ضعفها، وانعـــدام الأمن والســـكينة العامة، وتقطُّع الطـــرق، وتعطُّل مناشط الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وتوقف مسيرة البناء والتنميـــة، وهذا ينعكس بدوره على البنى التحتية ومســـتوى الخدمـــات التعليمية والصحية وغيرها، وهو ما يضع المجتمع رهينة للقوى المتربصة: من هيئات ومنظمات تبشيرية وتغريبية واستخبارية.

كما يتولد عنها ظاهرة النزوح أو اللجوء الجماعي،وســـقوط ضحايا مدنيين من كافة الأعمار، ومن الجنسين، وانتشار العنف والفســـاد وتجارة التهريب، وانتهاك الأعـــراض ونهب الثروات والأموال الخاصة والعامة، وانتشـــار الأمراض والأوبئة؛ وظهور المجاعة ونقص الغذاء، وتصبح المناطق الآمنة هي مناطق العمق، في حين تصبح مناطق التماس هي مناطق الاشتعال المستمر.

وهكذا نجد أن للحرب الأهلية نتائج فادحة على مستوى القـــوى المتصارعة والمجتمع والدولة؛ وفـــي حالة كاليمن قد تخضع البلاد تحت ذريعة الأمـــن الإقليمي والدولي للوصاية الدولية والتدخل الأجنبي بموجب قرارات دولية.

وهذا الحديث عـــن نتائج الحرب الأهلية غير خافٍ على مجتمعات عربية وإســـلامية شـــهدت مثل هذا الصراع؛ فقد عاشت المنطقة العربية خلال عقود سابقة عدة حروب أهلية مثلت أشكالاً مختلفة لطبيعة النزاع وأطرافه ومداه. وفي جميع الأمثلة كان لهذه الحروب أثرها الســـلبي دون أن يكون هناك غالب أو مغلوب. ومن أمثلة ذلـــك: الحرب الأهليـــة فـــي لبنان، والحـــرب الأهلية في الجمهوريـــة العربية اليمنية سابقاً (حرب المناطق الوســـطى)، كلاهما في ثمانينيات القـــرن المنصـــرم؛ والحـــرب الأهليـــة الجزائرية (عقب عام ١٩٩٠م)، والحـــرب الأهلية الأفغانية (بعد فتح كابول)، والحرب الأهلية الصومالية في التسعينيات من القرن الماضـــي؛ والحـــرب الأهلية فـــي العراق

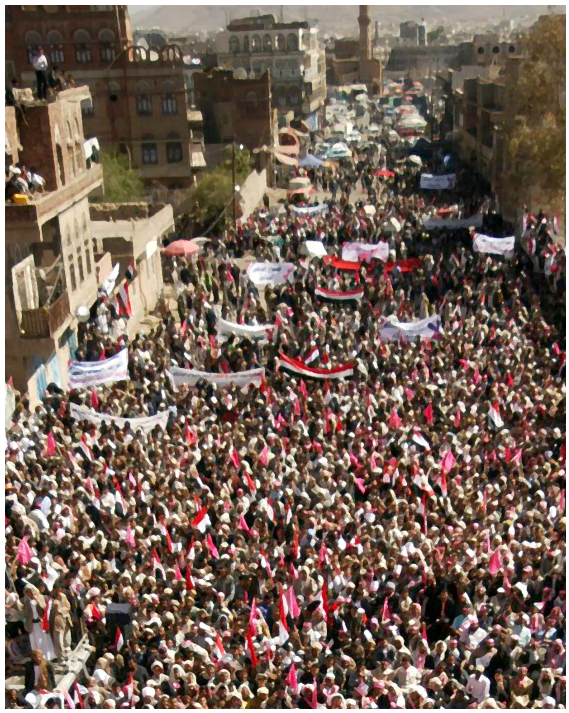

عقب سقوط بغداد عام ٢٠٠٣م.

واجب العلماء والحكماء:

إن الحديث عن احتمال حرب أهلية في اليمن ليس أمنية، أو ترفـاً فكرياً، أو من قبيل المؤامرة وتثبيط العزائم، لكنه من قبيـل الواقعية التي يجب عدم إغفالها أو القفز عليها لصالح أهواء وأماني سـرعان ما تتبخر تحـت لهيب وضع المجتمع وطبيعة العادات والتقاليد والثقافة السائدة والمصالح الخاصة الضيقة والمتضاربة.

فعلى الرغم من تقاطع مطالب الجميع في الثورة اليمنية على ضرورة إسـقاط النظام كونه كان السـبب في توظيف الخلافـات والطوائف واللعـب بها؛ إلا أنَّ خفـوت المطالب والمشـاريع التالية لإسقاط النظام يعكس حقيقة عدم التوافق (فضلاً عـن التطابق) بين قـوى التغيير، خاصـة مع تردد الحديث من كل طرف عن (سرقة الثورة) من أطراف مغايرة.

والسياسـة لمن يعرفها لا تقوم علـى الأماني والتطلعات ولكن على الحقائق والمعطيـات الواقعية، وإذا كنا نُقرُّ بوجود حركـة الحوثي والقاعدة ودعوات معـززة بالحَراك من أجل الانفصال وبقايا قـوى النظام الحالي الراغبة في الانتقام لو وقع التغيير، فإننا نتحدث عن بوادر أزمة قادمة يمكن لها أن تتطور لو أغفل العلماء والحكمـاء والخيِّرون من أبناء اليمن معالجة أبعادها وتدارك مسبباتها.

وهنا جملة من التدابير المقترحَة يمكن أن يقوم بها عقلاء اليمن للحفاظ على اللحمة الاجتماعية والوحدة السياسـية والهوية الثقافية، منها:

أولاً: صياغة الدسـتور القادم صياغة جيدة تراعي هذا التبايـن من خلال التأكيد على القيم والمبادئ المشـتركة؛ مع ضمان حقـوق الناس الشـرعية ومطالبهـم العادلة بتوازن وبصفة دائمة وعبارات واضحة.

ثانياً: جلوس كافة الأطراف الممثلة في السـاحة اليمنية (الفكرية، والسياسية، والمذهبية) على طاولة الحوار، وتقريب وجهـات النظر، وصياغـة رؤية متفق عليهـا بين الأطراف للصدور عنها والاحتكام إليها.

ثالثاً: التخلي عن المشـاريع الضيقة والمصالح الخاصة في سبيل التوحد والاجتماع واستقرار السكينة العامة، مع التنافس ميدانياً عبر الكلمة والخطاب وتقديم البرامج وطرح المشـاريع للجمهور، مع ترك الحرية للناس للتقييم والاختيار دون إكراه أو شراء للذمم أو إرهاب فكري أو اجتماعي أو سياسي.

رابعاً: نزع السـلاح عن كافة القوى القبلية والسياسـية والمذهبية، وتشـكيل جيش وطني يقوم على أسـاس التمثيل النسـبي لكافة المناطق اليمنية دون تمييـز، وتحديد مهامه بحمايـة البلد من أي قـوى أجنبية محتلة، مـع النص على عدم تدخُّله في صراع سياسـي أو فكري أو مذهبي باعتباره مؤسسة شعبية محايدة.

خامساً: إعادة صياغة هيـكل الدولة وَفْقَ نظام فيدرالي أو حكم محلي واسـع الصلاحيات، يتيـح لكل مجتمع محلي إدارة شـؤونه وُفْق رؤيته وطبيعته الاجتماعية دون المسـاس بحقـوق الأقلية أياً كانت، ودون الخـروج عن الهوية الثقافية والسياج الاجتماعي الجامعَين للشعب اليمني. فالإصرار على صيغـة وحدة مركزية تتصارع عليها القوى بين أقلية وأكثرية، وشمالية وجنوبية، وإسلامية وغير إسلامية، قد يُدخِل البلاد في فوضى عارمة وحرب أهلية كما سبق أن أشرنا.

هذه الحلول لعلها تكون محل نظر لدى عقلاء اليمن لتكون مخرجاً لمستقبل اليمن قبل أن تختطفه قوى التآمر والتربص وتسرق الثورة الشعبية قبل أن ترى النور، كما حدث في ثورتي ٢٦ سبتمبر و ١٤ أكتوبر، والمؤمن لا يُلدَغ من جحر مرتين.

العلاقات السودانية المصرية

بعد الثورة

فريق أول ركن (العباس عبد الرحمن خليفة)(*)

استمرت العلاقات المصرية السودانية ذات ارتباط وثيق وبُعْد عميق؛ على الرغم من أنها كانت ولا تزال في حالة مد وجزر؛ وذلك أن الحكومات المتعاقبة في البلدين لم تواجه ما يعيق استمرارها بالحل الشامل، واتخذت أسلوب التهدئة والتسكين للمشاكل العالقة بين البلدين؛ لإدراكها لأهمية هذه العلاقة للبلدين، وضرورة استمراريتها وتأكيدها والانطلاق بها إلى مراحل متقدمة؛ خوفاً من المواجهة التي قد تؤدي إلى انفصامها نهائياً أو الوصول بها إلى مرحلة الطريق المسدود.

وتتميز العلاقة بين مصر والسودان بالارتباط والجوار الجغرافي والتاريخ المشترك، والتمازج العرقي، ومشترك اللغة العربية والثقافة ومن ثَمَّ المصالح المشتركة.

وفي ظل تنامي العلاقات الدولية مؤخراً تتجه الدول إلى البحث عن المقومات المشتركة التي تشدها مع غيرها في توثيق التعاون في ما بينها لخدمة مصالحها المشتركة؛ سواء كانت هذه المقومات

(*) مدير أكاديمية نميري العسكرية (سابقاً).

سياســـية، أو حضارية، أو اقتصادية. ومن هذا المنطلق اتجهت كلٌّ من مصر والســـودان إلى الارتباط ببعضها برباط علاقات (التكامـــل) في فترة مـــن الفترات؛ لتحقيق أفضل اســـتخدام للموارد المشتركة في مجالات السياسة، والاقتصاد، والاجتماع، والأمن، وصولاً إلى غاية رفاهية شـــعبَي وادي النيل، وتأمينهما ضد المهددات الداخلية والخارجية.ولكن مؤشر توتر العلاقات بينهمـــا ظل كعادته فـــي الارتفاع، حتى توقف نشـــاط برنامج (التكامل)، وأُلغيت اتفاقية الدفاع المشـــترك بينهما. والآن وفي ظل ثورة الخامس والعشـــرين من يناير التي رفعت شـــعارات الوطنيـــة ومحاربـــة الفســـاد والإصلاح السياســـي والإداري والاقتصـــادي، قد تجد مصر أنها فـــي طريق العودة إلى موقع الريـــادة في الوطن العربي والإســـلامي، وأن هذا الطريق يمر عبر بوابة السودان الذي ستحتاج لدعمه الأمني باعتباره العمق الإســـتراتيجي لمصر، ودعمه الاقتصادي لحل مشـــكلة الأمن الغذائي، ودعمه السياسي في المنظمات الإقليمية والدولية.

مصر:

مصر هي أرض الحضارات والثقافات، وظلت هكذا فاعلة عبر التاريخ تؤثر وتتأثر بالسياســـيات الإقليمية والدولية سلباً وإيجابـــاً بما يفرضـــه موقعها الجغرافـــي، ودورها المتميز في الواقع السياسي.

تقع مصر في الركن الشمالي الشـــرقي لإفريقيا، وتدخل في قارة آســـيا بجـــزء من أراضيها (٧٪ من المســـاحة)؛ وذلك بين خطي عرض ٢٢,٣٥ - ٣٢ شـــمالاً وخطي طول ٢٥ - ٣٥ شـــرقاً، تطل على البحر الأبيض المتوســـط بساحل يبلغ طول ٩٠٩ كم، وشاطئ البحر الأحمر بطول ساحل يصل إلى ١,٣٧٠ كم، مســـاحتها ١,٠٠١,٤٥٠ كم مربع، تحدُّها غرباً ليبيا، ومن الجنوب الســـودان، وشـــرقاً البحر الأحمر وفلسطين المحتلة، وشمالاً البحر الأبيض المتوسط.

تشير الدراســـات إلى أن حجم السكان يفوق الـ ٧٠ مليون نسمة الآن.

تُعَدُّ قناة الســـويس مـــن أهم الممرات المائيـــة؛ إذ تمرُّ من خلاله تجارة الشـــرق الأقصى، والخليج العربي وشرق إفريقيا في طريقها إلى أوروبا عبر البحر المتوســـط، وهي نقطة التقاء للشرق والغرب.

وتتأثـــر مصر بدول الجوار كثيراً، ولكن تأثُّرها بالســـودان أكبر؛ فهو العمق الإســـتراتيجي لمصر كما ظهر في كل حروبها، وكل الحملات التي غزت السودان كانت تدخل عن طريق مصر. والســـودان بحكم الموقع يمثل جواراً إســـتراتيجياً على المستوى السياسي والاقتصادي والعســـكري، والسودان يمثل أكبر وعاء لحوض النيل، وهو ثانـــي دول حوض النيل انتفاعاً بمياهه بعد مصر.

لقد احتلـــت مصر في القرن الثامن عشـــر موقعاً إســـتراتيجياً على خطوط التجارة العالمية، نتيجة للثورة الصناعية في أوروبا؛ جعلتها محطة أساســـية للغربيين في طريقهم إلى الهند، وهدفاً لمطامع الإمبراطوريات الأوروبية المتنافســـة على آســـيا وإفريقيا، بعد أن خســـرت مســـتعمراتها الأمريكيـــة في النصف الثاني مـــن القرن الثامن عشـــر، وازدادت أهمية الموقـــع الجغرافي لمصر بعد إنشـــاء قناة الســـويس التي اختصرت طريق الملاحـــة التجارية، وســـهلت اســـتعمار إفريقيا والشـــرق الأوسط، ولعبت مصر دوراً هاماً في القرن العشرين، عبر مساهمتها في تحرير المناطق المستعمرة في العالم العربي وإفريقيـــا، ومن ثَمَّ القضـــاء على الإمبراطوريتين الفرنســـية والإنجليزية، وشكلت ســـداً منيعاً أمام المشروع الصهيوني في إقامة دولة إسرائيل الكبرى.

ســـاهمت مصر فـــي إعداد النخـــب والقيـــادات العربية والإسلامية عبر الأزهر الشـــريف، والجامعات المصرية، وعبر مراكزهـــا التربوية وبعثاتها التعليمية في الوطن العربي، ولعبت دور القطب الجاذب للعالم العربي والإسلامي.

في نهايات القرن العشرين بدأ نجم مصر يخبو بعد توقيع

اتفاقية (كامب دافيد) مع إسرائيل، تلك الاتفاقية التي أدت إلى انحسار تأثير مصر على دول المنطقة إلى موقع لا يتناسب مع حجم مصالحها وقيادتها لدول المنطقة لفترة طويلة، وظلت هذه الاتفاقية تحكم السياسة الخارجية المصرية، وتؤثر سلباً على دورها في المنطقة عموماً وعلى السودان خصوصاً. والواقع يقول أيضاً: إن انحسار الدور المصري في السياسة الخارجية للإقليم، لم تعوضه أيٌّ من عواصم الإقليم حتى يومنا هذا منفردة أو مجتمعة.

وتكتسب جمهورية مصر العربية أهمية كبرى في المنطقة؛ لِمَا لها من دور في البيئة الإقليمية والدولية، ولِمَا لها من ثقل سياسي واقتصادي وإعلامي واجتماعي وثقافي وأمني وعسكري لا يستهان به، ولِمَا لها من تأثير في العالَمين العربي والإسلامي.

وتشير الدراسات المتعلقة بالتركيب العرقي للعالم، أن سكان مصر القديمة وسكان شمال السودان ينتمون للعنصر الحامي، الذي دخل هذه المنطقة منذ أزمنة بعيدة، ويُعتَقَد أنه جاءها من جنوب الجزيرة العربية، وبالنزوح جنوباً ظهرت القبائل النيلية الحاميَّة في جنوب السودان.

ظل الدين عامل ربط بين شمال الوادي وجنوبه؛ حيث وفدت الوثنية المصرية على السودان ثم النصرانية، ودخل الإسلام إفريقيا بعد الفتح الإسلامي لمصر في القرن السابع الميلادي؛ حيث صارت مركزاً لانتشار الدعوة غرباً وجنوباً، ومنها دخل الإسلام للسودان في عام ٦٥١م، وتدفقت بعدها القبائل العربية إلى السودان حاملة معها ثقافتها وحضارتها، التي أصبحت بمرور الوقت ثقافة وحضارة غالبية السكان في السودان.

تطوُّر العلاقات بين الدولتين:

بعد استيلاء محمد علي باشا على مصر وتثبيت دعائم سلطانه فيها، أخذ يعمل جاهداً في توسيع رقعة مُلْكه، وتحقيق تطلعاته شرقاً في الأراضي الحجازية، وغرباً في ليبيا، وجنوباً في السودان الذي يحقق له تجنيد رجاله في جيشه لرد أطماع فرنسا وإنجلترا في حكمه، وأن يدعم اقتصادياً دولته من مناجم الذهب التي اشتهر بها السودان، وله هدف إستراتيجي آخر من فتح السودان وهو تأمين منابع النيل، الذي تعتمد عليه مصر اعتماداً كلياً باعتباره مورد الري الوحيد للأراضي الزراعية، ثم استغلال موارد السودان من غير الذهب، وتسويقها في الأسواق العالمية، وفتح أسواق جديدة لصادرات مصر في السودان. وكان محمد علي يدرك حقيقةً أن السودان يمثل العمق الإستراتيجي لمصر، وضرورة تأمين سواحل البحر الأحمر لضمان حماية وسلامة الملاحة لأساطيله بعد سيطرته على الحجاز، وأخيراً أدرك محمد علي باشا أن السودان يمثل العمق لمصر ويمكن استغلاله كعمق دفاعي إذا هاجمته إحدى الدول الأوروبية، وعلى الرغم من الجهد التركي في إبراز ملامح خريطة السودان الحديث في الفترة من (١٨٦٣ - ١٨٦٩م) وإدخال الثقافة العربية والإسلامية، وتفعيل النشاط الاستثماري في مجال التعدين وزراعة القطن وحلجه؛ إلا أن سياسة القهر التركية في معاملة السودانيين أدت إلى تذمرهم، وشكَّلت بداية التمرد عليهم وتفعيل الثورة الوطنية، وقيام الثورة المهدية في السودان حتى تحرير الخرطوم من قبضة الأتراك في ٢٦ يناير ١٨٨٥م. ثم قررت بريطانيا استعادة السودان، وتم ذلك بعد معركة (كرري) في ١٨٩٨/٩/٢م، وهو بداية ما يعرف بالحكم الثنائي، الذي أجج بدوره الغضب السوداني على مصر لتعاونها مع الإنجليز في مواجهة السودان؛ علماً بأن مصر كانت تَحْكُم اسمياً، وكانت السيادة الحقيقة للإنجليز. وعند هبوب رياح النهضة الوطنية المصرية طالب قادتها باستعادة السيادة على السودان لصالح مصر ولم يصححوا الوضع القائم والدعوة لاستقلال السودان، في حين أن المفهوم الذي ارتبط بأذهان الوطنيين السودانيين بعد ثورة ١٩٢٤م وفي الأعوام ١٩٤٥ - ١٩٥٦م كان يطالب بجلاء الاستعمار عن مصر والسودان، وفي هذا يقول الكاتب المصري عمر طوسون: (فالسودان هو أرض السلام الذي ظل مفتوحاً لمصر منذ الأزمان الخالية، ويجب أن يبقى كذلك؛ لأنه لازم لها لزوم الروح للجسد، وإلى هذا الغرض

يجب أن تصوَّب جميع مجهودات أولئك الذين في يدهم حظ مصر، وفي قلبهم يضمرون لها النفع والمصلحة).

تكونت (جمعية اللواء الأبيض) في السودان في عام ١٩٢٤م بقيادة علي عبد اللطيف وعبيد حاج الأمين، واعتُمد التنسيق بين العسكريين والمدنيين في مناهضة الحكم الإنجليزي في السودان. وكان توُّجه الجمعية وحدوياً؛ أي الاتحاد مع مصر، ونسق في ذلك مع الحركة الوطنية في مصر ممثلة في الجمعية الوطنية المصرية للدفاع عن السودان، التي رفعت شعار (وحدة وادي النيل)؛ إلا أن مفهوم الشعار كما أشار الأستاذ أبو القاسم حاج حمد في كتابه (السودان المأزق التاريخ وآفاق المستقبل) كان يعني عند السودانيين الحق العربي الإسلامي كإطار يحتوي البلدين ثقافة وتاريخاً ورباطاً قومياً، ولكنه في الجانب المصري كان يعني عندهم حقوق مصر في السودان ومصالح السودان في مصر، وهي كما أشار الكاتب تتفق وروح المَلَكية الإقطاعية التي كانت سائدة ردحاً من الزمان في مصر؛ لذا لم يحقق الشعار تكاملاً حقيقياً شعبياً بينهما، ولا إستراتيجية ولا تحركاً موحداً؛ فقد اتصفت مصر بالسلبية تجاه حركة اللواء الأبيض والشارع السوداني وطليعة المثقفين فيه، وقيدت تحرك الوحدات العسكرية المصرية في السودان لإسناد التحرك العسكري المسلح في السودان، ثم قبلت عقب مقتل (السير لي إستاك) بالقاهرة الإنذار المهين كما وصفه المؤرخ الإنجليزي (أرنولد توينبي)، وكان أقصى ما فعله سعد زغلول حينها هو الاستقالة من رئاسة الحكومة، ليقوم غيره بتنفيذ بنود الإنذار وبضمنها تخلي مصر نهائياً عن وجودها في السودان تحت التهديد البريطاني، والتلويح باتفاقية مياه النيل التي تمَّت في عام ١٩٢٩م، والتي رأى السودانيون أنها كانت مجحفة في حقهم لصالح مصر؛ وهو ما أدى إلى إضافة عامل آخر في إضعاف الثقة بمصر عند السودانيين، وكانت الحصيلة أن بدأ التحول في الوعي السياسي السوداني من المثالية المجردة إلى الواقعية وإلى إثبات الذات والحقوق السودانية المستقلة عن مصر.

ظل الود بين شعبي وادي النيل باقياً مستمراً برغم ما ينتابه أحياناً من منغصات، ورغم ما يحدث بين أنظمة الحكم في البلدين من خلاف وما يعتري علاقتهما من توتر وخصام بسبب تضارب المصالح واختلاف وجهات النظر حول المسائل السياسية، وهو ما يدلل على خصوصية هذه العلاقة بين مصر والسودان، ويؤكد حاجة كلٍّ منهما للآخر، فاستمر جهد كل دولة في إزالة الجفوة والسعي إلى تقنين العلاقة وتأطيرها، غير أن كل الجهود لم تؤتِ ثمارها كما أريد لها.

العلاقات في الفترة بين عامي (١٩٥٦ - ٢٠٠٧م):

في الفترة من عام ١٩٥٦ - ٢٠٠٧م تميزت مسيرة علاقات مصر والسودان بالترقب والحذر؛ تنفرج أحياناً وتزداد تعقيداً في فترات أخرى، وكان للمرحلة حيويتها التي فرضتها ظروف التطور السياسي على كلا البلدين.

ففي مصر حسمت القيادة المصرية رؤيتها السياسية في قيام دول على قاعدة تحالف قوى الشعب العاملة، في إطار فلسفي يستند على الفكر أو القومية العربية، وبوفاة جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠م نادت (مصر السادات) بالانفتاح الليبرالي وَفْقَ الرؤية الغربية للتمازج مع رؤية السادات في دولة العلم والإيمان وتقاليد القرية، وبعد اغتيال السادات أعقبه حسني مبارك الذي لخص مساره في أنه ليس محمد أنور السادات وأنه ليس جمال عبد الناصر. أما في السودان فقد خاضت التجربة مسار الدائرة المغلقة على الحكم الليبرالي والانقلابات العسكرية، وعلى مدى الخلاف في مفهوم الدولة ونظام الحكم ومضمون السلطة في البلدين، ظلت خصوصية العلاقة على غموضها وضبابيتها تطرح المهدئ والمسكِّن لأي محاولة توتر أو تعكير صفو العلاقات.

في فترة الحكم العسكري الأول في السودان بقيادة الفريق عبود تم التوصل إلى اتفاق حول مياه النيل وإنشاء السد العالي، بعد أن جاء في بيانه الأول أن حكومته ستسعى لإزالة الجفوة المفتعلة بين الشعبين المصري والسوداني، التي كان يرى أنها من صنع السياسيين؛ حيث سبق أن ظهرت مشكلة الحدود (منطقة حلايب) في عهد رئيس الوزراء عبد الله خليل، تلك التي لم تُثَر مرة أخرى في عهد حكومة عبود.

أثَّرت أحداث ما بعد فترة الرئيس عبود - وهي ما عرف بالديمقراطية الثانية بين عامي ١٩٦٤ - ١٩٦٩م - على علاقات مصر والسودان؛ فمصر التي لم تُعِر ثورة أكتوبر السودانية أي اهتمام، وجاء ردُّ فعلها إعلامياً بمعلومات مغلوطة أدت إلى إثارة الشارع السوداني وخروجه محتجاً على الإعلام المصري والإساءة للعلم المصري؛ وهو ما يعد في عالم العلاقات داعماً للمواجهة، ولكن القيادة المصرية اعتبرت ذلك انفعالاً جماهيرياً طبيعياً وتجاوزت الأمر.

اندلعت حرب يونيو عام١٩٦٧م وأثبت السودان مرة أخرى

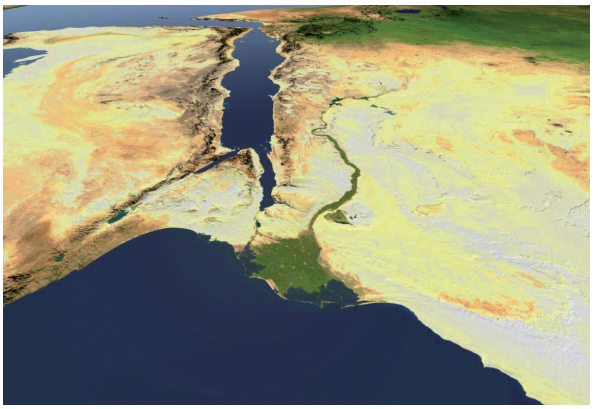

أن علاقاتـه مع مصر تبنـى على إسـتراتيجية ذات أهداف واضحة، ووقف إلى جانب مصر، بل أعلن الرئيس إسـماعيل الأزهري رئيس مجلس السـيادة أن السودان دولة مواجهة مع إسـرائيل، وأن جُلَّ إمكاناته لخدمة المعركة، وعمل في انسجام تام مع زعيم المعارضة السـيد محمد أحمـد محجوب رئيس الوزراء وتمكنا من جمع شـتات الأمة بعد النكسة، فكانت قمة الخرطوم (قمة جامعة الدول العربية) المشهورة بلاءاتها الثلاث، واسـتعادت الأمة وحدتها والتقت أهدافها؛ حيث التقى العاهل السـعودي الملك فيصل بالزعيم ناصـر، وانتهى الخلاف حول اليمـن، ووقف نزيف الدم العربي فـي ذلك الجزء من الوطن، تكفلت الدول العربيـة بدعم المجهود الحربي في دول المواجهة (مصر، وسوريا، والأردن).

امتدت فترة حكم الرئيس نميري إلى سـتة عشـر عاماً، وشهدت اسـتقراراً وتطوراً في العلاقات بين مصر والسودان، على الرغم من بعض فترات البرود أو التوتر؛ كما حدث عندما أعاد السودان علاقاته الدبلوماسية مع الولايات المتحدة وألمانيا الاتحاديـة دون الرجوع إلى مصر؛ وهـو مما يعكس عدم إلمام الإخوة في مصر بالمزاج السـوداني الاسـتقلالي، ولكن المياه عادت إلى مجاريها واسـتمرت العلاقات في وتيرتها الطبيعية، وكان لقوة شخصية الزعيم عبد الناصر وتجرده لخدمة قضايا الأمة أثر بالغ في هذه العلاقة.

خَلَف السـادات عبد الناصـر في حكم مصـر وكان لمزاجه الشـخصي في العلاقات مع السودان وإسـتراتيجية حماية ظهر مصر، أثرهما في علاقته السياسـية الخارجية مع السودان، خوفاً من تحول محور (أديس أبابا – عـدن) والالتفاف عليه من الخلف بدعم سوفييتي، فكوَّن الحلفَ المضاد مع (السودان – ليبيا) وتأكيداً لتخوفه من حلف عدن فقد وقع انقلاب ١٩ يوليو ١٩٧١م الذي قام به الشيوعيون في السودان، وكان يتوقع بنجاحه تطويق مصر وحكم السادات من الجنوب، وهو ما دعا السادات للتحرك وإعلان حمايته للسـودان وحماية النظام الإقليمي ككل وعدم السماح بالتدخل في شـؤون السـودان الداخلية، ونتيجة لهذه الواقعة وأحداث ١٩٧٦م التي قادتها المعارضة السودانية بدعم من ليبيا، وقَّع البلدان ميثاق الدفاع المشترك في ١٥ يوليو ١٩٧٦م.

باغتيال الرئيس السـادات في أكتوبر ١٩٨١م وتولي الرئيس مبارك الحكم في مصر، بدأت حقبة جديدة من العلاقات المصرية السـودانية، واسـتمرت في بدايتها على النمط السابق بالحفاظ علـى علاقات ودية تحقق بها مصر إسـتراتيجية العمق المصري في السودان والأمن المائي، وسعى البَلَدان إلى ترقية منهاج العمل التكاملي (الذي كان في عام ١٩٧٤م) لتنمية القدرات الاقتصادية والاجتماعيـة والسياسـية والفكرية للبلدين، فـي إطار التكامل المشترك، وتُوِّج ذلك بتوقيع ميثاق التكامل في أكتوبر ١٩٨٢م بهدف تقنين العلاقة وإخضاعها للإشراف الحكومي لكلا الدولتين.

فأنشئت كثيرٌ من المؤسسـات والأجهزة السياسية والفنية للإشـراف وتحقيق الأهداف والمبادئ التـي تضمنها الميثاق، وشـملت المجلس الأعلى للتكامل برئاسـة رئيسـي الدولتين، وبرلمـان وادي النيـل، والأمانة العام للتكامـل، واللجان الفنية المشـتركة، وصندوق التكامل واللجان الفرعية الأخرى. واتُّفِق على تنفيذ ثلاثة محاور لتحقيق أهداف الميثاق، هي:

- تنميـة المصالح المشـتركة بـين البلدين فـي المجالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعسكرية.
- إزالة القيود والحواجز خاصة في مجال التبادل التجاري والسلعي بين البلدين.
- العمل على إزالـة الاختلافات والتباينات بين الشـعبين لتأكيد الوحدة التاريخية والمصير المشترك.

أثبـت الواقـع التنفيذي للميثـاق كثيراً مـن الإيجابيات والسـلبيات التي كان أهمها الانتقاد الحاد لها في كلٍّ من مصر والسـودان؛ بأنها فُرِضَت من أعلـى وتجاهلت عنصر التفاعل الشعبي معها. ثم شـهدت العلاقات فتوراً واضحاً في نهايات عهد الرئيـس نميري، وتوقف العمل في قنـاة جونقلي نتيجة لنشاط التمرد في جنوب السودان، وتدهور الحالة الأمنية، التي لم تفعَّل اتفاقيةُ الدفاع المشترك للحفاظ عليها.

وبقيام الانتفاضة الشـعبية في السودان والثورة على حكم النميري، توتـرت العلاقة بين البلدين فـي بداية هذا العهد،

واتسمت بالمواجهة المعلنة ورفض كلٍّ من البلدين لسياسة الآخر؛ حيث اتهم السودان مصر بالمسؤولية عن دعم حكم النميري، وحماية استمراره وطلبت الحكومة السودانية تسليم الرئيس نميري الذي بقي في مصر بعد قيام الانتفاضة الشعبية، ورفضت مصر ذلك باعتباره لاجئاً سياسياً، وطالبت حكومة السودان في المقابل بإلغاء كل الاتفاقيات والمواثيق مع مصر، وفتح ملف الحدود (قضية حلايب)، ومراجعة اتفاقية مياه النيل.

دعمت مصر ثورة الإنقاذ في عام ١٩٨٩م في بداية عهدها نتيجة لمعلومات استخبارية مغلوطة رأت أن قادة الثورة هم من الذين يقفون مع الخط الناصري ويدعون إلى علاقات حميمية مع مصر، وقدَّمت مصر أول اعتراف بالنظام الجديد ودعمِه وقدمته للآخرين، وباكتشاف اللَّبس الذي وقعت فيه أجهزة المخابرات المصرية، نكصت مصر عن دعمها؛ بل واجهت النظام بالعداء واستغلت انشغال السودان بالوضع في الجنوب والناحية الأمنية ومواجهة المشاكل الاقتصادية التي ورثتها ثورة الإنقاذ، وقامت باحتلال (مثلث حلايب) تلك القضية المسكوت عنها طوال العهود السابقة منذ عهد عبد الناصر، واعتبر السودان ذلك عداءً سافراً من الحكومة المصرية؛ يصب في الرؤية الأمريكية التي رأت أن تضيِّق على السودان بفرض القيود والحظر والمقاطعة الاقتصادية ،ومحاربته من قِبَل جيرانه؛ تلك الخطة التي رعتها (مادلين أولبرايت) وزيرة الخارجية في ذلك الزمان، وجمعت ستاً من دول جوار السودان، ولكنَّ لُطْف المولى - سبحانه وتعالى - صرف معظمَهم عن غزو السودان لمشاكل داخلية في بلدانهم، أو لمواجهات تمت بين تلك البلدان بعضها بعضاً، ما عدا يوغندا التي شاركت في عملية الأمطار الغزيرة بقواتها لغزو جنوب السودان، ولكن السودان بسبب ظروفه الداخلية تعامل بحكمة مع قضية حلايب ولم يلجأ إلى التصعيد العسكري وآثر حل القضية سلمياً عبر المنابر الدولية، وهو ما ترفضه مصر. وظلت قضية الحدود مع مصر من المسائل الشائكة التي تعيق تطوُّر العلاقات بين البلدين، ثم جاءت تداعيات حرب الخليج الثانية وألقت بظلالها على العلاقات المصرية السودانية، نتيجة لاستغلال مصر للحدث والاستفادة من الدعم الأمريكي ومسايرة السياسة الأمريكية وإصرار السودان على الحل العربي المتفق عليه، الذي تم التآمر عليه بليل خلال مؤتمر القمة العربية في القاهرة وظهر السودان كأنه مساند لاحتلال العراق للكويت عام ١٩٩٠م وهو عكس الحقيقة، فرأت مصر في ذلك خروجاً على بيت الطاعة، وموروست الضغوط الغربية والأمريكية على دول المنطقة للتصعيد مع السودان، وفي عام ١٩٩٥م وصلت العلاقات إلى مفترق طرق بعد حادثة محاولة اغتيال الرئيس مبارك في (أديس أبابا)؛ حيث تصاعد التوتر وتأزم الموقف، وتأثرت المصالح المشتركة بين البلدين؛ إلا أن حدة التوتر انخفضت واكتفى البلدان بما يمكن أن يدخل في نطاق الحرب الباردة، أو بين الشد والجذب والتعاون والتنسيق في المحافل الدولية أحياناً حتى درجة الاتفاق على الحريات الأربع بين البلدين.

العلاقات وأثرها على أمن حوض النيل:

حوض النيل: هو المنطقة التي يجتازها النيل من منابعه إلى مصبِّه، ويتكون الحوض من مصر والسودان (قبل انفصال جنوبه) إثيوبيا، ويوغندا، وكينيا، وزائير، وتنزانيا، ورواندا وبورندي، وتبلغ مساحة الحوض ٢,٩ مليون كم٢، ويبلغ طول المجرى من المنبع إلى المصب ٤,١٩٠ ميل أو ٦,٦٩٥ كيلو متر، وهو أطول نهر دولي في العالم.

وللحوض أهمية سياسية، وهو ما جعله موضعاً للصراع الاستعماري عبر الحقب المختلفة؛ فهو يمر من خلال تسع دول، ويربط بين الشعوب العربية في الشمال والإفريقية في الجنوب والشرق، وهو الحزام الواصل بين الثقافة والثقل العربي الإسلامي والثقافة والثقل الإفريقي في الجنوب؛ الأمر الذي جعل الدول الغربية وإسرائيل تسعى لاستغلاله، والتحريض على تهديد الأمن القومي المصري والسوداني (هاتين الدولتين المطلتين على البحر الأحمر)، وتأتي أهميتهما من كونهما منافذ بحرية لبعض دول الحوض الحبيسة، مع اعتبار أهمية مياه النيل واستغلالها ضد مصر والسودان، وظلت مياه النيل مطمعاً أساسياً في المخطط التوسعي الصهيوني في إطار إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات لري صحراء النقب.

باستثناء مصر فإن كل دول الحوض تقع في القرن الإفريقي، وتتميز بعدم الاستقرار السياسي، وهو بؤرة للنزاعات في القارة الإفريقية ومنطقة صراع دائم؛ وهو ما سهَّل التدخل الأجنبي أو الحاجة إليه لغرض الدعم، ثم إن اتفاقية مياه النيل نفسِها هي موضع نزاع دائم بين دول الحوض؛ إذ تُستَغل بالتحريض الأجنبي لاستمرار التوتر في المنطقة بين دول الحوض من جانب، والسودان ومصر من جانب آخر.

الأهمية الاقتصادية لحوض النيل:

يتمتع حوض النيل بكثير من الموارد الاقتصادية التي لم تُستَغل حتى الآن؛ حيث تتوفر فيه المياه لري الأراضي الصالحة للزراعة وترتفع فيه نسبة الخصوبة، ويمكن قيام مشروعات مشتركة في مجالَي الأمن الغذائي والصناعي والطاقة الكهربائية، وهو ما لا يرضي القوى الأجنبية ومصالحها.

لقد استمرت العلاقات بين دول حوض النيل مستقرة نسبياً منذ اتفاقية عام ١٩٥٩م بين مصر والسودان التي نظَّمت استفادةَ كلٍّ منهما من مياه النيل؛ إلا أن الخلافات تظهر من أطراف أخرى بين دول الحوض؛ خاصة التي لم تمنحها الاتفاقية أي نصيب من المياه، ومصر والسودان صاحبتا النصيب الأكبر، أو نتيجة لسياسات التنمية الزراعية والصناعية التي تنتهجها دول الحوض من حين الآخر؛ وهو ما يقلق مصر كثيراً على نصيبها من المياه.

إن كُلاً من البلدين (مصر والسودان) يمثل عمقاً إستراتيجياً للآخر؛ فوادي النيل (مصر والسودان) هو قلب الوطن العربي، وبوابة إفريقيا إلى قارتي آسيا وأوروبا، وهو امتدادهما الطبيعي إلى قلب القارة الإفريقية وشرقها، وله مقومات وإمكانيات تعكس ضرورة التكامل، باعتباره يمثل الصحوة المثلى لتحقيق المصالح المشتركة، وبذلك يصبح السودان ومصر وحدة تهديد واحدة لأطماع الدول العظمى.

وأمن وادي النيل يحتم قيام أمن مشترك بين مصر والسودان، لحماية مصالحهما في وجه التهديد الغربي والإسرائيلي، في ظل غياب الوعي القومي العربي الذي تمثِّله جامعة الدول العربية، وهو الذي غاب تماماً عن الرؤية الإستراتيجية المصرية خلال مسيرة مشاكل جنوب السودان التي انتهت بالاستفتاء على فصل جنوبه عن شماله، وهو ما يعرضه للاستقطاب الصهيوني وتهديد الأمن المائي لمصر وأمنها القومي كذلك؛ إذ قد تستغل إسرائيل هذا الموقف للحضور بثقل عسكري واقتصادي في جنوب السودان أو الدولة الجديدة، وتنهار كافة الاتفاقيات الخاصة بمياه النيل لوجود هذه الدولة.

لقد استعرضنا مسيرة العلاقات السودانية المصرية، فتبين أن تقاطُع المصالح بينهما مما يؤدي إلى تذبذب وتوتر علاقاتهما، وأن توتر العلاقات ناتج في الغالب الأعم عن تدخلات من القوى العالمية، أو بُنيَت على مصلحة آنية أو تكتيكية لم تهتم بالبعد الإستراتيجي للعلاقات، أو حتى أحياناً النظرة الشخصية للقيادات على مرِّ الأزمان.

ولكن البعد الإستراتيجي لهذه العلاقات يؤكد امتلاك كِلا البلدين لمقومات وإمكانيات تعكس ضرورة التكامل لتحقيق المصالح المشتركة للأمن القومي لمصر والسودان، ويحقق خلقَ قوة في المنطقة لا يستهان بها؛ وهو ما يغري بقية دول الجوار للانضمام لها أو السير في ركابها أو عدم التعرض لها والإضرار بمصالحها؛ حيث تتوفر مكونات الأسس المشتركة لهذا التكامل، متمثلة في اشتراكهما في خلفية اجتماعية وحضارية من واقع انتمائهما المشترك للحضارة العربية الإسلامية، وهو ما يقرِّب الأهداف المشتركة ويحقق إدراكاً متقارباً للواقع ومن ثَمَّ السياسات، كما أن ارتباط الأمن القومي لكليهما هو حقيقة ترجع إلى واقع الجغرافية والتاريخ والظروف، وهذا مما يدعو إلى ضرورة التنسيق في كل مجالات القوى الاقتصادية والسياسية والعسكرية والاجتماعية.

العلاقات المصرية السودانية بعد (٢٥ يناير):

في ظل الأهداف والمبادئ التي تنادي بها (ثورة ٢٥ يناير) في مصر في مجال السياسة الخارجية لاستعادة دور مصر الريادي في الإقليم، والخروج من سلطان السياسة الأمريكية الصهيونية، التي أضعفت ذلك الدور وأضرت بالعلاقات المصرية العربية والإفريقية عموماً، وبالعلاقات المصرية السودانية على وجه الخصوص؛ وهو ما أثَّر على الأمن القومي المصري والأمن القومي السوداني، بل تأذى السودان كثيراً نتيجة لتلك السياسة في الأعوام السابقة، وستؤثر على مصر أكثر في المستقبل لتجاهلها للنظرة الإستراتيجية والاكتفاء بالحلول المرحلية والآنية، وبارتفاع شعار استعادة السيادة المصرية يُتَوَقَّع أن تعود العلاقات المصرية السودانية إلى الوضع الذي يخدم كلا البلدين في كل المجالات؛ بما يحقق الأمن القومي لكليهما، فهناك كثير من الأهداف والمصالح المشتركة التي تفرض حتمية التقارب والالتقاء حولها، وتجاوز صراعات وخلافات الماضي. وتشمل تلك الأهداف ما يلي:

- **التعاون المشترك في ما يخص اتفاقيات مياه النيل:** وذلك لتأمين حصة البلدين من المياه، في ظل تهديد دول الحوض بإعادة النظر في الاتفاقيات.
- **التعاون في المجالات الاقتصادية والزراعية والتعليمية:** حيث يُعَدُّ السودان من الأسواق المعتبَرة للمنتجات المصرية، والأراضي الزراعية المتوفرة لديه فيها الحل الناجع

لمشـــاكل الأمن الغذائي المصـــري المتزايدة، تحت تهديد الانفجار الســـكاني والســـيطرة الأمريكية على مصر باســـتخدام ورقة الضغط المتمثلة في القمح الأمريكي.

التعـــاون فـــي المجـــال الأمني العســـكري؛ فالســـودان الذي يجاور ســـبع دول بعد انفصال جنوب الســـودان، والذي تتقاطع مصالحه معهم ومع السياســـة الأمريكية التي تقاتل وتتدخل في الـــدول بالوكالة، يتوقع اســـتمرار التهديد من كل الاتجاهات، كما أن الوجود الصهيوني في جنوب الســـودان، وتقاطع المصالح المصرية ودول حوض النيل، قد يضطر مصرَ للمواجهة العسكرية؛ التي تُعَدُّ علاقات الســـودان ومصر عاملاً حاسماً فيها؛ وقد يحسم اتفاق الدفاع المشـــترك بينهما الصراع قبل بدئه باعتباره عاملَ ردع فاعل.

إن أهميـــة هذه الأهـــداف تفرض على مصر والســـودان تجاوز المشـــاكل، واحتواء الخلافات بينهما، والعمل على تنمية وتطوير علاقاتهما؛ ليس سياســـياً فقط ولكن في كل مجالات التعاون: اقتصادياً، وسياسياً وعسكرياً واجتماعياً... وغيرها. وهذا مما سيثير كثيراً من المشاكل على مصر؛ لتقاطُع ذلك مع المصالـــح الغربية والصهيونية، واســـتغلال الوضع الداخلي في ظل حكومة ليبرالية لخلق حالة من عدم الاســـتقرار في مصر بإثارة الخلافات الحزبية والتباين الديني أو الخلاف الإسلامي المسيحي، أو حتى بالتهديد العسكري في الحدود مع إسرائيل.

إذن تحتـــاج مصر وقبل كل شـــيء إلى تحديد إســـتراتيجية السياســـية الخارجية، التي يجب أن تبدأ متدرجة حتى لا تفاجأ بفتـــح جبهات كثيـــرة، ومواجهة تحديات أكثر فـــي ظل وضع لم يؤسَّس بأرضية اتفاق داخلي صلبة، وبخطط واقعية لمواجهة تلك التحديات، وقد يحتاج هذا إلـــى جمع الناس حول أهداف الأمن القومي المصري، واعتبارِ العقد الاجتماعي بين المواطن والسلطة؛ في ما يخص الخدمـــات الضرورية واعتبارات حقوق الإنســـان، وتذكُّرِ أن الشـــعب الذي ثار على نظام القهر والتســـلط واستعادة الحقوق، لن يسكن مستقبلاً على أي نظام ينتهك هذه الحقوق حتى لـــو جاء عن طريق الانتخاب، على أن يكون هذا الفهم وهذا المنهج منطبقاً على القاعدة أيضاً (أي: عامة الشـــعب) كما هو مطلوب في قمة الهـــرم الحكومي وهذا يتطلب كثيـــراً من الجهد وإفراغ

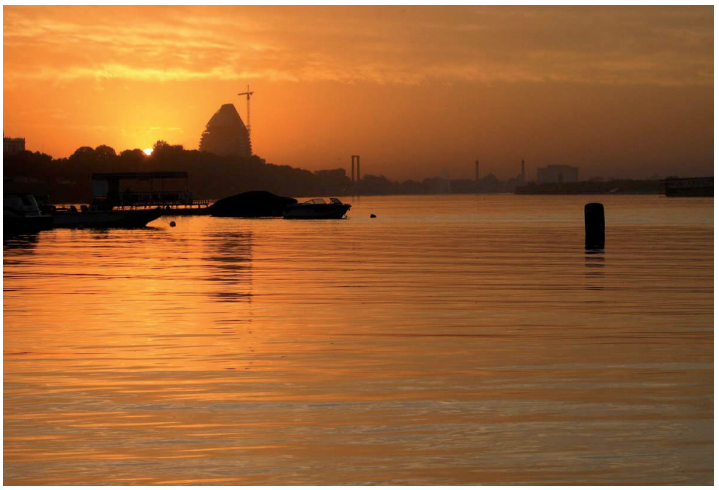

الوســـع في تبصير وتوعية المواطنين باعتبارات المصلحة القومية والوطنيـــة، والخطوط الحمراء في مســـائل الأمن القومي وعدم المساس بها، وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وهي مـــن مقتضيات الدين كما هي من ضروريات الدنيا. وبذلك يمكن حماية البلاد وتحصينها ضد حالة (الصومال) أو التشرذم بقدرات بنيهـــا وعباقرتها ومخلصيها، وبتوحيـــد الكلمة وجمع الصف، ثم لا بد عند اختيار المســـؤولين تفعيل قاعدة (القوي الأمين) وإبعاد الذين تضعف عندهم الأجندة الوطنية، والذين تتقوى بهم العناصر المعادية في تفكيك وتشتيت الوحدة والرأي.

أيضاً لا بد من الاجتهاد في الخروج بنظام ودستور يقلل من الاختلاف والتعـــارض في الرأي وترعى فيه المعارضة المصلحة الوطنية قبل الحكومـــة، وأن تكون الغاية هي مصالح وتطلعات الشعب والأمة.

يقـــول خبـــراء الاقتصـــاد بـــأن الأزمـــة الاقتصادية في مصـــر ازدادت بزيادة النفوذ السياســـي لطبقة رجال الأعمال ومشاركتهم في الحكومة، ولتنفيذ القرارات الاقتصادية الجائرة في حق البلاد والعباد؛ وهو ما أدى إلى زيادة التضخم والبطالة والديون. وإصـــلاح الحالة الاقتصادية يتطلب الخروج من هذه الدائرة وإسناد الأمر لأهل الاختصاص.

من المؤكـــد أن مصر بعد ثورة الخامس والعشـــرين من يناير لن تعـــود كمصر ما قبل ذلك، فإن أرادت مصر اســـتعادة موقعها في خريطة الوطن العربي الســـابقة على الأقل فالسبيل إلى ذلك هو انتهاج سياســـة تحقق سيادتها الوطنية أولاً والعمل على خدمة قضايا الأمة؛ بالأخص قضيتها المحورية (فلســـطين)؛ فالمتوقع أن تتغير السياسة المصرية الخارجية بالتدرج في ظل معطيات الواقع الداخلي والوضع الإقليمي والدولي واعتبارات الأمن القومي، وليس

من الحكمة فتح ملفات (كامب دافيد) والعلاقات مع الولايات المتحدة في عجالة انفعالاً مع شعارات الثورة، بل قد تحتاج إلى فترة لترسيخ النظام وتأسيسه، وكسب تأييد دول المنطقة والأمة الإسلامية ودول عدم الانحياز إن وجدت.

ما جاء في حق مصر في السياسة الخارجية والداخلية يحتاجه السودان في الفترة القادمة أيضاً لخلق وضع مستقر متطور ونام؛ يمكن أن يحقق - بالتعاون مع مصر - وضعاً إقليمياً يخدم مصلحة البلدين، ويتوقع السودان من العهد الجديد في مصر حل مشكلة الحدود الأزلية المسكوت عنها، وإنهاء الاحتلال العسكري لحلايب وإيقاف سياسة التمصير التي انتهجها نظام حسني مبارك، وأن يعتمد الطرفان أسلوب الحوار أو التحكيم لحل المعضلة نهائياً، وقد يكون ذلك في إطار منطقة تكامُل كما هو مقترَح لخدمة البلدين، ولكن في ظل الحق القانوني للسودان في حلايب ومناطق الخلاف الأخرى أيضاً. يحتاج السودان في ظل مقتضيات الأمن القومي، وظروفه الداخلية وبيئته الإقليمية والدولية إلى تطوير علاقاته أمنياً وعسكرياً مع مصر بشكل لا يدعو لإثارة البيئة المحلية والإقليمية والدولية.

وفي ظل التعاون الاقتصادي المشترك يُتوَقع أن يكون السودان وسيلة لتمزيق ورقة الضغط الأمريكية (الأمن الغذائي المصري)؛ فموارد السودان الزراعية بالتعاون الفني مع مصر يمكن أن تكون نتائج المشاريع الاقتصادية والزراعية فيها خاصة ذاتَ فائدة كبيرة لشعبَي وادي النيل.

إن قضية مياه النيل تحتاج لبلورة رؤية سودانية مصرية تخدم مصلحتيهما مع اعتبار مصالح دول الحوض الأخرى، بل الأجدى كسب دول الحوض الأخرى لخدمة هذه الرؤية بدلاً من مقاطعتها، أو فرض الرأي عليها، ولو كان وَفْقَ مجريات القانون الدولي؛ فالمعلوم أن آليات تنفيذ القانون الدولي حالياً تخضع كلها للمصالح الغربية، ولن تخدم مصلحة مصر والسودان وقتها.

إن قضايا السودان الداخلية بعد (نيفاشا) ومآلاتها المتوقعة تحتاج إلى الدعم المصري؛ وخاصة أنها مؤثرة وتتأثر بأهداف السياسة الدولية، مثل قضية (دارفور)، وما سينتج من اتفاق نيفاشا في مناطق: أبيي، وجنوب كردفان، والنيل الأزرق.

لا شك أن مجالات التعاون بين السودان ومصر كثيرة ولا حصر لها، ونشير فقط لقضايا: التعليم، وتنمية الموارد البشرية، والإعلام إضافة إلى ما ذُكِر.

إذن التكامل بين البلدين يحقق مصالح وأهدافاً تصب في أمن ومصلحة كليهما، وقد يكون ذلك مثلاً حياً لجميع بلدان الإقليم الأخرى، في إطار وحدة تُبْنَى على مصالح مشتركة حقيقية، وذات فاعلية وأثر ملموس على شعوب وبلدان الإقليم؛ خلافاً لما هو حادث في مؤسسات قائمة الآن لا أثر لها على أعضاء المنظمة وبلدانها.

وقبل ذلك كله لا بد أن تنظر مصر إلى السودان نظرة النِّد والبلد المجاور ذي المصالح المشتركة، وأن تتخلص من نظرة التعالي التي سادت طول الحقبة الماضية، وعندها ستجد فيه بلداً متعاوناً صديقاً يتداعى عند الحاجة إليه. وبالله التوفيق.

مجلة البيان

جديد مجلة البيان

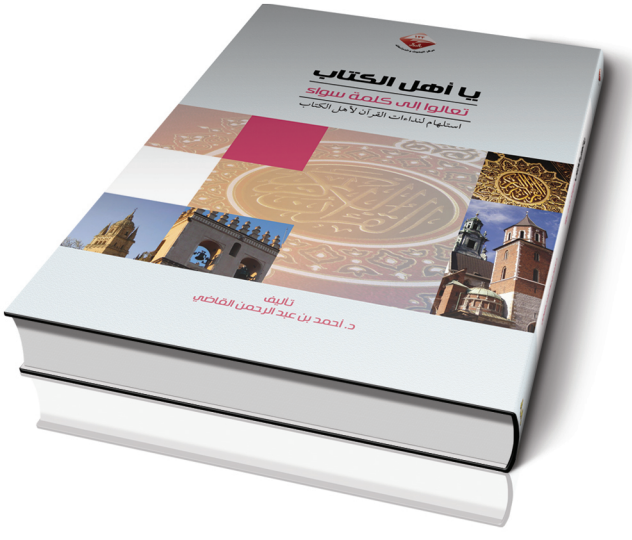

www.albayan.co.uk

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

تفتيت العرب...

هل من فرصة؟

عبد المنعم منيب

إن مخطط تفتيت الدول العربية قديم، وسبق أن كتبنا (نحن وغيرنا) عنه وعن آفاقه، وأشرنا إلى أنه مخطط صهيوني أصبحت الولايات المتحدة تدعمه بشكل أو بآخر.

لكن هل هو قَدَر حتمي؟

طبعاً لا يمكن أن نعتبره قدراً حتمياً، لكنه مجرد خطط إستراتيجية ترعاها إسرائيل وحلفاؤها في الغرب وقد تنجح في حالات وتُخفِق في حالات أخرى؛ لكن الواقع المشاهَد يشير إلى نجاحها وسيرها قُدُماً بخطى ثابتةٍ في كثير من الأحوال؛ وإن كانت بطيئة لحدٍّ مَّا .

وكحال أي واقع أو أحداث جديدة نجد أن واقع التفتيت كما أن فيه ما فيه من مخاطر؛ فإنه يحمل في طياته أيضاً كثيراً من الفرص.

لقد كانت وظيفة الدولة الوطنية التي تسلَّمت الحكم في دول عالمنا الإسلامي من الاحتلال الغربي، هي المحافظةُ على الإرث الغربي المتمثل في الواقع المتغرب للنخب (السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية) في عالمنا الإسلامي، وذلك - طبعاً - جزء من الإرث الذي كرسه الاحتلال الغربي في عالمنا الإسلامي، وكانت المحافظة عليه بل تنميته هي المهمة الأولى للدولة الوطنية الحديثة في عالمنا الإسلامي، والجزء الآخر من الإرث هو المحافظة على تخلُّفنا العلمي والتقني مع تبعيتنا الفكرية والعلمية والتقنية للغرب، وقد حافظت دولتنا الوطنية على ذلك الإرث كله بامتياز.

أما وظيفة الدويلات العرقية والإثنية والطائفية التي يريد الغرب أن يؤول إليها عالمنا الإسلامي والعربي، فهي تكريس حالة من العجز والضعف على كل المستويات (السياسية، والإستراتيجية، والعلمية، والتقنية، والثقافية، والدينية، والأخلاقية) عبر وسائل متعددة، منها: التحلل الأخلاقي، والتفكيك الاجتماعي، والتغريب، و (الأوربة والأمركة) الفكرية والثقافية والدينية. ولكن لا ننسى أن هذه الدويلات الطائفية والعرقية لن تقوم إلا على أساس من الصراع والتناحر مع محيطها الإقليمي؛ ومن هنا فإن الصراع والتناحر وسياسة المحاور الإقليمية والحرب الباردة الإقليمية؛ كل هذا سيظل جوهر الموقف السياسي الإقليمي؛ فضلاً عن أن هذا التناحر الإقليمي لا شك أنه هو الأداة الأبرز للحفاظ على ضعف الدويلات الناشئة.

إن الخطر الإقليمي والدولي الأهم في هذه الحالة: هو أن المنطقة سوف تتحول إلى لُقْمة سائغة لإسرائيل والغرب، بل لكل قوة دولية أو إقليمية بوسعها الانقضاض على القصعة المتلئة بالطعام ألا وهي منطقتنا العربية؛ فالهند والصين وروسيا واليابان كلها قوى صاعدة طامحة طامعة لا ينبغي أن

تغيب عن حساباتنا الإستراتيجية.

وكما أن المشهد الجديد المرتقب لعالمنا العربي هو مشهد قاتم بمخاطره وأدوائه، فإنه لا يخلو من شعاع ضوء يلوح من ثنايا هذه الأدواء - أدواء الفرقة والضعف - ينبهنا لقدر من الفرص التي لا يخلوا منها أي واقع مهما بلغت درجة قتامته؛ إذ إن الفُرقة والتناحر في هذه الحالة بالذات سوف يدفعان لمزيد من تحقيق سُنة التدافع التي تعلَّمنا أهميتها من القرآن الكريم عندما قال الله - عز وجل -: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال - تعالى - أيضاً: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وربما يبدو هذا الأمر مبهماً؛ ولكننا نشير هنا لعدد من الأمثلة مما يقرب الفكرة للأذهان؛ فاستعلاء النصارى في مصر في الشهور الأخيرة واستقواؤهم بالغرب دفع الحكومة المصرية [في عهد الرئيس المخلوع حسني مبارك] إلى إفساح هامش من الحرية لعدد من القوى الإسلامية للقيام بمظاهرات، وعَقْد المؤتمرات، وشَنِّ هجوم إعلامي مركَّز على النشاط السياسي المتزايد للكنيسة المصرية، كما أن المد الشيعي والتهديد بنشأة دويلات طائفية في كلٍّ من اليمن والعراق وغيرها دفع عدداً من الحكومات العربية لإفساح المجال للنشاط الدعوي السُّني بعد قَدْرٍ سابق من التضييق، وهكذا قد نرى حكومات كثيرة تغض الطرف عن نشاط إسلامي مَّا هنا أو هناك لأغراض سياسية مُلحَّة. صحيح أننا شاهدنا وما زلنا نشاهد في أغلب الأحوال أن الحركة الإسلامية في هذا المجال مؤثَّرٌ فيها لا مؤثِّرة، لكن ليس من حقنا نحن الإسلاميين أن نطلب الربح السياسي والإستراتيجي دون عناء التفكير والحساب السياسي والإستراتيجي الدقيق، والعمل وَفْقَ ذلك؛ فيجب أن نطوِّر أنفسنا فكراً وأداءً كي نستطيع مواجهة متطلبات المرحلة والارتفاع لمستوى التحديات المفروضة علينا كمّاً ونوعاً حتى نتحول لفاعل سياسي وإستراتيجي في المنطقة، بل في العالم؛ بدل حالة التأثُّر التي نعيشها رغم أننا الأجدر بالتطور ومن ثَمَّ يكون الفعل الإيجابي الفعَّال.

ومن التطوير المطلوب أن يشمل التفكير والأداء الإسلامي المجالات والمستويات الإقليمية والدولية؛ فكما أن المؤامرة ضد العمل الإسلامي مؤامرة دولية وإقليمية فلا بد من مواجهتها بالأسلوب نفسه، وكما تتكاتف قوى دولية وإقليمية ضد المسلمين فإن المسلمين لا بد أن تشمل حساباتهم السياسية والإستراتيجية كل هذه القوى بلا تهاون أو إهمال، كما ينبغي أن تتكاتف جهود الإسلاميين الإقليمية والدولية، وأن يبحثوا عن صيغ للتعاون في الشؤون المتفق عليها مع بذل جهود فكرية وفقهية ودعوية مضنية لتوسيع مساحات الاتفاق وتضييق مساحات الاختلاف.

والتفكير الإستراتيجي من أبرز سماته الشمول والعمومية؛ وبناءً على ذلك فليس من العقلانية أو الصدق مع النفس أن نزعم أننا نعمل عملاً إستراتيجياً مَّا وهو لا يراعي المتغيرات الإقليمية والدولية، هذا مع أن لكل ذلك أصول في فقه السياسة الشرعية الدقيقة الرصينة؛ فالنبي ﷺ اهتم منذ بداية الدعوة بالآفاق الإقليمية (قبائل الجزيرة العربية) والدولية (كالحبشة مثلاً) على الرغم من أنه كان في حالة استضعاف مريرة، وكان عدد أتباعه وأنصاره لم يصل بَعدُ ألف شخص.

وأيضاً تشير أحكام السياسة الشرعية إلى الآفاق الواسعة التي غالباً ما يتيحها الاعتماد على المتغيرات الإقليمية والدولية؛ إذ يقول - تعالى -: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]. إن الآية وإن كانت تتكلم بشكل مباشر وصريح عن فعل محدد من أفعال العمل السياسي الإسلامي وهو الهجرة في سبيل الله؛ إلا أنها تومئ وتشير إلى السعة والخيارات الكثيرة التي تتيحها الدوائر الإقليمية والدولية.

وانطلاقاً من هذا كله فإن عالم ما بعد التفتيت العربي قد يتيح فُرَصاً جديدة من منطلق أنه عالَم جديد له متغيراته الجديدة بما فيها من فرص جديدة؛ لكن هذه المتغيرات وما تحمله من فرص لن تعمل بمفردها؛ بل لا بد أن نقوم باستغلالها، وقد كان العالم الإسلامي وقت الهجمة الصليبية على الشام في العصور الوسطى مفتَّتاً وظل مفتَّتاً ومهزوماً حتى قام قادة إسلاميون: كعماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، وخلفاؤهم بالتعامل إستراتيجياً مع الواقع ووحَّدوا المسلمين وحرروا الشام من الصليبيين.

مرصد الأخبار

محلل صهيوني: البديل الوحيد لنظام مبارك هو الإسلام

رأى المحلل السياسي الإسرائيلي رون ليشيم أنَّ البديل الوحيد لنظام مبارك سيكون الإسلام، مشيراً إلى أنَّه عندما سيتوجه الشعب المصري إلى صناديق الاقتراع فإنه سينتخب هذه الحركة المنظمة جداً في مصر، والقادرة على منح الشعب المصري ما يريده.

وأضاف أنَّ النظام المصري الجديد سيكون على شاكلة النظام في تركيا؛ وأنَّ الإخوان المسلمين سيسيطرون على مقاليد الحكم، وبعد مرور فترة زمنية سيقومون بالسيطرة على الجيش، وهو الجيش الأقوى في الشرق الأوسط بعد الجيش الإسرائيلي، وهنا تكمن المشكلة الكبيرة للدولة العبرية، بحسب المحلل ليشيم.

وخلص إلى القول: إنه في العقود القادمة القريبة فإن الحركات الإسلامية الراديكالية هي التي ستُحدد الأجندة السياسية في منطقة الشرق الأوسط، وهذه العملية بدأت، ولا تستطيع أيُّ جهة وقف المد الإسلامي المتطرف في العالم العربي، على حد قوله.

[المركز الفلسطيني للإعلام عن التلفزيون الصهيوني، ٢٠١١/٣/٢٦م]

جلال سعد الشايب
galal_elshayp@hotmail.com

الصين تنافس أمريكا على قمة الإنجازات العلمية

شهدت الصين «طفرة غير مسبوقة» في مجال الأبحاث العلمية المنشورة، خلال العقدين الماضيين، وأنها في طريقها لانتزاع صدارة الإنجازات العلمية من الولايات المتحدة الأمريكية التي تتصدر القائمة حالياً.

وهذا هو ما ورد في دراسة للجمعية الملَكية البريطانية تحت عنوان: «المعرفة والشبكات والدول: التعاون العلمي العالمي في القرن ٢١»، مؤكِّدة على أن نسبة تبلغ أقل من واحد من بين كل ٢٠ بحثاً علمياً على مستوى العالم، تأتي من الصين، خلال العقد الذي انتهى في عام ٢٠٠٣م.

وأن هذه النسبة ارتفعت إلى أكثر من واحد من عشرة، خلال الفترة بين عامي (٢٠٠٤ - ٢٠٠٨م)، مشيرةً إلى أن هذه النسبة دفعت الصين إلى التفوق على كثير من الدول في هذا المجال، حيث تقدمت من المركز السادس إلى المركز الثاني.

فمتى نقرأ عن دولة إسلامية تنازع الصين على قمة إنجازاتها العلمية؟

[صدى الوطن (جريدة العرب في أمريكا الشمالية) ٢٠١١/٣/٣٠م]

ملايين اليوروهات فاتورة التلوث في أوروبا

أكدت دراسة شارك فيها مائتا خبير من ٢١ دولة و ٨٩ منظمة دولية، على أن التلوث النيتروجيني الذي تتسبب به السيارات والمزارع ومعالجة المخلفات الصناعية يُكلف ٢٨٠ مليار جنيه إسترليني (وهو ما يعادل ٣٢٠ مليار يورو) في دول الاتحاد الأوروبي.

وتخلص الدراسة - التي صدرت في ستمائة صفحة - إلى أن مزارع الحيوانات هي أحد أهم أسباب التلوث النيتروجيني، داعية إلى تغييرات في المزارع ومراقبة أشد لصناعة السيارات.

كما يقول التقرير: إن استخدام الأسمدة النيتروجينية ضروري، ولكنه يلوم المزارعين في الوقت نفسه لسوء استخدامهم لها، وهو ما يتسبب بالتلوث النيتروجيني، وتتسبب الزراعة في انبعاث ٧٠ في المئة من النيتروجين المؤكسد في أوروبا.

ومن أهم التوصيات التي خرج بها التقرير: أنه لا بد من سن قوانين جديدة للحد من انبعاث النيتروجين التفاعلي العام القادم، بكل صوره المختلفة.

[وكالة الأنباء الأمريكية UPI ٢٠١١/٤/١١م]

مجلس شيوخ أميركا يطلب إلغاء تقرير غولدستون

صوَّت مجلس الشيوخ الأميركي بالإجماع على قرار يطلب من الأمم المتحدة إلغاء تقرير غولدستون الخاص بجرائم الحرب التي ارتكبتها إسرائيل في قطاع غزة قبل عامين.

وجاء ذلك في وقت تستمر فيه الانتقادات لموقف القاضي الجنوب إفريقي الذي طالب مؤخراً بإعادة النظر في مضمون التقرير المؤلَّف من ٥٧٥ صفحة وهو يحمل اسمه ونشر في سبتمبر ٢٠٠٩م.

ويدعو قرارُ مجلس الشيوخ أعضاءَ مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة للأخذ باعتراف واضع التقرير بشأن نتائجه الرئيسية؛ وإلغاء التقرير وإعادة النظر في أي عمل مستقبلي يقوم به المجلس لناحية الاحتفاظ بنتائج التقرير.

كما يدعو قرار الشيوخ الأميركي الأمين العام للأمم المتحدة (بان كي مون) إلى إعادة تشكيل مجلس حقوق الإنسان كي لا ينتقد «بشكل ظالم» إسرائيل.

وكانت إسرائيل هاجمت قطاع غزة في ديسمبر ٢٠٠٨م، واستشهد نحو ١٤٠٠ فلسطيني من بينهم مئات من المدنيين.

[الجزيرة ٢٠١١/٤/١٥م]

استعداد تركي لاستضافة مكتب لحركة «طالبان»

صرح دبلوماسي تركي رفيع إمكان استضافة بلاده مكتباً لحركة «طالبان» من أجل تشجيع عملية السلام في أفغانستان، وأوضح الدبلوماسي بقوله: «أبدينا دائماً استعدادنا لتنفيذ كل ما في وسعنا للمساهمة في جهود السلام في أفغانستان»، علماً أن تركيا العضو في الحلف الأطلسي (ناتو) تشارك في مهمات غير قتالية لـ «الناتو» في أفغانستان، وتضطلع بدور وسيط بين أفغانستان وباكستان المجاورة، لتجاوز خلافاتهما السياسية والأمنية.

والتقى الرئيس الأفغاني السابق ورئيس مجلس السلام برهان الدين رباني، مسؤولين أتراكاً في أنقرة في فبراير الماضي، وأيَّد فكرةَ فتح مكتب يمثل مصالح الحركة في تركيا.

[دار الحياة ٢٠١١/٤/١٣م]

مساومة صهيونية لإطلاق جاسوس إسرائيلي في أمريكا

في تقرير بثته الإذاعة الإسرائيلية العامة: أن الحاخام الأكبر لطائفة اليهود الغربيين في إسرائيل يونا ميتزغر حثَّ الرئيس الأمريكي باراك أوباما على العَفْو عن الجاسوس اليهودي جوناثان بولارد للحصول على ولاية ثانية في البيت الأبيض.

ونقلت الإذاعة عن ميتزغر قوله في كلمة في كنيس يشارون في القدس المحتلة: يجب أن يُثبت أوباما صداقته لإسرائيل ويفرج حالاً عن جوناثان بولارد، وأضاف: «العفو عن بولارد قد يساعد إلى حدٍّ كبير أوباما في الفوز بولاية جديدة في البيت الأبيض. لا أريد إطلاق التكهنات لكنني أعبِّر عن شعور كثيرين من اليهود (الأمريكيين) الذين صوَّتوا له ويشعرون بخيبة أمل من مماطلاته على الرغم من كثير من النداءات الموجَّهة من أجل بولارد».

وحُكِم على جوناثان بولارد (٥٦ عاماً) المحلل في البحرية الأمريكية بالسجن مدى الحياة في عام ١٩٨٧م؛ لأنه سلَّم إسرائيل من مايو ١٩٨٤م وحتى اعتقاله في نوفمبر ١٩٨٥م آلاف الوثائق «الدفاعية السرية» حول نشاطات التجسس في الولايات المتحدة، خصوصاً في الدول العربية.

واعترفت إسرائيل في عام ١٩٩٨م رسمياً بجوناثان بولارد وأنه جاسوس إسرائيلي مُنِحَ الجنسية عام ١٩٩٥م.

[المركز الفلسطيني للإعلام /٢٠١١/٤م]

س: تواجه إدارة أوباما انتقادات كثيرة على تعاملها مع الأزمة الليبية؛ فَلمَ ذلك؟

ج: في مقال نشرته مجلة فورين أفيرز الأمريكية استعرض خلاله الكاتب مايكل أوهانلون الباحث في معهد بروكينغز تلك الانتقادات من الداخل وسط مخاوف تتعلق بما ستفضي إليه العمليات العسكرية في ليبيا.

وأورد خلاله رؤية المنتقدين للدور الأمريكي في التعامل مع القضية الليبية.

واختصارُه: أنهم أكدوا على أن الولايات المتحدة أبطأت في التعامل مع الأزمة في ليبيا، ثم إنها حين تدخَّلت عسكرياً بدأت تفقد حماسها شيئاً فشيئاً؛ حيث قررت بعد أيام فقط من بدء عملية «فجر أوديسا» نقل قيادة العمليات إلى الدول الأوروبية في الحلف الأطلسي.

كما أنها لم تشرك الكونغرس في اتخاذ القرار في ما يتعلق بالتدخل العسكري، وقد عبَّر أعضاء من الجمهوريين والديمقراطيين على حد سواء عن تحفظات بهذا الشأن.

وانتُقدت كذلك لفشلها في وضع خريطة طريق ترسم بوضوح المرحلة المقبلة، بينما يكرر الرئيس أوباما دعواته إلى رحيل القذافي.

وأيضاً تضاربت التصريحات الخارجية بهذا الشأن؛ فهي تارة تردد أنه لم يعد للقذافي شرعية ليحكم ليبيا بعد القمع الدامي الذي مارسه ضد شعبه، وهو الموقف نفسه الذي تتبناه باريس وواشنطن وعواصم غربية أخرى، وتقول أيضاً: إن الهدف من العمل العسكري لا يتجاوز حماية المدنيين الليبيين إلى الإطاحة بالقذافي، وغيرها من التصريحات التي لم يخرج الموقف عنها.

ويلاحظ الباحث في معهد بروكينغز أنه قبل بدء التدخل في كوسوفو كان هناك قدر أقل من الخلافات في صلب حلف شمال الأطلسي (الناتو) مقارنة بما كان عليه الحال قبيل بدء عملية «فجر أوديسا» في ليبيا.

ويلاحظ أيضاً أن الرئيس باراك أوباما نُصِح من مستشاريه باللجوء إلى العمل العسكري خشية أن يكرر القذافي سيناريو مجازر البوسنة ورواندا.

وعن سيناريوهات لما ستؤول إليه العمليات العسكرية الجارية، يفترض الباحث عدداً منها، فمثلاً:

أن الولايات المتحدة قد تقبل بـ «حكومة وحدة وطنية» تجمع مؤيدي معمر القذافي ومعارضيه (رغم رفض المعارضة).

وقد تسمح الولايات المتحدة للعقيد الليبي بالاستمرار لبعض الوقت في الحكم بعدما تفرض عليه وقف إطلاق النار ضد شعبه مثلما سمحت لرئيس يوغسلافيا السابقة سلوبودان ميلوسوفيتش بالبقاء بعد التدخل في كوسوفو.

[بتصرف.. من مقال الكاتب مايكل أوهانلون – مجلة فورين أفيرز الأمريكية، الجزيرة ٢/٤/٢٠١١م]

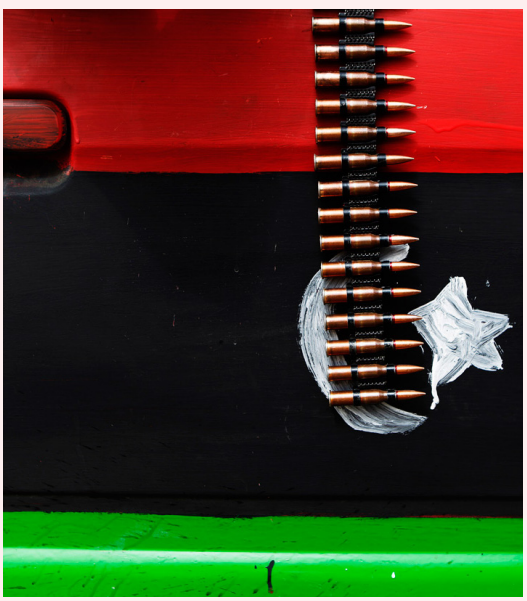

مرصد الأرقام

خَلُـص باحثون ألمان إلى أن ١٠٪ من السـرطانات التي تصيب الرجال، و ٣ ٪ من التي تصيب النساء في أوروبا الغربية مردُّها إلى الإفراط في تناول المشروبات الكحولية، وقـد درس الباحثون بيانـات جمعوها من فرنسا وإيطاليا وإسـبانيا وبريطانيا وهولندا واليونان وألمانيا والدنمارك، وتوصَّلوا إلى أن ٥٠,٤٠٠ من مجموع ٧٩,١٠٠ حالة إصابة بأنواع معينة من السرطانات، بما فيها سـرطانات الأمعاء الغليظـة والحنجرة، في عام ٢٠٠٨م سببها تناوُل كميات كبيرة من الكحول.

واعتمد البحث علـى بيانات جمعت من ٣٦٣,٩٨٨ رجل وامرأة تراوحت أعمارهم بين الـ ٣٥ والـ ٧٠ عند انضمامهم إلى البحث، جرى تتبع حالاتهم منذ أواسط تسعينيات القرن الماضي.

[bbc العربية ٢٠١١/٤/٨م]

أظهرت نتائج الاستطلاع الذي أجرته مؤسسة «نيو ويف» لصالح صحيفة «إسرائيل اليوم»، مستهدِفة عيِّنة تألَّفـت من ٤٠٠ يهودي صهيوني مـن الناطقين باللغة العبرية، أن ٦٠ ٪ من الصهاينة، يؤيدون قيام الحكومة بحملة عسـكرية شـاملة على قطاع غزة، على غرار الحرب التي شـنتها قوات الاحتلال على غزة قبل نحو عامـين، وفقط ٢٩,٦ ٪ من أفراد العيِّنة تعارض تنفيذ حملة عسكرية شاملة على قطاع غزة.

[شبكة فلسطين للحوار ٢٠١١/٤/١٧م]

وفي اسـتطلاع رأي آخر أجراه موقع «السياسـة» الكويتيـة، على مدار الأسـبوع الماضـي، وقد أظهر أن ٨٤ ٪ من العيِّنة المسـتطلَعة آراؤهـم يؤيدون قيام حكومات دول مجلس التعاون الخليجي بقطع العلاقات الدبلوماسية مع إيران، بينما رفض المقترحَ ١٥ ٪ فقط، وقال ١ ٪ من المشـاركين بأصواتهم: إنه ليس لهم رأي في الموضوع.

وشـارك في اسـتطلاع صحيفة «السياسة» على موقعهـا الإلكتروني ما يقرب من ٢٥٠٠ شـخص من مختلف الفئات الاجتماعية والذكور والإناث.

[السياسة الكويتية ٢٠١١/٤/١٧م]

علامة تعجب

حرية الرأي... لهم وعلينا

رغم ادِّعائهم بأن موقعهم يعمل على الموازنة بين حرية الرأي والتعبير واحترام الرأي الآخـر، قامت إدارة الموقع الاجتماعي الشـهير «الفيس بوك» بحذف صفحة «الانتفاضة الفلسطينية الثالثة» من على موقعها، بعد الإدِّعاء أنها كانت تدعو إلى تنظيم هجوم مسلح على إسرائيل.

ومـن العجيـب أن ما دعـت إليـه الصفحة هـو خروج الفلسـطينيين إلى الشوارع، والقيام بثورة بعد كل صلاة جمعة، وهو ما يحدث بين معظم الشـعوب العربية نفسـها؛ فما بالنا بدولة محتلة لأرضنا، مستعمِرة لخيراتنا وقدسنا!

كمـا أنه على الرغم من أن قوانين الفيس بوك في حذف أو تعديل صفحات عليها يقتضي جمع أكثر من مائة ألف توقيع أو اشـتراك؛ إلا أنها وبمجرد ضغطة ذر أوقفت العمل في صفحة الانتفاضة وهو ما يدل على الكيل بمائة ميكال.

وقد قامت إدارة موقع الفيس بوك قبل ذلك بإزالة صفحات كثيـرة لانتهاكهـا سياسـاته الخاصة، ومنها التـي تضم غير المعترفين بالمحرقة والجماعات المضادة للمثلية، وغيرها.

[الدستور الأصلي الإلكترونية ٢٠١١/٣/٢٩م]

الناتو يرفض الاعتذار عن قصف ثوار ليبيا

بعد قصفه لمواقع تابعة للثوار الذين يخوضون معارك طاحنة ضد القوات الموالية للزعيم الليبي (معمر القذافي)، أسـفرت عن سقوط عدد من القتلى، رفض الناتو الاعتذار، معلقين على الحدث باسـتهجان أن القوات الدولية قصفت مواقع الثوار عن «طريق الخطأ»، ثم «أن الناتو بالكاد سمع أن قوات الثوار لديهم دبابات».

وقد أوضح المتحدث باسـم حلف الأطلسـي، الأدميرال في البحرية البريطانية (راسـل هاردينغ) في تصريح للصحفيين: (الوضـع «مائع» للغايـة... ثمة كثير من السـيارات المتحركة بالاتجاهين، ومن الصعب التمييز بين من يقود هذه السيارات».

[بتصرف من شبكة cnn الإخبارية ٢٠١١/٤/١٤م]

الأقلية المسلمة في اليابان

د. أحمد محمود السيد
mr.ah54@hotmail.com

تقع اليابان شرقي القارة الآسيوية وهي عبارة عن أرخبيل من الجزر يجاورها من الغرب روسيا وكوريا الشمالية وكوريا الجنوبية وتقع هذه الجزر في المحيط الهادي.

السكان: عدد سكان اليابان ١٣٢,٦ مليون حسب آخر التقديرات.

الديانات: ٨٠ ٪ من اليابانيين يعتنقون البوذية والشنتوية، وأكثر من ١٪ مسيحيون، وأقل من ١٪ على دين الإسلام. وعدد المسلمين في اليابان حوالي مائة وخمسين ألف مسلم.

وينتشر المسلمون في اليابان من أقصى جزيرة في شمال اليابان «هوكايدو» إلى أقصى جزيرة صغيرة في جزر «أوكيناوا» جنوباً، قرب تايوان، ومن أقصى الشرق «طوكيو» إلى أقصى الغرب «كانازاوا» و «شمياني توتوري».

• وأول ياباني أسلم هو «عبدالحليم أفندي»، «أوسوتارا نودا» عام ١٨٩١م، وهو مراسل جريدة بيجي شيمبون. ودخل الإسلام نتيجة مناظرة، أجراها معه رئيس المسلمين في ليفربول السيد عبد الله كيليام أفندي؛ فبينما كان عبدالله كيليام أفندي في إسطنبول، تباحث مع عبدالحليم أفندي حول موافقة الدين الإسلامي للعقل والمنطق، وكان كلامه باللغة الإنجليزية، وسرد له البراهين العقلية، فوجدها عبدالحليم مقبولة، فهداه الله إلى الصراط المستقيم.

• وأدَّى الحجَّ أوَّلُ ياباني عام ١٩٠٩م، وهو «عمر ياما أوكا»؛ فقد صاحب «عبدالرشيد إبراهيم» إلى الديار المقدَّسة ثم إلى إسطنبول. وحين احتلت اليابان الصين وإندونيسيا وماليزيا والفلبين أسلم عدد من اليابانيين. وأول مجموعة دعاة زارت اليابان بعد الحرب العالمية الثانية كانت من جماعة الدعوة والتبليغ (من عام ١٩٥٦م إلى عام ١٩٦٠م)، وأسلم على يدهم كثير من اليابانيين.

ومن أشهر الدعاة الذين زاروا اليابان وكان لهم تأثير ملموس المرحوم علي أحمد الجرجاوي، وهو محام شرعي مصري، سمع في عام ١٩٠٦م أن مؤتمراً يعقد في اليابان يبحث فيه اليابانيون مختلف الأديان لاختيار الدين المناسب، فسافر من أجل ذلك وألَّف كتاب «الرحلة اليابانية» وذكر فيه أن ١٢٠٠٠ ياباني اهتدى على يديه، وقد كان معه في هذه الرحلة داعية من الصين، وداعية من روسيا، وداعية من الهند، وقد طُبع الكتاب في القاهرة عام ١٩٠٧م.

من أهم المؤسسات الإسلامية في اليابان:

١ - المركز الإسلامي الياباني: وهو هيئة اعتبارية قانونية بدأت نواته عام ١٩٦٥م، وقد حصل على اعتراف الحكومة اليابانية وسُجِّل لدى الحكومة عام ١٩٨٠م. ويقوم بمهمة تقديم الإسلام للشعب الياباني عامة ويدعو المسلمين في اليابان بالفكر والتوجيه والكتاب والتعليم ويتعاون مع كافة المسلمين في اليابان أفراداً وجماعات» ومن رسائل المركز المهمة إيجاد مناخ للتعاون والتعارف بين اليابان والعالم الإسلامي. ورفع المركز شعاراً هاماً مكوناً من ثلاث نقاط هي: (الدعوة، النشر، التنسيق).

الجمعيات الإسلامية، منها:

١ - الجمعية الإسلامية اليابانية،

٢ - والمؤتمر الإسلامي الياباني.

٣ - الجمعية اليابانية الثقافية

٤ - جمعية الطلاب اليابانيين المسلمين.

٥ - جمعية مسلمي اليابان: وهذه الجمعية هي حصيلة الوجود الإسلامي للمسلمين اليابانيين حتى عام ١٩٥٣م، وهي أول جمعيَّة إسلاميَّة خالصة أسَّسها مسلمُو ما قبل الحرب العالمية الثانية، الذين عادوا بعد إسلامهم في إندونيسيا وماليزيا والصين، وكذلك مَن بقي حيّاً من المسلمين الأوائل في اليابان،

٦ - الجمعيَّة الإسلاميَّة في «هوكايدو».

٧ - جمعيَّة المرأة المسلمة أوساكا وكيوتو.

خمس ترجمات لمعاني القرآن:

يذكر الدكتور السامرائي «مدير المركز الإسلامي في اليابان» أن هناك خمس ترجمات لمعاني القرآن الكريم باليابانية، واحدة فقط قام بها ثلاثة مسلمين في مكة المكرمة: أحدهم ياباني هو المرحوم عمر ميتا، والثاني باكستاني هو المرحوم عبد الرشيد أرشد، والثالث باكستاني أيضاً وهو المرحوم مصطفى كوموراً.

وتبذل الجمعيات الإسلامية في اليابان جهوداً كبيرة في سبيل نشر الدعوة الإسلامية من خلال بناء المدارس الإسلامية، والاهتمام بتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم اللغة العربية، كما أقامت رابطة العالم الإسلامي مركزاً إسلامياً في طوكيو.

بعض المشكلات التي تواجه المسلمين في اليابان:

يعاني المسلمون في اليابان من مشاكل معظمها تتمحور حول اللغة والترجمة والمعلِّمين المؤهَّلين وانتشار المدارس في كافة أنحاء اليابان.

ويحتاج مسلمو اليابان إلى توزيع نسخ من القرآن الكريم، كما أن الحاجة ماسة إلى ترجمة كتب الحديث والفقه والتوحيد.

المراجع والمصادر:

- موقع رسالة الإسلام.
- موقع المركز الإسلامي في اليابان
- د. مصطفى محمد رمضان، الأقليات المسلمة في آسيا والمحيط الهادي، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر الشريف، القاهرة، السنة الثانية والأربعون، الكتاب الثاني، ١٤٢٣ هـ - ٢٠١١م، ص ٣٤ - ٣٨.
- موقع هيئة الاتحاد الإسلامية.
- fact book
- fact way

ضجيج الصمت

عبد المنعم فرج ناصر الدلعه

تماماً كما توقف هدير الطائرات فوق بغداد منذ أعوام، توقف هدير غسالتي الصغيرة، واحتل السكون أرجاء المنزل، ولم أعد أسمع إلا صوت عقارب ساعتي الجدارية (هذه هي الساعة التي أحضرْتَها - يا زوجي - في ذكرى لقائنا الرابع).

وبعد هذا العناء الفكري، جلست مرهقة على تلك الأريكة ذات اللون الأبيض، بل ناصعة البياض من قلّة اللاعبين عليها، وأمعنتُ النظرَ في منزلي الواسع الممتد المليء بالجداريات والخزفيات والزخرفات.

آهٍ كم تمنيت أن تسقط جدارية واحدة على الأرض، وأُهرَع للملمتها، أو تتحطم هذه الخزفيات الجاثمة أمامي منذ أعوام.

كم تمنيت أن يرميَ باسل كُرَتَه على كل أشيائي ليحطمها، أو تقذفَ سارة لعبتها على كل جدارياتي فتبعثرها إلى فتافيت وأشلاء.

آهٍ كم تمنيت - يا حبيبي - أن تقرع جرس البيت فيُهرَع أطفالنا (الذين لم ينالوا تذكرة القدوم إلى عالمنا بعد) فرحين بقدومك.

آهٍ يا زوجي الحبيب! كم تمنيت أن ينهار الصمت المطبق في غرفة الجلوس الباردة؛ كما انهارت أبراج نيويورك.

آهٍ كم تمنيت أن أذهب إلى إحدى جاراتي وأشكو لها ألم أسنان رقية.

آهٍ يا رقية! رقية التي صنعتْ كلَّ آلامي ببقائها في عالم الغيب.

آهٍ يا زوجي الحبيب! لو تراني وأنا أرقب الشارع الملاصق لنافذة مجلسنا بعد ذهابك للعمل في الصباح، وأرى الأطفال وهم ذاهبون إلى المدرسة؛ كأني أرى باسلاً ذاك الطفل الممتلئ ذا الشعر الأسود الكثيف، وهو يحمل حقيبته محدِّثاً أصدقاءه عن الفطيرة التي صنعتها له أمه... نعم أمه التي هي أنا.

لو تعلم - يا زوجي الحبيب - أن كثيراً من البشر يرتعون في نعم الله ولا يُلقُون لها بالاً.

فإليكَ القرار يا حبيبي فالحياة تذكرة سفر لمرة واحدة لن نعود بعدها إليها.

التصعيد العسكري الأخير ضد قطاع غزة

د. عدنان أبو عامر(*)
adnanaa74@hotmail.com

قدَّرت المحافل الصهيونية المتابعة للتطورات عن كثب أن جيش الاحتلال لو أراد شنَّ هجوم كاسح على غزة، فسيعلم كيف سيقوم بذلك؛ حتى لو تعلق الأمر بهجوم تحذيري رمزي ليؤكد لحماس ماذا سيحدث في قطاع غزة لو هاجمها؟ مؤكدةً أن ردَّ الجيش على مهاجمة الحافلة لن يؤثر على التطورات العسكرية والسياسية القادمة في قطاع غزة، وسيستمر إطلاق الصواريخ، ملمِّحة إلى أن ما يحصل حالياً في غزة هو عبارة عن عملية «رصاص مسكوب مُصغرة».

وقد أجمع مراقبون إسرائيليون على أن الجيش اعتبر حادثة الحافلة بمثابة «إشارة صفراء» للانطلاق نحو عملية عسكرية محدودة ضد حماس في غزة؛ حيث سيقوم بردٍّ قوي ضد غزة لمنع تصعيد الأمور مرة أخرى.

أسئلة بدون إجابة:

لقد رأى المراقبون الإسرائيليون أن عملية الحافلة، شكلت تحدياً كبيراً جداً للمؤسسة العسكرية، لكن السؤال الأساسي هو: هل كان مطلِق الصاروخ يعلم بأن الإسرائيليين الذين كانوا على متن الحافلة، قد نزلوا منها أم لا؟

ففي حال كان يعلم فإن هذا يعني أن حماس أرادت توجيه رسالة ليس إلا، دون أن تتسبب في دحرجة الأوضاع نحو مواجهة شاملة وواسعة في قطاع غزة، والتلويح بأن لديها خيارات واسعة ومؤلمة؛ إنّ تجاوز الجيش الإسرائيلي «خطوطه الحمراء».

أما في حال كان لا يعلم، فهذا يعني أن حماس أرادت توجيه ضربة قاصمة للجيش الصهيوني وجباية «أثمان باهظة» منه، والذهابَ بعيداً في رفض المعادلة التي يحاول فرضها دون أي اكتراث بالأثمان التي قد يدفعها.

ويخلص هؤلاء إلى أن ما جرى خلال الأيام الأخيرة يؤكد أنه يمكن للتقديرات الخاطئة أن يكون لها دور في التسبب بتصعيد قد لا يكون مرغوباً به لكل الأطراف، كما أن أي ضربة عسكرية مؤلمة يرى فيها الطرف المستهدَف تجاوزاً حاداً لخطوط حمراء يرسمها، قد يدفعه إلى الرد المؤلم، ومن ثَمَّ الذهاب نحو تدحرُج تصاعدي؛ على الرغم من أن حرصهما قد يؤدي في نهاية المطاف إلى لجمه.

في الوقت نفسه، فإن الصاروخ المضاد للدبابات من طراز «كورنيت» الذي أُطلِق باتجاه دبابة، وأخطأ هدفه تماماً، ليصيب حافلة تُقِل طلاباً، كشف مجموعة حقائقَ أساسية جديدة تقف أمام الجيش، وذلك على النحو التالي:

(*) كاتب فلسطيني.

١ – تبيَّن أنه في حال أراد الجيش شـنّ هجوم على حماس في غزة، فسيعلم كيف يقوم بذلك؛ حتى ولو تعلّق بهجوم تحذيري رمزي ليؤكد لحماس ما سيحدث في قطاع غزة لو هاجمها.

٢ – الخطوات العسكرية التي من المفترض أن يقوم بها الجيش «الإسرائيلي»، ينبغي أن تُنسَّق أو تتم من خلال «فكر سياسي إستراتيجي»، أو بـ «خطوات سياسية على الأرض»؛ لأن حكومة إسرائيل والجيش لا يقدِّمان ردوداً على التطورات السياسية المصرية تجاه الفلسطينيين، فإن ردَّ الجيش الإسرائيلي على مهاجمة حافلة الطلاب بصاروخ مضاد للدبابات لن يؤثر على التطورات العسكرية والسياسية القادمة في قطاع غزة، وسيستمر الإطلاق على كل الأحوال.

٣ – عملية الجيش في قطاع غزة هي دليل على «رصاص مسكوب مصغَّرة»، بمعنى آخر: «حرب نيران بدون هجمات برية».

٤ – ومن الناحية العملياتية، فإن قصف الأهداف الفلسطينية وقع على امتداد جبهة واسعة تمتد من مطار رفح وحتى الأطراف الشمالية لمدينة غزة، في الوقت الذي وقع فيه الاختيار على خان يونس ودير البلح على أنهما ساحتات فلسطينية رئيسية لتلقِّي معظم الضربات، وتم اختيار منشأتين مركزيتين تابعتين لكتائب القسام في مدينة غزة؛ حيث جرى إطلاق صواريخ على خان يونس من الجو والأرض، وهو ما أدى لتدمير أجزاء كبيرة من المدينة، وإصابة شبكة الكهرباء، والمولِّد، وخزانات الوقود.

التكتيك القتالي:

في الوقت الذي تؤكد فيه المستويات السياسية والعسكرية أن هدف الجيش «الإسرائيلي» هو وقف عمليات حماس، وتحديد قائمة انتقام رداً على إطلاق الصواريخ، فإن هناك أجواء لا تقل إصراراً تسود داخل حماس تريد أن تضع قواعد جديدة حول الإجراءات الميدانية التي يقوم بها الجيش على امتداد السياج الأمني.

وفي الوقت الذي تعمل فيه «كتائب القسام» حالياً طبقاً لتكتيك «حزب الله» في لبنان، فإن المواجهة العسكرية في قطاع غزة التي بدأت بإطلاق صاروخ مضاد للدبابات من قِبَل حماس على حافلة طلاب، تحولت خلال يومين إلى مواجهة غير متوقعة للجيش الصهيوني، ليس فقط مع حماس، ولكن مع حزب الله أيضاً.

وقد واصل الجيش تكتيكه الذي يعتمد على توجيه ضربات جوية ومدفعية ضد القطاع، بهدف كسر رغبة القتال لدى حماس، لكنها ردَّت بإطلاق أكثر من ٧٠ صاروخاً وقذيفة هاون باتجاه أهداف إسرائيلية، وهي بذلك زادت من حجم النيران التي تطلقها بنسبة ٢٥٪.

وتزعم المصادر الاستخباراتية أنَّ توجُّه حماس في تحديد الهدف التالي في القتال، يتمثل في «خلق وضع في قطاع غزة يشبه الوضع السائد على الحدود الشمالية لإسرائيل مع لبنان»؛ ففي المنطقة الحدودية بين إسرائيل ولبنان لا توجد «حلقة أمنية»، ولا يستطيع أن يتدخل الجيش «الإسرائيلي»، كما يستطيع اللبنانيون التحرك بحرية على امتداد السياج الأمني.

لكن الوضع على امتداد السياج الأمني داخل قطاع غزة مختلف، فقد أعلن الجيش الإسرائيلي عنه بشكل أحادي الجانب مطلع عام ٢٠٠٩م مع انتهاء عملية الرصاص المسكوب، ويبلغ عرضه ٥٠٠م، ويُصرُّ على عدم دخول أي شخص إلى هذه المنطقة، وخاصة أن منظمات المقاومة الفلسطينية تستخدمها منطلقاً إلى داخل إسرائيل لتنفذ عملياتها.

كما لا يسمح الجيش الإسرائيلي بدخول المزارعين الذين يعملون في أراضيهم، وتزعم حماس أنها ليست على استعداد لقبول القيود التي يفرضها الجيش، وخاصة أن الأمر يتعلق بـ ١٥٪ من مساحة الرقعة الزراعية المستصلحة في القطاع.

وهكذا تهدد حماس حالياً بأنه في حال لم يتم إلغاء هذا الحزام، فإن الحرب على امتداد السياج الأمني ستستمر. والآن من الواضح جداً أن إطلاقها لصاروخ الحافلة جاء عملياً ليشكل «طلقة البداية» المتعمَّدة التي تنذر ببداية الحرب على المنطقة الأمنية الصهيونية في قطاع غزة.

ولأن حركة المقاومة الإسلامية حماس في هذه المرحلة على ثقة بأن الجيش الصهيوني لن يُدخِل قوات برية إلى قطاع غزة، فإنها على استعداد لمواصلة معركة تتلقى خلالها ضربات وخسائر، ولكن هناك ٢٥٠ ألف إسرائيلي في محيط قطاع غزة والمدن الكبرى حول المنطقة يتلقون القذائف، وهو ما يؤكد أن هذه المرحلة لن تشهد «وجود حسم»، لكن هذا الأمر سيتم لو قرر أحد الطرفين رفع سقف المواجهة العسكرية في قادم الأيام.

موقع تركيا ودورها في السـ

السنوسي محمد السنوسي(*)
Elsenosey_writer@yahoo.com

في عالمنا العربي والإسلامي، بل في العالم بوجه عام يصدر كلَّ يوم عشرات وربما مئات الكتب، لكنَّ قليلاً منها يستطيع أن ينفذ من عالم «الفكر» إلى عالم «السياسة»، ومن إطار النظر والتأمل إلى الفعل والتأثير.

وأقل من ذلك، من تواتيه الفرصة ليكون هو منفِّذ وصانع السياسات التي اجتهد في بلورتها والتنظير لها؛ فثمة دائرتان - خاصة في عالمنا العربي والإسلامي - تبدوان للأسف منفصلتين في أوقات كثيرة، هما: دائرة «الفكر»، ودائرة «السياسة»؛ فمن لديه «الفكر» لا يتمكن من تحويل النظريات والأفكار إلى برامج وخطط، ومن بيده «القرار» قلَّما يستند إلى أصحاب الخبرة وأهل «الذكر». ولعل هذا يمثل أحد أوجه «الانفصام» الذي نعانيه في واقعنا المعاصر.

بعد هذه المقدمة أستطيع أن أقول: إن الاحتفاء الذي صاحب صدور الترجمة العربية لكتاب «العمق الإستراتيجي: موقع تركيا ودورها في السياسة الدولية» للبروفيسور (أحمد داود أوغلو) وزير الخارجية التركي، من قِبَل مفكرين ومثقفين وسياسيين في الحفل الذي أقيم في العاصمة القطرية في (٢٠/ ١٠/ ٢٠١٠م) وفي غير ذلك من المنتديات الفكرية والثقافية. إن ذلك الاحتفاء لم يكن احتفاءً بصدور كتاب مهمٍّ فحسب، بل بسياسة دولة استطاعت أن تلملم أوراقها، وتعيد حساباتها، وتدرك جيداً المتغيرات الداخلية والدولية وأن توظفها إلى أقصى حد، مستندةً في ذلك إلى الموقع «الجيوستراتيجي» وإلى «الامتداد التاريخي» اللذين يشكلان معاً «عمقاً إستراتيجيّاً» يُمكِّن تركيا بقيادة حكومة «العدالة والتنمية» من أن تتحول من «جسر» و «طرف» في التكتلات والأحلاف إلى «مركز» و «ملتقى» حضاري وسياسي واقتصادي في آن واحد.

تلك بإيجاز الفكرة الأساسية التي أقام عليها أوغلو نظريته الفريدة، ورؤيته لدور تركيا في كتابه «العمق الإستراتيجي» الذي ألَّفه قبل عشر سنوات حين كان مستغرِقاً في العمل الفكري والأكاديمي، ثم أتيح له أن يطبِّق نظريته تلك عمليّاً حين تولى منصب كبير مستشاري رئيس الوزراء عام ٢٠٠٣م، ووزارة الخارجية التركية عام ٢٠٠٩م، لكن كتابه الذي ألَّفه عام ٢٠٠٠م، وطُبع ٥٠ طبعة وتُرجم إلى عدة لغات، لم يترجم إلى العربية إلا بعد عشر سنوات[1].

(*) باحث وصحفي.

(١) ألا يشير ذلك إلى تأخر حركتنا عن الواقع المعاصر ثقافيّاً وحضاريّاً؟

ـــــياسة الدولية

أما عن العمق الجغرافي لتركيا فيذكر أوغلو أن جغرافية تركيا تعطيها حال دولة مركزية فريدة تختلف عن الدول المركزية الأخرى؛ فعلى سبيل المثال تُعتبَر ألمانيا دولة مركزية في أوروبا ولكنها بعيدة جغرافياً عن إفريقيا وآسيا، وروسيا أيضاً دولة مركزية في أوروبا وآسيا لكنها بعيدة جغرافيا عن إفريقيا، وإيران دولة مركزية في آسيا لكنها بعيدة جغرافياً عن أوروبا وإفريقيا. وبنظرة أوسع فإن تركيا تحتفظ بالموقع الأفضل في ما يتعلق بكونها دولة أوروبية وآسيوية في الوقت نفسه، كما أنها قريبة من إفريقيا أيضاً عبر شرق البحر المتوسط؛ ومن ثَمَّ فإن دولة مركزية تحتفظ بموقع متميز كهذا لا يمكن لها أن تعرف نفسها من خلال سلوك دفاعي، ويجب ألا يُنظَر إليها كدولة جسر تربط نقطتين فقط، ولا دولة طَرفيَّة، أو دولة عادية تقع على حافة العالم الإسلامي أو الغربي.

وأما عن الشق الآخر للعمق الإستراتيجي (وهو الامتداد التاريخي)، فقد أوضحه أوغلو بالإرث العثماني لتركيا الذي ضم هويات وقوميات متعددة امتدت باتجاه العالمين (العربي والإسلامي) والقوقاز وأرمينيا وإيران وإلى أوروبا أيضاً.

ويرى أوغلو أن التاريخ والجغرافيا ثابتان لا يمكن تغييرهما ولكن يمكن إعادة قراءتهما؛ ولذلك دعا إلى ما أسماه «تطبيع التاريخ» أي إعادة التكامل بين المجتمعات والاقتصاديات والسياسات.

إن «العمق الإستراتيجي» - كما يؤطر له أوغلو - يستتبع عدة أمور، أهمها:

- **إنهاء المشكلات:** أي خفض المشكلات مع دول الجوار إلى درجة الصفر، وصولاً إلى درجة أرقى؛ حيث إقامةُ علاقات إستراتيجية معها؛ ويرى أوغلو في ذلك بديلاً (بل ردّاً عمليّاً) على نظريات صراع الحضارات ونهاية التاريخ، التي توجِّه بشكل أو بآخر العلاقات الدولية المعاصرة خاصة من جانب الدول الكبرى؛ وليس أدلَّ على ذلك من التحول الجذري لتركيا باتجاه تطبيع العلاقات مع سوريا بعد أن كانت الدولتان على شفا حرب مؤكدة.
- **الثقة بالنفس:** فينطلق أوغلو لا من التقسيم الشائع الذي يشطر العالم إلى دول متقدمة وأخرى نامية، بل من كون الدول - ومن ثَمَّ الحضارات - تقف على قدم المساواة، أو ينبغي أن يكون ذلك.

إن هذه الثقة بالنفس هي التي تجعل الدول - كما يرى أوغلو - تتغلب على الشعور بالدونية تجاه طَرَف مَّا؛ ونحن نستطيع أن نلمس هذا المفهوم عملياً من خلال موقف تركيا المساند لحركة المقاومة الإسلامية «حماس» بعد نجاحها في انتخابات المجلس التشريعي عام ٢٠٠٦م، متحديةً في ذلك الدول الغربية التي فرضت «طوقاً حديدياً» على حكومة حماس، بل وقفت تلك الدول متخاذلة (أو متواطئةً) أمام العدوان الصهيوني (٢٠٠٨ - ٢٠٠٩م) على غزة. كذلك من خلال موقف تركيا تجاه إسرائيل خاصة بعد اعتدائها على «أسطول الحرية» على النحو، الذي فصَّلناه في عدد ماضٍ من مجلة «البيان».

ثمة أمر يجب أن نلتفت إليه النظر؛ وهو أن طريقة تحليل أوغلو للأسس والمحددات لدور تركيا (جغرافيّاً وتاريخيّاً وحضاريّاً)، هي طريقة في التحليل من الجائز، بل من الواجب أن تستفيد منها أي دولة تبحث لها عن موطئ قدم في السياسة الدولية؛ إذ لا يخلو شعب من الشعوب ولا حضارة من الحضارات من مميزات وخصوصيات تمثل لها في حال تفعيلها وتَمَثُّلها «عمقاً إستراتيجيّاً»؛ حتى إن اختلفت صورة ذلك من شعب لآخر، ومن حضارة لأخرى.

ويبقى السؤال قائماً: إلى أي مدى ستنجح دولنا العربية في الاستفادة من هذه الأفكار، ومدِّ الجسور مع تركيا على جميع المستويات: سياسيّاً واقتصاديّاً وثقافيّاً؟

أبناؤنا في خطر

عندما نفكر في المستقبل فإننا نفكر (عادة) في أبنائنا بالدرجة الأولى؛ ماذا أعددنا لهم من عُدَّة لمواجهة الزمن القادم؛ هل وصولهم إلى هذا القادم آمن لهم ولأبنائهم، وهل سينشئون أبناءهم كما أنشأناهم؟ هل بإمكانهم المحافظة على هويتهم الدينية والثقافية، أم أن رياح العواصف ستذروهم كعصف مأكول؟

أسئلة كثيرة تؤرق الباحثين وقبلهم الآباء الذين أصبحوا بدورهم في مهبِّ دوامة لا تميز بين الطالح والصالح، ولا بين الحق والباطل. وخير دليل على ذلك استسلامهم لرغبات أبنائهم الجامحة؛ من خلال توفير وسائط معلوماتية مهلكة للعقل والنفس، ومواد استهلاكية مضرة بالصحة الجسدية.

ومن خلال هذه الورقة سنحاول أن نضع القلم على موضع الخطر منبهين ومحذرين؛ كي لا نلقي بأنفسنا إلى التهلكة.

تنتشر بين صفوف الشباب العربي اليوم ظاهرة تعاطي المشروبات الطاقية التي أصبح يتهافت عليها الشباب العربي في جميع المناسبات؛ سواء كانت تتعلق بالاستعداد للامتحانات أو الألعاب الرياضية.

وأصبح اليوم شبه مؤكد أن هذه المشروبات التي يُقبِل عليها بشراهة شبابنا العربي من المحيط إلى الخليج تشكِّل تهديداً حقيقياً على صحة فلذات أكبادنا، فتناول قارورة واحدة يومياً يزيد خطر الإصابة بأمراض القلب والجلطة الدماغية. وذكر أحد الاختصاصيين في أمراض القلب في مستشفى إديلايد الملكي بأستراليا الدكتور (سكوت ويلوفبي) أنه: «بعد ساعة مضت على تناوُل مشروب ريد بول تتوقف أجهزة الدم عن العمل بشكل طبيعي»؛ ولهذا السبب منعتْ بيعَه بعض الدول مثل النرويج وأورغواي والدانمارك؛ بسبب أخطاره الصحية المحتملة، ولكن ذلك لم يمنع الشركة المصنعة له من بيع حوالى ٣,٥ مليار علبة معدنية وقارورة في ١٤٣ دولة في العالم العام الماضي.

وهناك خطر آخر يتربص بشبابنا أيضاً؛ فقد كشفت دراسة حديثة أن قضاء ساعات أمام شاشات التلفاز أو الكمبيوتر يمكن أن يرفع من ضغط دم الأطفال. وكشف العالم ديفيد مارتينز جومز من جامعة (لوا ستيت) بالولايات المتحدة الأمريكية أن نتائج هذه الدراسة كشفت ارتباط مشاهدة التلفاز بارتفاع ضغط الدم لدى الأطفال؛ وهو الذي يتسبب في مخاطر جانبية: كالانفعال المفاجئ، والميل الى العنف، وتشوش التركيز. كما يمكن اعتبار الصبيب الهائل للصور والمعلومات وحمولاتها الثقافية الاستلابية التي تتنافى مع قيمنا الإسلامية خطراً مهولاً يزيد كثيراً عدد الشباب المستلَبين من قيمهم ومجتمعهم.

لهذا أصبح الآباء يشتكون كثيراً من تصرفات أبنائهم الغريبة التي يغلب عليها الانعزال والصمت داخل البيت والبرودة في العواطف وعدم الاهتمام بالمناسبات الدينية واللجوء الى جماعات منحرفة لإيجاد موقع اجتماعي جديد يناسب أفكارهم المستورَدة.

ومما زاد الطين بلَّة هذا الإنترنت الذي أصبح بالنسبة للشباب تعويضاً عن البيت والعائلة والأسرة، وأحياناً عن الوطن نفسه. كما أن زمن استعماله تضاعف؛ بل إن إدمان الشباب عليه حقيقة لا يمكن لأحد أن يدحضها؛ فيمكن لمستعمليه من الشباب العربي أن يقضوا ليالي بيضاء يتراسلون على الشات من خلال السكايبلوغ أو ميسبيس أو فيسبوك أو اليوتوب أو دايليموسيون... ويمكننا أن نتخيل الأضرار الهائلة التي تخرِّب صحة أبنائنا النفسية والجسمية.

وتلك الألعاب الافتراضية العجيبة الغريبة العنيفة التي يتهافت عليها الشباب تهافتاً مهووساً مَرَضياً وأحياناً تكون قاتلة لأجهزتهم العصبية، وتتسبب في بعض الحالات بحوادث مميتة لهم ولغيرهم، حينما يباشرون قيادة السيارات أو الدراجات.

إن ما تشيده الأسر بعناء وصبر، وما تسهر عليه المؤسسات التعليمية سنين طويلة تهدمه بشكل شنيع شهورٌ من الإدمان على المشروبات الطاقية، أو التلفاز، أو الإنترنت أو الألعاب الافتراضية. فعلى الأُسَر أن تعلم أن مواكبة العصر والتقنية ليس أن نترك أبناءنا يسيرون (بمباركتنا) إلى المستقبل فوق حقول من الألغام.

سعيد بوكرامي

لاخوف من الإلقاء بعد اليوم

الدورات معتمدة

كن خطيب زمانك

قالوا عن الدورة ...

بدأت الدورة بترغيب الإلقاء وانهيتها بحب المنبر

.....أبو عمار..... حسام

دورة الالقاء أعادت لي الثقة بالنفس

.....طالبة جامعية..... نورة

الآن اصبحت أقول ماأريد وأحسن ما أقول

الاسم: [illegible] المهنة: مدير مدرسة

دورة الألقاء جعلتني أتعامل الثقه بالنفس وتخطي الخوف

.....بدرية..... سعاد

تم تنفيذ ٢٥٠ دورة

وتدريب ١٢,٠٠٠ متدرب ومتدربة

وتقديم ١٠ دورات دولية

وتقديم ٨٥ برنامجاً لكبار الشخصيات والشركات والجهات الحكومية.

دورة مهارات الإلقاء تحقق:

- تهيئة خريجي الجامعات للتطبيق والتدريس.
- كيفية إعداد الكلمات والمحاضرات المقنعة والمؤثرة.
- كسر حاجز الهيبة من التحدث أمام الآخرين.
- التعرف على أسرار التاثير.
- تنمية مهارات الإصغاء.
- التعامل مع الأسئلة المفاجئة.

من إصداراتنا :

كتاب: لماذا نخشى الإلقاء؟ البوم قرص مدمج: فن الإلقاء

مدربون سعوديون
خبرة ١٢ سنة

الخطيب الصغير:

دورة إلقاء للأبناء :

آداب اجتماعية

+ علوم رجال

+ لبس المشلح

إصداراتنا متوفرة لدى مكتبات: جرير و العبيكان

يحصل المتدرب على: إصدارات المركز + تصوير أداؤه على سي دي + شهادة معتمدة

مركز الإلقاء

أول مركز متخصص في الإلقاء و المواجهة

www.alelqa.com

الرياض هاتف: ٠١/٤٧٧٩٩٩٢

جوال: ٠٥٣٣٣٩٥٩٣٣/٠٥٠٤٢٥٤٧٩٤

تحت إشراف المؤسسة العامة للتدريب التقني والمهني ترخيص رقم ٤٨٩٥/٢١٤

Badr: 0508948947

ثورات بالوكالة

د.عبد الله بن محمد المديفر

إن عدم الرضا بالظلم والسعي إلى رفعه أمر فطري، جُبِل عليه جميع بني الإنسان، ولا تُلام الشعوب إذا سلكت الطريق الصحيح لرفع الظلم وإقامة العدل، لكن يقع اللوم عليها ثقيلاً في أمور، منها: أن تخطئ الطريقة الشرعية لذلك، أو أن تذهب بظالم، وتأتي بأظلمَ منه، أو تذهب بحاكم يقول: إنه مسلم، لتأتي بنظام حكم يقول: إنه طاغوتي، أو تطيح بأمن نسبي، وتأتي بخوف كُلِّي.

وينبئنا التاريخ الحديث عن ثورات صفَّق لها الناس ورقصوا، ولكنها لم تلبث إلا يسيراً حتى صارت لعنة عليهم، وناراً مستعرة، اصطلوا بجحيمها عقوداً من الزمن؛ فهل يعي الثوار من التاريخ الدروس؛ ليضمنوا النجاح لِما بدؤوه؟

ومن الثقل الثقيل، والأَمْرِ الأَمَرِّ أن تكون الثورة لصالح الغير؛ ففي الوقت الذي تظن فيه الشعوب المسلمة أن الثورة ثورتها، يتبدى لها الأمر على عكس ذلك؛ فتجد أنها ثورة المستعمر المستريح، تُقدِّمُها له على طبق من ذهب، بجهدها وتعبها ودمائها، أو على أحسن الأحوال ثورة المصالح الثنائية المشتركة بين الشعب والمستعمر، فيدعمهم في خلاصهم من حكوماتهم على أن يضمنوا له إقامة ديمقراطية ليبرالية.

ولن يكون للإسلام في ثورة المصالح نصيب ألبتة، وسوف يجري الالتفاف المدروس عليه، وبالدرجة الأولى في وضع الدستور وصياغته، فلا يهم أن ينص الدستور على أن الإسلام دين الدولة، ولا يهم أن تكون الشريعة الإسلامية المصدر الأساسي للتشريع، ولكن المهم ألا تكون المصدر الوحيد، والمهم أيضاً أن تكون الهيئة التشريعية المرجع النهائي الذي يَفصِل في تفسير أي خلاف يحصل حول المادة هذه أو تلك، ولن يكون من أعضاء هذه الهيئة من علماء الشريعة الإسلامية إلا عدد قليل لا يؤثِّر؛ ذلكم هو حجر الأساس في الالتفاف. ولك أن تلحظ هذا الأمر وتتابعَه في كلِّ ثورة قائمة أو جديدة، وتالله ليخيبن أناس نحَّوُا الإسلام عن منهاج حياتهم. ولك أن تتابع أيضاً أنه لن تقوم ثورة باختيار طريقة غير الديمقراطية في حكمها.

عندما فشلت الولايات المتحدة الأمريكية في تحقيق أهدافها بالوسائل العسكرية في أفغانستان والعراق، وخاصة عندما عجزت عن جعل العراق أنموذجاً للديمقراطية الحديثة في الشرق الأوسط، سمعنا وقرأنا لكتَّابهم ومفكريهم وبعض القيادات لديهم حديثاً عن (حرب الأفكار)، وعن (القوة الناعمة)، وعن (كسب العقول والقلوب).

لقد بدأت الثورة التونسية عفوية، لكنها لم تُوجَّه بعفوية، بل وُجد من يوجهها، ولم تَحدث أي ثورة عفوية بعد الثورة التونسية، لكنها استَلهمت من الثورة التونسية، أو استُلهم لها.

فإن كانت ثورات الدول العربية هذه الأيام هي نتيجة عملية لحرب الأفكار فقد نجحت أمريكا نجاحاً ساحقاً من غير أن تخسر شيئاً، وبلغت نصراً حقق كل أهدافها من غير أن تخسر جندياً واحداً، ومن غير أن تدفع دولاراً واحداً، إلا ما أنفقته لتغذية هذه الثورات وحمايتها وتوجيهها نحو أهدافها؛ لتعيش الدول الثائرة بعد ذلك: إما على النمط الديمقراطي الغربي العَلماني، وإما أن تظل في حالة من الفوضى الخلاَّقة، التي يحصل منها كل المشاكل الاجتماعية المتصوَّرة، وقد تقود هذه الفوضى البلد إلى الانقسام والتجزُّؤ إلى دويلات.

ولئن كان يُقِرُّ كبار المخططين الأمريكيين أن أمريكا لا تستطيع أن تنجح في تحقيق أهدافها عندما تشن في آن واحد حرباً في أكثر من دولة، فإني أقول: سوف تنجح أمريكا (عند غفلتنا) في شن (حرب أفكار) في مئة دولة في آن واحد، تُسقِطُ فيه الدولة البائدة، وتُقيم على أنقاضها دولة حديثة بمواصفات أمريكية ديمقراطية ليبرالية؛ لتنسلخ الدولة المسلمة من هويتها الإسلامية، وتجعل الدين أمراً خاصاً بين العبد وربه، وليس له علاقة في حياة الناس العامة.

إن نشر الديمقراطية الليبرالية هدف محوري لدى الولايات المتحدة الأمريكية منذ سقوط الاتحاد السوفييتي عام ١٤١١هـ الموافق لعام ١٩٩١م، وليس هدفاً ثانوياً، وعلى الرغم من أنه لا يحقق لها مصالحها على المدى القصير كما تحققه بعض الأنظمة الحاكمة حاليّاً؛ إلا أنها تراه يحقق لها مصالح كبيرة جدّاً على المدى الطويل.

وفي ظل المأزق الأمريكي في تعارض الطموحات طويلة الأمد مع الضرورات قصيرة الأمد، جاءت الأحدث في هذا العام لترجِّح الكفة لصالح المدى الطويل، وتمثَّلت الفرصة السانحة لأمريكا لتحقيق هدفها بكل يسر وسهولة، فسهرت على حماية الثورات وتشجيعها ودعمها. وصار هذا الزمن زمن النحر الأمريكي للحكومات الصديقة وغيرها، تقرُّباً إلى الديمقراطية، التي ستؤسِّس ضوابط وممارسات وقيماً يلتزم بها العالَم، ولن يُستثنى من هذا النحر أيُّ حكومة صديقة مهما كانت صداقتها، ولن يشفع لها أي علاقة تاريخية طيبة مهما كانت طويلة. فاللهم سلِّم سلِّم.

يتساءل المحلل السياسي البارز الدكتور (غريغوري تريفِرتون): هل يجب على الولايات المتحدة التخلي عن الحكومات المتسلطة والفاسدة؟ ثم يجيب عنه بجواب صريح في دراسة أعدها لوزارة الخارجية الأمريكية عام ٢٠١٠م، وقد انبثقت دراسته من مشروع (تقرير الاتجاهات العالمية ٢٠٢٥م: عالم متحول). يقول في دراسته: «إن الجمع بين تأمين الطاقة ومحاربة الإرهاب يُدخل الولايات المتحدة الأمريكية في شراكة مع دول غير ديمقراطية أو مكروهة أو كليهما، ابتداء من مصر إلى المملكة العربية السعودية وباكستان، إضافة للعديد من الدول الأخرى ضمن هذا التصنيف. إن الإجابة عن السؤال: هل يجب على الولايات المتحدة التخلي عن الحكومات المتسلطة والفاسدة؟ هو: (نعم، ولكن ليس بَعْد). قد يكون أفضل ما تقوم به الولايات المتحدة هو السير في سياسة تخفيض الاعتماد على النفط المستورَد؛ وهو ما سيساعد على تخفيض الاعتماد على مُورِّدي النفط غير المرغوب فيهم»[1].

(1) Making Policy in the Shadow of the Future, Gregory F. Treverton, (U.S.A ,Santa Monica ,Rand, 2010), P. 38.

وقد اقترح الرئيس الأمريكي في ٢٠١١/٣م خفض واردات النفط بواقع الثلث خلال عشر سنوات، بالتركيز على تطوير وقود بديل، وزيادة الإنتاج المحلي من النفط، وخفض الاستهلاك.

فهل ستستيقظ الشعوبُ الثائرة بعد حين لتجد أنها وقعت في فخ الديمقراطية القابضة العميلة؟ وتجد أنها كانت تسدد دَيناً ثقيلاً لم تستدنه؟ عندها لن يكون هناك مجال لثورات جديدة؛ لأن لدى الأنظمة الديمقراطية القدرة على امتصاص غضب الشعوب، ولأن الثورات ستصبح من الصعوبة بمكان، ولن تُدعم، ولن تُحمى، ولن يُسمح لها بالنمو والتمدد.

قد يكون من الصعب الإيمان بالكلام السابق وتصديقه في ظل اغتباط الشعوب بثوراتها، وقدرتها على إسقاط طغاتها، وانتشائها لمستقبل سعيد في مخيلتها، لكن إن كان لي من دعوة مسموعة فإني أدعو الشعوب الإسلامية والحكَّام المسلمين إلى شن (ثقافة أفكار) مضادة، تؤدي إلى قيام الحكام بإصلاحات جذرية حقيقية سريعة وعادلة، في جميع المجالات، يُرفع بها الظلم، ويُقام العدل، وتُحرِّك تلك الثقافة الشعوب أيضاً إلى التعاون مع حكوماتها والمشاركة في تحقيق هذه الإصلاحات، وأن يُقدِّم الطرفان التنازلات للآخر.

وأن يسعوا إلى تحقيق القاعدة المستقبلية الربانية، التي تحقق لهم التراضي والتصالح والتحاب في ما بينهم (حكَّاماً ومحكومين)، وهي أن تسعى الأطراف جميعاً إلى رضا الله - تعالى - في جميع شؤون حياتهم، وخاصة حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية. يقول الرسول ﷺ : «مَن التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مُؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وَكَلَه الله إلى الناس»[1]. وهي قاعدة متينة لا يستهين بها إلا قلب مريض لم يعرف مدى أثرها البليغ.

ولا يوسوس لهم الشيطان ويخوفهم بالاعتراض أو التدخل الغربي العسكري: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

في مثل هذا التفاهم بين الحاكم والمحكوم يتحقق الإصلاح وتُضمَّد الجراح، ويحصل النماء والبناء، والسلامة من العواقب الخفية لما تؤول إليه الثورات، ولن يتحقق التفهم إلا بالتلاين من الطرفين، وحُسن ظن كل طرف بالآخر، والتحرك السريع في إصلاحات حقيقية ملموسة.

يخبرنا القرآن الكريم عن أمة نجت لَمَّا أصلَحَت أوضاعها عندما رأت العذاب: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

كما يخبرنا القرآن الكريم عن أمم هلكت لَمَّا استخفت بالعذاب وتركت دفع أسبابه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤ - ٢٥].

إنَّ شنَّ (ثقافة الأفكار المضادة) منوط بكل صاحب منبر يستمع إليه الناس والحكام، أو يقرؤون له: من علماء، ومثقفين، ومفكرين، وخطباء، ودعاة، وأساتذة، ومعلمين، وإعلاميين، ووزراء، وسياسيين، ومسؤولين، وجمعيات، ومراكز فكرية، ونحو ذلك.

نسأل الله - تعالى - أن يصلح أحوال المسلمين، وأن يَلْطُف بهم، وأن يجعل ما يكيده الأعداء وبالاً عليهم، وأن يكون تخطيطهم راجعاً فيهم.

(١) رواه الترمذي.